القارئ الهجين:
نحو نظرية للتلقي الخوارزمي
والقراءة ما بعد الخوارزمية :
دراسة نقدية نظرية

إنجاز الكاتب المغربي
عبده حقي

شتنبر 2026

تقديم

من «الكاتب الهجين»

إلى «القارئ الهجين»:

نحو استكمال مشروع نقدي في الأدب والخوارزمية

أقدم هذا الكتاب، »القارئ الهجين: نحو نظرية للتلقي الخوارزمي والقراءة ما بعد الخوارزمية«، بوصفه امتدادًا فكريًا ونقديًا مباشرًا لكتابي السابق حول »الكاتب الهجين«، لا باعتباره مشروعًا منفصلًا عنه أو انتقالًا عابرًا من موضوع إلى آخر، لأن السؤال الذي انطلقت منه في الحالتين واحد في جوهره، وإن اختلف موقع النظر إليه: ماذا يحدث للأدب ولعمليتي الكتابة والقراءة عندما تدخل الخوارزميات وأنظمة الذكاء الاصطناعي إلى المجال الذي كان يُنظر إليه طويلًا باعتباره حقلًا بشريًا خالصًا للإبداع والتأويل؟ ففي كتابي السابق كنت أقترب من النص من جهة إنتاجه، وأسائل التحولات التي تصيب صورة الكاتب عندما يستعين بالآلة في البحث والتخطيط والصياغة والمراجعة والتوليد، أما في هذا الكتاب فإنني أنتقل إلى الجهة المقابلة من العملية الأدبية لكي أسأل عن القارئ الذي يستقبل نصًا داخل بيئة أصبحت الخوارزمية فيها حاضرة قبل القراءة وأثناءها وبعدها.

وقد أدركت، وأنا أشتغل على مفهوم »الكاتب الهجين«، أن المشروع سيظل ناقصًا إذا توقفت عند لحظة إنتاج النص، لأن الأدب لا يكتمل داخل الكتابة وحدها، والنص الذي تتغير شروط تأليفه لا يمكن أن يدخل إلى فضاء التلقي وكأن شيئًا لم يتغير. فإذا أصبح الكاتب قادرًا على توزيع بعض وظائف الكتابة بينه وبين أدوات رقمية وأنظمة ذكاء اصطناعي، فإن القارئ بدوره أصبح قادرًا على توزيع بعض وظائف القراءة بين ذاكرته ومعرفته وقدرته التأويلية وبين محركات البحث والترجمة الآلية والتلخيص

وأنظمة التوصية والمساعدات التوليدية. ومن هنا بدا لي أن الانتقال من الكاتب الهجين إلى القارئ الهجين ليس انتقالًا بين كتابين فحسب، بل انتقال من نصف الدورة الأدبية إلى نصفها الآخر، ومحاولة لبناء رؤية أكثر شمولًا لما يمكن أن أسميه الثقافة الأدبية الهجينة.

لقد كان السؤال في الكتاب الأول متعلقًا أساسًا بحدود التأليف: متى تظل الأداة مساعدة للكاتب، ومتى تبدأ في مزاحمته داخل الوظيفة التي تمنحه صفة المؤلف؟ وما الفرق بين كاتب يستخدم الذكاء الاصطناعي في البحث أو المراجعة، وكاتب يفوض إليه البناء والتوليد إلى درجة يصبح فيها دوره أقرب إلى الاختيار والتحرير؟ وقد قادني ذلك إلى التفكير في النقد الميتا خوارزمي والنقد ما بعد الخوارزمي بوصفهما أفقين نقديين ضروريين لتحليل النصوص التي تدخل الخوارزمية في شروط إنتاجها. غير أن هذا المسار كشف في الوقت نفسه عن سؤال آخر ظل يزداد إلحاحًا: ماذا عن الطرف الذي يستقبل هذه النصوص؟ ماذا يحدث للقارئ نفسه عندما تصبح الآلة قادرة على أن تشرح له العمل وتلخصه وتقارنه بغيره وتجيب عن أسئلته وتولد له تأويلات محتملة؟

ومن هنا جاء كتاب »القارئ الهجين «بوصفه استكمالًا طبيعيًا لذلك المشروع. فإذا كان الكتاب السابق ينطلق من صيغة يمكن تبسيطها في العلاقة:

الكاتب البشري + الأداة الخوارزمية → الكاتب الهجين

فإن الكتاب الحالي ينتقل إلى الصيغة المقابلة:

القارئ البشري + الأداة الخوارزمية → القارئ الهجين

غير أنني سرعان ما وجدت أن الصيغتين لا تعملان منفصلتين، لأن الكاتب الهجين ينتج نصًا يدخل إلى فضاء قد يكون هو الآخر خوارزميًا، ثم يستقبله قارئ هجين يستخدم التقنية لفهمه، ويعيد بعد القراءة إنتاج مراجعات وتعليقات وتأويلات يمكن أن تدخل مجددًا في الخوارزميات التي تنظم الرواج

والتوصية. وهكذا لم تعد المسألة متعلقة بعلاقتين منفصلتين، بل بدورة كاملة تتداخل فيها الكتابة والنص والقراءة والخوارزمية والنقد.

لهذا أصبحت العلاقة بين الكتابين، بالنسبة إلي، أكثر وضوحًا كلما تقدمت في البحث، إذ إن »**الكاتب الهجين** «يسأل عما يحدث قبل اكتمال النص، بينما يسأل »**القارئ الهجين** «عما يحدث بعد أن يدخل النص إلى التداول، وبينهما يقف مفهوم ثالث أصبح ضروريًا هو »**النص الهجين**«، أي النص الذي تحمل جينالوجيا إنتاجه أو بنيته أو طريقة تفاعله مع المتلقي آثارًا بشرية وتقنية متداخلة. ومن هنا يمكن التعبير عن المشروع الذي أعمل عليه في صورته الأوسع بالعلاقة التالية:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين

لكن هذه الصيغة نفسها لا تكتمل من دون العنصر الرابع، لأن العلاقات الجديدة تحتاج إلى نقد يستطيع أن يقرأها ويفككها، ولذلك أضيف إليها:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين ↔ النقد الهجين

وبهذا المعنى لا أرى كتاب »**القارئ الهجين** «عملًا ثانيًا يأتي بعد كتاب »**الكاتب الهجين** «في ترتيب زمني فقط، بل أراه الجزء المكمل لمشروع يحاول إعادة التفكير في السلسلة الأدبية كلها بعد دخول الذكاء الاصطناعي إليها. فقد اعتدنا أن ننظر إلى الأدب ضمن حركة تبدأ بالكاتب، وتمر بالنص، ثم تصل إلى القارئ والنقد، أما البيئة الخوارزمية فقد جعلت هذه الحركة أكثر دائرية وأقل استقرارًا، لأن القارئ قد يصبح منتجًا، والكاتب يصبح قارئًا لمقترحات الآلة أثناء الكتابة، والمنصة تتوسط بين النص والجمهور، والخوارزمية تتعلم من التلقي لكي تعيد تنظيم التوزيع، بينما يعود النقد ليستخدم الأدوات نفسها التي يحاول مساءلتها.

وإذا كان مشروع **الكاتب الهجين** قد جعلني أفكر في كيفية توزيع وظائف الكتابة، فإن مشروع **القارئ الهجين** جعلني أعود إلى السؤال نفسه من الجهة المقابلة: كيف تتوزع وظائف القراءة؟ وهل ما زلنا نستطيع تعريف القارئ بأنه ذلك الفرد الذي يفتح الكتاب ويستقبل العلامات ثم يبني معناها داخله، بينما يمكن لنظام خارجي اليوم أن يختار له ما سيقرأ، ويقدم له الخلفية، ويترجم، ويلخص، ويشرح، ويولد مقارنات وتأويلات؟ لقد وجدت أن التمييز لم يعد قائمًا بين قارئ «تقليدي» وقارئ «رقمي» فقط، لأن استخدام الشاشة لا يغير بالضرورة بنية الفهم، بينما تستطيع أدوات الذكاء الاصطناعي أن تدخل إلى صميم العملية المعرفية نفسها، ولذلك كان لا بد من التمييز بين رقمنة القراءة وتهجين القراءة.

ومن هنا اقترحت أن يكون **القارئ الهجين** هو القارئ الذي تتوزع بعض وظائف قراءته، بدرجات متفاوتة، بين قدراته البشرية وبين وسائط رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي، مع احتفاظه بالمسؤولية عن الحكم النهائي. وهذا التحديد يتوازى بصورة مقصودة مع مفهوم الكاتب الهجين، لأنني لا أريد في المشروعين أن تتحول الهجنة إلى اسم لمحو الإنسان، بل إلى مفهوم يصف **توزيع الوظائف من دون توزيع المسؤولية بالدرجة نفسها** . فالكاتب يستطيع أن يستعين بالآلة في التوليد، لكنه يظل مسؤولًا عن النص الذي يختار نشره، والقارئ يستطيع أن يستعين بها في التأويل، لكنه يظل مسؤولًا عن القراءة التي يتبناها ويدافع عنها.

ولهذا تقوم العلاقة بين الكتابين على مبدأ واحد أراه حاسمًا :**الهجنة ليست استبدالًا للإنسان، وإنما إعادة توزيع لبعض الوظائف داخل علاقة جديدة بين الإنسان والتقنية** .وإذا تجاوز التوزيع حدودًا تجعل الكاتب لا يعرف ما الذي كتبه ولماذا، أو تجعل القارئ غير قادر على تفسير ما قبله من النظام، فإننا لا نكون أمام هجنة نقدية ناضجة، بل أمام شكل من الاستبدال أو التبعية. ومن هنا كان مفهوم السيادة التأويلية في كتاب القارئ الهجين امتدادًا طبيعيًا لمفهوم المسؤولية التأليفية في مشروع الكاتب الهجين.

وقد قادني هذا الترابط إلى نتيجة أخرى أعتبرها من أهم ما يجمع المشروعين، وهي أن الذكاء الاصطناعي لا يدخل إلى الأدب من باب واحد. فهو لا يقف فقط بجوار الكاتب في لحظة الكتابة، ولا بجوار القارئ في لحظة التلقي، بل يمكن أن يحضر في كل مراحل الدورة الأدبية :قبل النص في البحث والتوليد ، وفي النص من خلال بعض أشكال الهجنة الإنتاجية أو البنائية، وقبل القراءة من خلال أنظمة التوصية، وأثناء القراءة من خلال التلخيص والشرح والحوار التوليدي، وبعد القراءة من خلال التقييم والمراجعة وإعادة التوصية. ومن هنا لا تعود الخوارزمية أداة خارج العملية الأدبية، بل تصبح بنية يمكن أن تمتد عبر حلقاتها المختلفة.

وهذا هو السبب الذي دفعني في الكتاب الحالي إلى توسيع نظرية التلقي نفسها. ففي مشروع الكاتب الهجين كان السؤال: ما الذي يحدث للمؤلف عندما تدخل الآلة في الإنتاج؟ أما هنا فقد صار السؤال: ما الذي يحدث لأفق انتظار القارئ عندما تتدخل الخوارزمية في اختيار ما يصل إليه قبل أن يقرأه؟ ومن هنا اقترحت مفهوم »**التلقي الخوارزمي** «و**«أفق الانتظار الخوارزمي»**، لأنني وجدت أن التوصية لم تعد مجرد إعلان عن كتاب، بل قد تصبح جزءًا من التوقع السابق للقراءة، فإذا قيل للقارئ إن رواية ما «تشبه» رواية أحبها، فهو يدخل إليها من زاوية قد تكون صاغتها الخوارزمية قبل أن يفتح الصفحة الأولى.

ثم انتقلت من ذلك إلى »**القراءة الحوارية** «و**«التأويل التوليدي»**، لأن الذكاء الاصطناعي لم يعد يكتفي بوضع النص أمام القارئ، بل أصبح قادرًا على الدخول في محادثة حوله. وهنا ظهر أمامي الاختلاف الأهم بين مشروع الكاتب ومشروع القارئ: في الكتابة يشارك النظام في **إنتاج الصياغة**، بينما في القراءة يشارك في **إنتاج الاحتمالات التأويلية** .وفي الحالتين لا أتعامل معه بوصفه ذاتًا بشرية ثانية، بل بوصفه فاعلًا وسيطيًا وظيفيًا يستطيع أن يؤثر في النتيجة دون أن يمتلك تجربة الكاتب أو القارئ أو مسؤوليتهما.

وأعتقد أن هذه النقطة هي التي تمنح المشروعين تماسكهما النظري؛ فالآلة، بالنسبة إلي، لا تصبح كاتبًا بالمعنى الإنساني لمجرد قدرتها على توليد نص، كما لا تصبح قارئًا بالمعنى الإنساني لمجرد قدرتها على إنتاج تفسير. الإنسان يكتب من داخل تاريخ وذاكرة ومشروع وقصد ومسؤولية، ويقرأ من داخل تجربة ووعي وسيرة وموقع ثقافي، بينما تنتج الآلة مخرجات من داخل عمليات معالجة وتوليد. ومن هنا يمكن أن نتحدث عن وظيفة تأليفية اصطناعية أو وظيفة تأويلية اصطناعية، لكن ينبغي ألا نقفز من الوظيفة إلى المساواة الأنطولوجية بين الإنسان والنظام.

لهذا ظل مبدأ التكامل المعرفي غير المتماثل هو الخيط الذي يصل الكتابين؛ فالكاتب والآلة يمكن أن يتكاملا دون أن يصبحا الشيء نفسه، والقارئ والآلة يمكن أن يتعاونا دون أن يتقاسما المسؤولية بالطريقة نفسها. فالآلة تستطيع أن تقترح، والإنسان يستطيع أن يختار أو يرفض؛ تستطيع أن توسع المجال، لكنه هو الذي يمنح هذا التوسع غايته؛ تستطيع أن تعيد تركيب مواد ثقافية كثيرة، لكنه هو الذي يدخل إليها من موقع في العالم ويتحمل نتيجة تحويلها إلى كتابة أو قراءة.

وقد أدركت كذلك، خلال إنجاز هذا الكتاب، أن القارئ الهجين يعود بدوره ليغير الكاتب الهجين؛ فحين يصبح المؤلف واعيًا بأن القراء سيقرؤون عمله عبر أدوات تلخيص وترجمة وتأويل آلي، فإن تصوراته عن النص نفسه قد تتغير. قد يسأل عن مصير الغموض الأدبي في بيئة تميل إلى الشرح، وعن مصير الأسلوب في بيئة التلخيص، وعن كيفية استقبال النصوص التي تنتقل آليًا بين اللغات، وعن العلاقة بين ما يكتبه وبين التأويلات التي ستولدها الأنظمة حوله. ومن هنا لا تسير العلاقة من الكاتب إلى القارئ في اتجاه واحد، بل يبدأ كل طرف في إعادة تشكيل الآخر داخل البيئة الجديدة.

ويظهر هنا مفهوم »النص الهجين «بوصفه حلقة ضرورية بين المشروعين؛ فالنص لم يعد مجرد نتيجة صامتة لعملية كتابة ثم موضوعًا لعملية قراءة منفصلة، بل يمكن أن يحمل آثار أدوات الإنتاج ويُقدَّم عبر عتبات خوارزمية ويُقرأ عبر شروح توليدية، ولذلك تتضاعف حياته التقنية قبل القراءة وأثناءها وبعدها. ومن هنا يصبح السؤال النقدي ليس فقط «من كتب النص؟» أو «ماذا يعني؟»، بل كذلك «ما مسار الوساطة الذي مر به؟.«

وتقود هذه الأسئلة جميعًا إلى ضرورة النقد الهجين الذي أراه المآل الطبيعي للمشروع كله. فإذا كان لدي كاتب هجين ونص هجين وقارئ هجين، فلا يمكن للنقد أن يظل يتصرف كما لو أنه يواجه نصًا منعزلًا عن الخوارزميات التي شاركت في إنتاجه أو توزيعه أو تفسيره. ولهذا فإن النقد الميتا خوارزمي الذي بدأت التفكير فيه مع مشروع الكاتب الهجين يجد في كتاب القارئ الهجين مجالًا أوسع وأشد ضرورة، لأنه لا يكتفي بتحليل حضور الذكاء الاصطناعي في الكتابة، بل يتابع الخوارزمية من مرحلة الإنتاج إلى مرحلة التلقي، ويفحص أنظمة التوصية والمحفزات والمخرجات التوليدية ومصادر الأجوبة وتحيزاتها.

أما النقد ما بعد الخوارزمي فيمثل بالنسبة إلي الأفق الأكثر استشرافًا للمشروعين معًا، لأنه يطرح السؤال عما سيحدث عندما يصبح تدخل الخوارزمية في الكتابة والقراءة اعتياديًا إلى درجة يتراجع معها وعي الإنسان بأنه يستخدم أداة منفصلة. وعندها ستكون مهمة النقد أصعب؛ لن يكتفي بكشف الخوارزمية بوصفها جسمًا ظاهرًا، بل سيحتاج إلى دراسة الثقافة نفسها بعد أن تصبح الوساطة الخوارزمية جزءًا من بنيتها المحيطية.

ومن هنا أستطيع الآن أن أنظر إلى كتاب »الكاتب الهجين «وكتاب »القارئ الهجين «باعتبارهما حلقتين داخل مشروع واحد، يمكن تلخيصه في الانتقال من سؤال:

كيف يكتب الإنسان مع الآلة؟

إلى سؤال:

كيف يقرأ الإنسان مع الآلة؟

ثم إلى السؤال الأشمل:

ماذا يحدث للأدب عندما تدخل الآلة في إنتاج النص وتداوله وقراءته ونقده في آن واحد؟

وهذا السؤال الأخير هو الذي يجعل المشروع مفتوحًا أمام كتب ودراسات لاحقة، لأن الوصول إلى مفهوم القارئ الهجين لم يغلق الدائرة، بل كشف عن ضرورة إعادة التفكير في النص الهجين والنقد الهجين والثقافة الهجينة نفسها.

ولهذا لا أقدم كتاب »القارئ الهجين «بوصفه مجرد الجزء الثاني من كتاب سابق، بل باعتباره الوجه المقابل والضروري له. فإذا كان الكاتب الهجين يقف عند لحظة تكوين النص، فإن القارئ الهجين يقف عند لحظة إعادة تكوين المعنى، وبين اللحظتين تتحرك الخوارزمية من الإنتاج إلى التلقي، وتتحول من أداة كتابة إلى وسيط قراءة، ومن مولد للصياغة إلى مولد للاحتمالات التأويلية.

وأنا إذ أضع الكتابين داخل هذا المسار، لا أريد أن أصل إلى تصور تصبح فيه الثقافة بشرية ـ آلية بالمعنى الذي يلغي الحدود ، بل أريد أن أبني لغة نقدية تساعدنا على فهم هذه الحدود الجديدة؛ أين تنتهي المساعدة ويبدأ الاستبدال، وأين يتحول التوسع إلى اعتماد ، وأين يصبح التخصيص تضييقًا ، وأين تتحول السرعة من مكسب إلى اختزال. فالأسئلة التي واجهتني مع الكاتب الهجين تعود اليوم مع القارئ الهجين بصيغة مختلفة، لكن مبدأ الإجابة واحد :التكنولوجيا توسع الفاعلية البشرية حين يبقى الإنسان

قادرًا على معرفة ما فوضه إليها، ولماذا فوضه، وكيف يستعيد القرار عندما يحتاج إليه.

ويجتمع المشروعان، في نهاية المطاف، داخل منظومة أراها قابلة لأن تشكل أحد مداخل النقد الأدبي في المرحلة المقبلة:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين ↔ النقد الهجين

ولا تعمل هذه العناصر في الفراغ، بل داخل:

الخوارزميات ↔ المنصات ↔ البيانات ↔ السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية.

وبهذا المعنى فإن كتاب »القارئ الهجين: نحو نظرية للتلقي الخوارزمي والقراءة ما بعد الخوارزمية «لا يبدأ من الصفر، بل يحمل وراءه أسئلة الكاتب الهجين ويمدها إلى الطرف الآخر من العملية الأدبية، ثم يعيدها في نهاية المطاف إلى النقد نفسه. لقد بدأت بسؤال عن الكاتب الذي يكتب مع الآلة، ووصلت إلى قارئ يقرأ معها، ثم اكتشفت أن المعنى الحقيقي للمشروع لا يوجد عند أي واحد منهما منفردًا، بل في العلاقة الجديدة التي بدأت تتشكل بين الكاتب والنص والقارئ والخوارزمية والنقد.

وهذا هو الرهان الذي أضعه أمام القارئ منذ الصفحات الأولى لهذا الكتاب: أن ننظر إلى الذكاء الاصطناعي لا بوصفه حادثًا تقنيًا يمر بجوار الأدب، بل بوصفه تحولًا يعيد ترتيب بعض علاقات الأدب الداخلية، وأن نمتلك في الوقت نفسه ما يكفي من المسافة النقدية لكي لا نخلط بين التعاون والاستبدال، وبين التوليد والإبداع الإنساني، وبين الاقتراح والتأويل، وبين فاعلية النظام ومسؤولية الإنسان.

ففي كتاب »الكاتب الهجين «كنت أسأل :ما الذي يبقى من الكاتب عندما تشارك الآلة في الكتابة؟ أما في هذا الكتاب فإنني أسأل :ما الذي يبقى من القارئ عندما تشارك الآلة في القراءة؟ وبين السؤالين يتشكل، في تقديري،

أحد أهم أسئلة الأدب في عصر الذكاء الاصطناعي :كيف نحافظ على إنسانية الكتابة والقراءة لا بعزل الإنسان عن التقنية، بل بجعل علاقته بها أكثر وعيًا ونقدًا ومسؤولية؟

الكاتب المغربي : عبده حقي

المقدمة العامة

من تحولات الكتابة إلى تحولات القراءة

عرفت الثقافة المكتوبة خلال العقود الأخيرة تحولات متسارعة لم تعد تقتصر على انتقال النص من الورق إلى الشاشة، ولا على ظهور الكتاب الإلكتروني بوصفه نسخة رقمية من الكتاب المطبوع، وإنما امتدت إلى البنية العميقة التي تنتج فيها النصوص وتنتشر وتكتشف وتقرأ وتفهم وتفسر. فقد أصبحت الكتابة جزءاً من بيئة شبكية تتداخل فيها قواعد البيانات ومحركات البحث والمنصات الاجتماعية والخوارزميات وأنظمة التوصية، قبل أن يدخل الذكاء الاصطناعي التوليدي إلى هذه البيئة فيغير موقع التقنية من أداة خارجية تساعد على الوصول إلى النص إلى وسيط قادر على إنتاج خطاب حول النص نفسه، من خلال التلخيص والترجمة والشرح والمقارنة وإعادة الصياغة واقتراح احتمالات للمعنى. وإذا كانت الدراسات النقدية والثقافية قد اهتمت خلال المرحلة الأولى من التحول الرقمي بمصير الكتابة والنص والمؤلف، فإن التحول الذي نعيشه اليوم يفرض نقل السؤال إلى الطرف الآخر من العملية الأدبية والمعرفية، أي إلى القارئ، لأن ما يتغير في الكتابة لا يمكن أن يظل بلا أثر في فعل القراءة، وما يحدث للنص داخل البيئة الخوارزمية لا بد أن يعيد تشكيل العلاقة التي يقيمها المتلقي معه.

ينطلق هذا الكتاب من فرضية عامة مفادها أن القارئ المعاصر لم يعد، في عدد متزايد من ممارساته، يواجه النص منفرداً بالمعنى الذي افترضته كثير من نظريات القراءة والتلقي في القرن العشرين، وإنما أصبح يقرأ داخل منظومة تتدخل فيها الشاشة والواجهة ومحرك البحث والمنصة والتوصية والترجمة الآلية والذاكرة الرقمية والمساعد التوليدي. وهذه العناصر لا تعمل جميعها بالمستوى نفسه ولا تؤدي الوظيفة ذاتها، كما أن وجودها لا يجعل كل قراءة معاصرة قراءة هجينة بالضرورة، غير أنها تجعل إمكان الهجنة جزءاً من البيئة التي يتحرك داخلها القارئ. فهناك فرق بين قارئ يقرأ رواية

إلكترونية على شاشة من دون أن تتدخل التقنية في عملية فهمه، وقارئ يقرأ النص نفسه ثم يستخدم أدوات البحث لاستعادة سياقه، والترجمة لفهم بعض عباراته، ونظامًا توليديًا لمناقشة بنيته أو مقارنة تأويلاته، قبل أن يعود إلى الأصل ليختبر ما تلقاه من هذه الأدوات. في الحالة الأولى يكون التحول مرتبطًا أساسًا بحامل النص، أما في الثانية فإنه يصل إلى بعض الوظائف المعرفية التي تتكون منها القراءة.

ومن هنا يطرح الكتاب مفهوم »**القارئ الهجين** «بوصفه أداة نظرية لمحاولة فهم هذا الوضع الجديد، لا بوصفه تسمية احتفالية لكل من يستخدم التقنية، ولا باعتباره إعلانًا عن نهاية القارئ الإنساني أو حلول الآلة محله. فالهجنة التي يقصدها البحث لا تقوم على مزج الإنسان بالآلة في معنى وجودي، بل على توزيع بعض وظائف القراءة بين قدرات بشرية ووسائط تقنية، بحيث يظل الإنسان صاحب التجربة والمسؤولية والحكم، بينما تستطيع الأدوات أن تؤدي أدوارًا في البحث والاسترجاع والتنظيم والتلخيص والترجمة والمقارنة، وقد تصل في بعض الحالات إلى توليد فرضيات تأويلية تدخل في المسار الذي يبني القارئ من خلاله معنى النص. ويصبح السؤال الذي يقود هذا المشروع هو: ماذا يحدث للقراءة عندما لا تعود التقنية مجرد وسيط لعرض النص، بل تدخل بدرجات متفاوتة إلى البنية المعرفية التي يستعملها القارئ في اختياره وفهمه وتأويله؟

إن التفكير في هذا السؤال يقتضي العودة إلى تاريخ العلاقة بين النص والقارئ، لكنه يقتضي كذلك تجاوز الثنائية التي حكمت قسمًا كبيرًا من النقد الأدبي، لأن البيئة المعاصرة تكشف عن وجود أطراف وسيطة لا يمكن التعامل معها بوصفها قنوات محايدة. فقد نقلت نظريات التلقي القارئ من موقع المستقبل السلبي إلى موقع الفاعل في إنتاج المعنى، وأظهرت أعمال ياوس وإيزر وإيكو وفيش أن القراءة ليست مجرد استعادة لرسالة جاهزة، وإنما نشاط تاريخي وتأويلي واجتماعي تتداخل فيه توقعات القارئ وكفاءاته والجماعات التي ينتمي إليها. غير أن هذه النظريات تشكلت قبل ظهور أنظمة قادرة على بناء ملفات تفضيلات، وترتيب ما يراه المستخدم، وتقديم توصيات

شخصية، ثم توليد إجابات لغوية مخصصة لسؤاله. ومن ثم فإن السؤال لا يتعلق بإسقاط تلك النظريات، بل بتوسيع مجالها حتى تستطيع التعامل مع وسيط جديد دخل إلى المسافة التي يتشكل فيها المعنى بين النص والقارئ.

تسعى هذه المقدمة إلى تأسيس هذا التحول عبر ستة محاور مترابطة: تبدأ بسياق البحث وتحول الثقافة المكتوبة، ثم تنتقل إلى إشكالية العلاقة الجديدة بين النص والقارئ، قبل تحديد أسئلة البحث وفرضياته، ثم ضبط الجهاز المفاهيمي الذي سيشتغل به الكتاب، وأخيرًا تحديد المنهج والمدونة التي تسمح بتحويل مفهوم القارئ الهجين من حدس نقدي إلى نموذج قابل للفحص والمراجعة.

سياق البحث

الثورة الرقمية وتحولات الثقافة المكتوبة

لا يمكن فهم القارئ الهجين من دون وضعه داخل التاريخ الأوسع لتحولات الثقافة المكتوبة، لأن القراءة لا تتغير بمعزل عن الحوامل والمؤسسات والتقنيات التي تحفظ النصوص وتنظم تداولها. لقد ارتبطت الثقافة المطبوعة طويلًا بنظام مادي واضح المعالم يقوم على الكتاب والصفحة والفهرس والمكتبة والناشر والموزع والمؤسسة النقدية والتعليمية، وكان هذا النظام يفرض على النص درجة من الاستقرار في شكله وترتيبه وحدوده، بحيث يعرف القارئ أين يبدأ العمل وأين ينتهي، ويقيم علاقة مكانية محسوسة مع الصفحات، ويعتمد على الفهرسة والذاكرة والملاحظات اليدوية لاستعادة المواضع والمعلومات. ومع ظهور الحاسوب والشبكات والكتاب الإلكتروني تغيرت هذه البنية تدريجيًا، ولم يعد النص مرتبطًا دائمًا بجسم مادي ثابت، بل أصبح قابلًا للنسخ والبحث والتحديث والربط والتجزئة وإعادة السياق، وهو ما غير في الوقت نفسه طبيعة حضور النص وطبيعة الأفعال الممكنة حوله.

لقد نقلت الرقمنة الثقافة المكتوبة من منطق الصفحة المغلقة نسبيًا إلى منطق الواجهة المفتوحة على وظائف متعددة. فالصفحة الورقية تعرض النص، أما الواجهة الرقمية فتستطيع أن تعرضه وتتيح البحث فيه وتغيير حجمه وإضافة العلامات والملاحظات والروابط والوسائط المصاحبة، وقد تجمع بين القراءة والاستماع والمشاهدة في فضاء واحد. ومن ثم لم يعد القارئ يتعامل فقط مع النص، بل مع بيئة تشغيل كاملة حوله، وهي بيئة يمكن أن تدعم القراءة أو تشتتها بحسب تصميمها وطريقة استخدامها. فالزر الذي يسمح بتفسير كلمة في اللحظة نفسها يوسع إمكان الوصول إلى المعنى، لكنه يلغي في المقابل بعض المسافة التي كانت تفصل القارئ عن المرجع؛ والرابط الذي يفتح نافذة معرفية جديدة يمكن أن يثري السياق، لكنه يستطيع كذلك أن يقطع استمرارية الانتباه. ولا يمكن، لذلك، اختزال

التحول الرقمي في حكم أخلاقي بسيط يعلن تفوق الشاشة أو يندد بها، لأن التقنية نفسها تحمل إمكانات متعارضة تتحدد قيمتها داخل الممارسة القرائية الفعلية.

وقد أدى انتشار النصوص الرقمية إلى انتقال ثقافي مهم من الندرة إلى الوفرة. فالكتاب المطبوع كان يحتاج إلى الطباعة والتوزيع والتخزين والوصول المادي، بينما أصبحت ملايين النصوص متاحة عبر الشبكة خلال لحظات. غير أن حل مشكلة الوصول أنتج مشكلة جديدة هي مشكلة الاختيار، لأن الإنسان لا يستطيع قراءة كل ما يستطيع الوصول إليه، ومن هنا ازدادت أهمية محركات البحث والمنصات وأنظمة التصنيف والترتيب. ولم يعد السؤال الثقافي «كيف أصل إلى النص؟» فقط، بل أصبح كذلك «أي نص سيظهر أمامي من بين عدد لا نهائي تقريباً من النصوص؟». ومع هذه النقلة انتقل جزء من سلطة الاختيار إلى الأنظمة التي تنظم الوفرة، وبدأت الخوارزمية تدخل إلى تاريخ القراءة من بوابة تبدو للوهلة الأولى تقنية، لكنها ذات أثر معرفي وثقافي مباشر.

وتغيرت، بالتوازي مع ذلك، العلاقة بين القارئ والذاكرة. ففي الثقافة المطبوعة كان على القارئ أن يتذكر قدراً كبيراً من المعلومات أو أن يطور أنظمة شخصية لتسجيلها واستعادتها، بينما تتيح البيئة الرقمية تخزين الملاحظات والاقتباسات والكتب والسجلات بطريقة تجعل بعض عمليات التذكر والاسترجاع خارجية. ولم يعد امتلاك المعرفة يعني بالضرورة الاحتفاظ بتفاصيلها كلها في الذاكرة البيولوجية، بل أصبح جزءاً من الكفاءة المعرفية يتجسد في معرفة أين توجد المعلومة وكيف يمكن استعادتها بسرعة. وهذا التحول لا يثبت أن الإنسان أصبح أقل معرفة أو أكثر معرفة، لكنه يؤكد أن بنية المعرفة الشخصية نفسها بدأت تعتمد على شبكات خارجية وأنظمة تخزين واسترجاع قد تصبح جزءاً مستقراً من الممارسة القرائية.

كما تغيرت العلاقة بين النص والزمن. فالكتاب المطبوع يرسخ شكلًا من البطء المرتبط بتتابع الصفحات وبالمسافة التي تفصل سؤال القارئ عن الوصول إلى مرجعه، بينما تضغط الثقافة الرقمية الزمن وتقدم الاسترجاع والبحث والمقارنة في شكل فوري تقريبًا. وقد أدى هذا إلى مكاسب واضحة في الكفاءة، لكنه طرح في الوقت نفسه سؤال القراءة العميقة، لأن السرعة في الوصول إلى المعلومة لا تعني السرعة في استيعابها، والقدرة على العثور على مفهوم لا تعني امتلاك بنيته النظرية. ومن هنا يظهر توتر أساسي سيظل حاضرًا في هذا الكتاب بين سرعة الوصول وبطء الفهم، وبين اتساع المجال المعلوماتي وعمق الإقامة داخل النص.

وأعادت البيئة الرقمية كذلك تشكيل العلاقة بين النص والجماعة. فلم تعد القراءة دائمًا ممارسة خاصة ينهيها القارئ قبل أن يدخل إلى النقاش، لأن المنصات الاجتماعية ومنصات الكتب والحواشي الرقمية تجعل تقييمات الآخرين وتعليقاتهم واقتباساتهم مرئية قبل القراءة وأثناءها. وبهذا تصبح الجماعة جزءًا أكثر حضورًا من تجربة التلقي، وقد يدخل القارئ إلى العمل وهو يعرف تقييمه العام ومراجعاته الأكثر انتشارًا والتأويلات التي يكررها المجتمع الرقمي. وتضيف المنصة إلى ذلك عملية ترتيب لهذه الأصوات، فلا يرى القارئ كل التعليقات بالطريقة نفسها، بل يرى ما يرفعه النظام أو ما يحظى بالتفاعل الأكبر، وهو ما يجعل الجماعة نفسها موسطة خوارزميًا.

وبذلك تتشكل الثقافة المكتوبة المعاصرة داخل شبكة مركبة من النصوص والمستخدمين والأجهزة والمنصات والبيانات والخوارزميات، ويصبح الانتقال من الصفحة إلى الشاشة مجرد المرحلة الأولى من تحول أوسع.
فالرقمنة غيرت الحامل، والشبكة غيرت العلاقات بين النصوص، والمنصات غيرت تنظيم الظهور، والخوارزميات بدأت تغير الاختيار، بينما سيضيف الذكاء الاصطناعي التوليدي مرحلة أكثر عمقًا عندما يصبح النظام قادرًا على إنتاج كلام جديد حول النص. عند هذه اللحظة تحديدًا ينتقل السؤال من الثقافة الرقمية إلى الثقافة الخوارزمية والتوليدية، ومن القارئ الذي

يستخدم جهازًا إلى القارئ الذي يتفاعل مع وسيط معرفي قادر على المشاركة في بعض وظائف القراءة.

الذكاء الاصطناعي بوصفه وسيطًا معرفيًا جديدًا

يختلف الذكاء الاصطناعي التوليدي عن كثير من الوسائط الرقمية السابقة في أن تدخله لا يقتصر على التخزين أو العرض أو البحث أو الترتيب، بل يمتد إلى إنتاج استجابة لغوية جديدة بناءً على سؤال المستخدم. ومحرك البحث، في صورته التقليدية، يعيد القارئ إلى قائمة من المصادر التي ينبغي أن يفتحها ويفحصها، بينما يستطيع النظام التوليدي أن يقدم له مباشرة ملخصًا أو تفسيرًا أو مقارنة أو صياغة أو اقتراحًا، وهو تحول يبدو تقنيًا في الظاهر لكنه يمس بنية الوساطة المعرفية نفسها. فقد انتقل الوسيط من أن يكون «دليلًا إلى المعرفة» إلى أن يصبح، في كثير من الحالات، منتجًا لخطاب وسيط يقدم المعرفة في صورة أعيد تنظيمها وصياغتها.

ويقتضي هذا التحول تمييزًا دقيقًا بين المعرفة الأصلية والخطاب المولد عنها. عندما يطلب القارئ تلخيص فصل من كتاب، لا يحصل على الكتاب في صورة مختصرة محايدة، بل يحصل على اختيار لما عده النظام أكثر أهمية، وعلى ترتيب جديد للمعلومات، وقد تغيب عن هذا الملخص عناصر أسلوبية أو حجج فرعية أو توترات لا يمكن استعادتها بمجرد معرفة «الفكرة الأساسية». وعندما يطلب ترجمة نص، فإن النظام يختار مقابلات لغوية ويعيد بناء العبارة في نظام لغوي آخر، وعندما يطلب شرح مفهوم، فإنه ينتقي مستوى معينًا من التفصيل ويقرر أي سياق ينبغي إبرازه. ومن ثم فإن الوساطة التوليدية ليست مجرد نقل، بل هي شكل من إعادة التركيب.

وتظهر أهمية الذكاء الاصطناعي بالنسبة إلى القراءة بصورة أوضح عندما ينتقل من الوظائف المعلوماتية إلى الوظائف التأويلية. فالقارئ يستطيع أن يسأل عن معنى رمز أو وظيفة شخصية أو سبب تحول سردي أو الاحتمالات الممكنة لفهم خاتمة غامضة، ويحصل في المقابل على خطاب منظم يقدم واحدًا أو أكثر من التفسيرات. ولا يعني ذلك أن النظام أصبح قارئًا إنسانيًا

يمتلك تجربة أو وعيًا أو انفعالًا، لأن إنتاج لغة تصف الحزن لا يعادل عيش الحزن، والقدرة على تحليل صورة عن المنفى لا تعني امتلاك تجربة المنفى، غير أن غياب التجربة الذاتية عن الآلة لا يمنع خطابها من التأثير في تجربة القارئ. فإذا دخل التفسير المولد إلى وعيه ثم عاد إلى النص في ضوئه، فإن الآلة تكون قد أصبحت جزءًا من المسار الذي تشكل فيه المعنى، حتى لو ظل الحكم النهائي إنسانيًا.

ومن هنا يستخدم هذا الكتاب مفهوم »**الوساطة المعرفية الذكية**« للإشارة إلى العمليات التي يتدخل من خلالها نظام ذكاء اصطناعي بين الفرد والمعلومة أو النص عبر البحث والترتيب والشرح والترجمة والتلخيص والمقارنة والتوليد، بحيث يؤثر في شكل المعرفة التي تصل إلى المستخدم وفي الطريقة التي يستطيع تنظيمها بها. ويمكن تصور هذه الوساطة في درجات متصاعدة تبدأ بالوصول والاسترجاع، ثم تنتقل إلى التنظيم والتلخيص، وبعد ذلك إلى الشرح والمقارنة، قبل أن تبلغ مستوى اقتراح احتمالات للمعنى. وكلما ارتفع مستوى التدخل ازداد أثر النظام في عملية القراءة، وازدادت في المقابل الحاجة إلى وعي نقدي بطبيعة ما يقدمه.

ويغير الذكاء الاصطناعي كذلك وضع السؤال داخل القراءة. ففي الثقافة السابقة كان السؤال القرائي يقود غالبًا إلى بحث في مرجع أو حوار مع مدرس أو ناقد أو قارئ آخر، أما اليوم فيمكن توجيهه مباشرة إلى نظام قادر على إعادة بناء جوابه بحسب صيغة السؤال. وهذا يجعل المحفز نفسه جزءًا من فعل القراءة، لأن القارئ الذي يسأل «ما معنى هذا النص؟» لا يفتح المجال نفسه الذي يفتحه القارئ الذي يقول «اقترح ثلاث قراءات متعارضة، وبيّن ما يدعم كل واحدة وما يضعفها». وتصبح القدرة على صياغة السؤال كفاية جديدة، لأن السؤال يمكن أن يحول النظام إلى سلطة تغلق المعنى أو إلى أداة توسع الاحتمالات وتدفع القارئ إلى العودة إلى النص.

ومع ذلك تظل العلاقة بالذكاء الاصطناعي محكومة بمفارقة أساسية: فكلما أصبحت الإجابة أكثر سهولة ازدادت أهمية القدرة على التشكيك

فيها. إذ يمكن للمخرجات التوليدية أن تكون صحيحة أو ناقصة أو متحيزة أو خاطئة، وقد تقدم الاحتمال في لغة تبدو يقينية، ولذلك لا يستطيع القارئ الهجين أن يساوي بين الطلاقة اللغوية والوثوق المعرفي. ويصبح من الضروري أن يميز بين المعلومة والتفسير والفرضية والتخمين، وأن يعرف متى يحتاج إلى مصدر خارجي ومتى ينبغي العودة إلى النص الأصلي ومتى يكون من المفيد رفض الجواب كله.

وبهذا المعنى لا يختصر الذكاء الاصطناعي الحاجة إلى القارئ الخبير، بل قد يجعل الخبرة أكثر ضرورة، لأن الشخص الذي يمتلك معرفة سابقة يستطيع اكتشاف الخطأ أو التحيز أو التبسيط بسهولة أكبر من قارئ لا يملك معيارًا خارجيًا. ومن هنا تنشأ مفارقة أخرى :**أفضل استخدام للآلة يحتاج إلى إنسان يملك من المعرفة ما يسمح له بعدم تصديقها دائمًا** .وهذا المبدأ سيصبح لاحقًا أساسًا لمفهوم القراءة الميتا خوارزمية.

إشكالية الكتاب

تحول العلاقة بين النص والقارئ

بنت نظريات التلقي جزءًا كبيرًا من منجزها على إعادة تعريف العلاقة بين النص والقارئ. فبعد أن كانت القراءة تفهم داخل نماذج تجعل المؤلف مصدر المعنى والنص حامله والقارئ مستقبلًا له، أصبحت القراءة مع ياوس وإيزر وإيكو وفيش نشاطًا تاريخيًا وتأويليًا واجتماعيًا لا يتحقق المعنى بعيدًا عنه. ولم يعد القارئ متلقيًا سلبيًا، بل أصبح طرفًا يملأ الفراغات ويحمل أفق انتظار ويتعاون مع استراتيجية النص وينتمي إلى جماعة تأويلية تشكل بعض شروط الفهم. غير أن النموذج الذي تأسست عليه هذه النظريات ظل، في أغلبه، يقوم على تصور لعلاقة يمكن اختزالها في صيغة **النص ↔ القارئ**، مع إضافة التاريخ أو الجماعة أو السياق، بينما تكشف البيئة الرقمية اليوم أن هذه العلاقة أصبحت أكثر تشابكًا.

فالقارئ قد لا يصل إلى النص مباشرة، وإنما عبر نتائج بحث مرتبة أو توصيات منصة أو قوائم شخصية أو مراجعات خوارزمية. وقبل أن يبدأ الكتاب قد يكون قد رأى تقييمه وقرأ ملخصًا عنه وشاهد محتوى يقدم تأويلًا مسبقًا له، ثم يدخل إلى النص محملًا بهذه الطبقات. وهكذا تتوسع «عتبات القراءة» من عناصر مثل الغلاف والعنوان والمقدمة إلى منظومة من التقييمات والتصنيفات والتوصيات والملخصات والمواد المصاحبة. وتصبح العلاقة بين النص والقارئ علاقة بين نص محاط بخطابات ووسائط وبين قارئ وصل إليه عبر مسار جرى تنظيم جزء منه تقنيًا.

ومن هنا يمكن تمثيل التحول من نموذج بسيط إلى نموذج أكثر تعقيدًا. ففي القراءة التقليدية يمكن أن نتصور العلاقة في صورتها النظرية الأدنى باعتبارها نصًا وقارئًا، بينما تصبح في البيئة الرقمية نصًا وقارئًا وواجهة ومنصة وجماعة رقمية، وفي البيئة الخوارزمية تضاف الخوارزمية والبيانات، ومع الذكاء الاصطناعي التوليدي يظهر النظام الذكي والخطاب الذي يولده

حول النص .ولا يعني هذا أن كل هذه العناصر تكون حاضرة في كل قراءة، بل يعني أن النموذج النظري ينبغي أن يتسع لإمكان وجودها.

ويترتب على ذلك تغير في مفهوم الاختيار نفسه. فقد ظل النقد يفترض، في كثير من الأحيان، أن فعل القراءة يبدأ عندما يختار القارئ نصًا، لكن الخوارزمية تجعل السؤال أسبق من ذلك: من الذي جعل هذا النص ظاهرًا أمامه؟ فالقارئ يختار بالفعل، لكنه يختار من حقل جرى ترتيبه. ولا تلغي هذه الحقيقة حريته، غير أنها تكشف أن الحرية تمارس داخل بنية، وأن تلك البنية قادرة على تعزيز بعض الاحتمالات وتقليل ظهور غيرها. ومن هنا يصبح تحليل التلقي مطالبًا بالنظر إلى ما يحدث قبل القراءة بقدر ما ينظر إلى ما يحدث أثناءها.

ويضاف إلى ذلك أن القراءة أصبحت قابلة للتحول إلى بيانات. فالقارئ لا يقرأ النص فقط، بل يمكن للمنصة أن تسجل جوانب من سلوكه وتستعملها لبناء توقعات عن اهتماماته. وهكذا يصبح القارئ، في مفارقة أساسية لهذا الكتاب، ذاتًا تقرأ وموضوعًا تتم قراءته حسابيًا في الوقت نفسه .إنه يقرأ الكتاب، بينما تعالج المنصة آثار اختياره وتفاعله، ثم تستخدمها لتحديد ما سيظهر له لاحقًا. وتتكون بذلك حلقة من القراءة والبيانات والتوصية والقراءة الجديدة، بحيث يصبح تاريخ القارئ الشخصي جزءًا من بيئته المستقبلية.

ومن هذه الزاوية لا يعود النص كيانًا مستقلًا يصل إلى قارئ مستقل، بل يدخل الاثنان في نظام تبادلي أكثر تعقيدًا، وهو ما يدفعنا إلى اقتراح أن وحدة التحليل الملائمة في بعض الممارسات المعاصرة ليست «القارئ» وحده ولا «النص» وحده، بل النظام القرائي الذي يتكون من القارئ والنص والوسيط والخوارزمية والسياق. ولا يعني هذا توزيع المسؤولية بالتساوي، لأن النص والخوارزمية والإنسان لا يتمتعون بالمكانة الوجودية أو الأخلاقية نفسها، لكنه يعني أن تفسير ما يحدث في القراءة يتطلب أخذ العناصر كلها في الحسبان.

دخول الخوارزمية طرفًا في إنتاج المعنى

تصل الإشكالية إلى أكثر مستوياتها حساسية عندما تتجاوز الخوارزمية تنظيم الوصول إلى النص وتبدأ في التأثير في شروط إنتاج المعنى. ولا يقصد هذا البحث القول إن الخوارزمية تمتلك وعيًا تأويليًا مماثلًا للإنسان، لأن النظام لا يعيش المعنى ولا يمتلك التجربة الذاتية التي يحملها القارئ إلى العمل، وإنما المقصود أن الخوارزمية أصبحت قادرة على أداء وظائف تؤثر في المجال الذي يبني داخله الإنسان تأويله.

ويمكن لهذا التأثير أن يبدأ قبل القراءة، من خلال التصنيف والتوصية والتقييم، لأن تقديم رواية بوصفها «رواية سياسية» أو «رواية حب» يؤطر الانتباه بطريقة مختلفة، كما أن إخبار المستخدم بأن الكتاب يشبه أعمالًا سبق أن أحبها يخلق توقعًا قبل الدخول إليه. ويمكن لهذا التأثير أن يحدث أثناء القراءة من خلال الترجمة والتلخيص والشرح والمقارنة، وكلها عمليات تتضمن اختيارًا لما ينبغي إبرازه أو حذفه أو ربطه. وقد يصل أخيرًا إلى التأويل المباشر عندما يولد النظام فرضية حول رمز أو شخصية أو نهاية أو موقف فكري.

ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاثة مستويات للمعنى داخل البيئة الهجينة : **المعنى الممكن الذي يتيحه النص، والمعنى الذي يبنيه القارئ، والمعنى الوسيط الذي تقترحه الأداة أو الخوارزمية** .ولا تكون هذه المستويات منفصلة دائمًا، لأن القارئ قد يأخذ من التفسير المولد جزءًا ويفحصه ثم يدمجه في قراءته، وبذلك يتشكل ما يمكن تسميته، بصورة إجرائية، «معنى هجين» لا لأنه نصف بشري ونصف آلي، وإنما لأن مسار الوصول إليه مر عبر تفاعل بين الإنسان والآلة.

ويظهر هنا التوتر بين التوسيع والإغلاق. تستطيع الآلة أن توسع مجال المعنى عندما تقترح قراءات متعددة وتستعيد سياقات مجهولة وتعرض حججًا متعارضة، لكنها تستطيع في المقابل أن تغلق النص إذا قدمت تفسيرًا واحدًا بصيغة نهائية وأعفت القارئ من البقاء داخل الغموض. وهذا التوتر مهم بصفة

خاصة في الأدب، لأن القيمة الجمالية قد تقوم أحيانًا على عدم الحسم وعلى قدرة النص على الاحتفاظ بإمكانات متعددة، بينما تميل البنية الحوارية للأنظمة الذكية إلى تقديم جواب. ومن ثم لا يصبح أفضل استخدام للذكاء الاصطناعي هو طلب «المعنى الصحيح»، بل استخدامه لتوليد احتمالات يمكن إخضاعها للنص والسياق.

وبذلك يقترح الكتاب التمييز بين **الفاعل التأويلي الإنساني والفاعل الوسيطي الخوارزمي** .الإنسان هو من يعيش تجربة القراءة ويحمل ذاكرته وموقعه الثقافي والأخلاقي ويتحمل مسؤولية الحكم، بينما تستطيع الخوارزمية أن تنظم وتقترح وتولد وتعيد الصياغة. ولا يساوي هذا الدور الوظيفي بين الطرفين، لكنه يمنع كذلك من إنكار أثر الوسيط. إن الآلة لا تحتاج إلى أن تفهم بالطريقة البشرية لكي تؤثر في الطريقة التي يفهم بها البشر.

أسئلة البحث

من هو القارئ الهجين؟

يتمثل السؤال المركزي الأول في تحديد هوية القارئ الهجين وحدود المفهوم. فإذا كان كل قارئ يستخدم جهازًا إلكترونيًا سيُسمى هجينًا، فإن المصطلح لن يضيف شيئًا إلى مفهوم القارئ الرقمي، ولذلك يجب أن تتحدد الهجنة في مستوى أعمق من مجرد الحامل. يقترح هذا البحث أن القارئ الهجين هو القارئ البشري الذي تتم بعض عمليات قراءته داخل منظومة معرفية تتفاعل فيها قدراته مع أدوات رقمية وخوارزمية وذكاء اصطناعي في الوصول إلى النص وتنظيمه وفهمه واسترجاعه ومقارنته، وربما في توليد احتمالات لتأويله، مع بقاء المسؤولية النهائية عن الحكم في الجانب الإنساني.

وبهذا المعنى لا يمثل القارئ الهجين هوية ثابتة يحملها الفرد في كل وقت، بل يمكن أن يكون وضعًا قرائيًا يدخل إليه القارئ في مهمة ويخرج منه في أخرى. فقد يقرأ الشخص رواية ورقية من دون أي أداة، ثم يمارس قراءة هجينة أثناء إنجاز بحث أكاديمي يستخدم فيه البحث والترجمة ونظامًا توليديًا. ومن هنا يكون من الأنسب الحديث عن درجات للهجنة بدل تقسيم القراء إلى فئتين مغلقتين.

ما الفرق بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة؟

يقوم الفرق الجوهري بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة على التمييز بين رقمنة الوسيط وتهجين العملية المعرفية .فالقراءة الرقمية هي ممارسة يكون فيها النص متاحًا أو معروضًا عبر وسيط إلكتروني، وقد يستفيد القارئ من وظائف البحث والتظليل والتدوين، لكنها تستطيع أن تظل قراءة بشرية من حيث عمليات الفهم والتفسير. أما القراءة الهجينة فتبدأ عندما تدخل الأدوات إلى بعض هذه العمليات وتصبح وظائف مثل الاسترجاع والترجمة والتلخيص والمقارنة والشرح موزعة بين الإنسان والآلة.

ولهذا يمكن أن تكون القراءة على شاشة غير هجينة، كما يمكن لقراءة كتاب ورقي أن تصبح هجينة إذا استعان القارئ أثناءها بأدوات خوارزمية وذكاء اصطناعي. ومن ثم لا تكمن الهجنة في الجهاز، بل في طبيعة العلاقة بين القارئ والتقنية .ويمكن تصور طيف يبدأ بالقراءة الرقمية، ثم التلقي الخوارزمي الذي تتدخل فيه أنظمة التوصية، ثم القراءة المعززة، ثم القراءة الهجينة التي تتوزع فيها وظائف أعمق، وصولًا إلى القراءة الميتا خوارزمية التي يصبح فيها الوسيط نفسه موضوعًا للنقد.

هل تشارك الآلة القارئ في عملية التأويل؟

يتطلب هذا السؤال تحديد معنى المشاركة بدقة حتى لا نقع بين موقفين متطرفين: موقف ينكر أي أثر للآلة لأنها لا تمتلك وعيًا ، وموقف يساوي إنتاجها اللغوي بالتأويل البشري. يقترح الكتاب موقفًا ثالثًا يرى أن الآلة لا تؤوّل بالمعنى الإنساني الوجودي، لكنها تستطيع أن تصبح شريكًا وظيفيًا في العملية التأويلية من خلال توليد فرضيات وروابط وسياقات يمكن أن تدخل في بناء القارئ للمعنى.

فإذا قرأ القارئ خاتمة غامضة ثم طلب ثلاثة تأويلات، وعاد إلى النص ورفض اثنين واحتفظ بجزء من الثالث، فإن التأويل النهائي يظل تأويلًا بشريًا من حيث المسؤولية، لكنه تشكل داخل مسار تفاعلي لم تكن الآلة خارجه.
ويمكن تمثيل هذا المسار في دورة من السؤال والاقتراح والفحص والعودة إلى النص وإعادة البناء، وهي الدورة التي تشكل أحد أهم مظاهر التلقي الهجين.

فرضيات البحث

القراءة المعاصرة فعل معرفي موزع

تنطلق الفرضية الأولى من أن بعض ممارسات القراءة المعاصرة لم تعد قابلة للفهم إذا حُصرت في ما يحدث داخل ذهن الفرد ، لأن القارئ أصبح يعتمد بصورة متزايدة على موارد خارجية في الاسترجاع والحفظ والتنظيم والترجمة والمقارنة. ولا يعني ذلك أن العقل فقد مركزيته أو أن كل استعمال للأداة يمثل امتدادًا معرفيًا ، وإنما يعني أن وحدة التحليل يمكن أن تتوسع في بعض الحالات لتشمل القارئ وبيئته التقنية.

وتقود هذه الفرضية إلى التمييز بين **التوزيع والتفويض** .فالتوزيع يحدث عندما يستخدم القارئ الأداة داخل عملية يظل هو قائدها ، بينما يبدأ التفويض عندما يتحول النظام إلى بديل عن فعل القراءة نفسه. ويعتمد نجاح القراءة الهجينة، وفق هذا التصور، على قدرة القارئ على الاستفادة من الموارد الخارجية دون التنازل عن الحكم النهائي.

الخوارزمية لم تعد وسيطًا محايدًا

تقوم الفرضية الثانية على أن الخوارزمية لا تنقل المحتوى فحسب، بل تختار وترتب وتخصص وتوصي، وهو ما يجعل لها أثرًا في ما يصبح مرئيًا وجديرًا بالانتباه. ولا يقتضي عدم الحياد وجود نية سياسية مباشرة؛ فقد يكون النظام مصممًا لزيادة التفاعل، لكن هذا الهدف نفسه يمكن أن ينتج آثارًا ثقافية من خلال منح بعض المواد أفضلية في الظهور.

ومن هنا يصبح القارئ مطالبًا بالوعي بأن اختياره يجري داخل قائمة سبق أن شُكلت، وأن تاريخ سلوكه قد يؤثر في توصياته المستقبلية. وتؤسس هذه الفرضية لاحقًا لمفهوم القراءة الميتا خوارزمية، لأن الاستقلال في البيئة الجديدة لا يعني غياب الخوارزمية، بل معرفة وجودها ومساءلة آثارها.

ظهور نمط جديد من التلقي البشري ـ الآلي

تقوم الفرضية الثالثة على أن الأنظمة التوليدية أضافت إلى الوساطة بعدًا حواريًا يسمح بتكوين دورة جديدة من التلقي، حيث يقرأ الإنسان ويسأل، ويولد النظام جوابًا، ثم يعود القارئ إلى النص ويعدّل فهمه أو يرفض الاقتراح. ولا تمثل هذه الدورة مساواة بين طرفين، بل شكلًا من التكامل المعرفي غير المتماثل الذي تتوزع فيه الوظائف مع بقاء الخبرة والمسؤولية في الجانب الإنساني.

ومن مجموع الفرضيات الثلاث تتشكل الفرضية العامة للكتاب: إن القراءة المعاصرة تدخل مرحلة يصبح فيها بعض نشاطها موزعًا بين القارئ وبيئته التقنية، بينما تشارك الخوارزميات بصورة غير محايدة في تنظيم الوصول إلى النصوص، وتضيف أنظمة الذكاء الاصطناعي مستوى حواريًا يمكن أن يدخل في الشرح والمقارنة واقتراح التأويل، وهو ما يتيح الحديث عن نمط جديد من التلقي البشري ـ الآلي يشكل الأساس النظري لمفهوم القارئ الهجين.

الجهاز المفاهيمي

القارئ الهجين

يمثل القارئ الهجين المفهوم المركزي في الكتاب، ويُستخدم للدلالة على قارئ بشري تتم بعض وظائف قراءته داخل علاقة تفاعلية مع أدوات رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي. ولا يلغي هذا التعريف الفروق بين الإنسان والآلة، بل يقوم عليها، لأن الهجنة هنا هي هجنة في توزيع الوظائف لا في الهوية الوجودية. فالآلة قد تسترجع وتقارن وتقترح، بينما يظل القارئ هو الذي يربط هذه المخرجات بتجربته ويقرر قيمتها ويتحمل مسؤولية تبنيها.

التلقي الخوارزمي

يشير التلقي الخوارزمي إلى استقبال النصوص داخل بيئة تتدخل فيها الخوارزميات في الاختيار والترتيب والإظهار والتوصية والتخصيص، بحيث تصبح شروط وصول النص إلى القارئ جزءًا من موضوع التحليل. ولا يعني هذا أن الخوارزمية «تتلقى» النص، بل أن التلقي البشري أصبح موسطًا بواسطة نظام تقني قادر على تنظيم ما يظهر ومتى يظهر ولمن يظهر.

وينبثق من هذا المفهوم «أفق الانتظار الخوارزمي»، الذي يقصد به تلك الطبقة من توقعات القارئ التي تتشكل بفعل التوصيات والتصنيفات والتقييمات والملخصات والمواد الرقمية السابقة على القراءة.

القراءة المعززة

تدل القراءة المعززة على القراءة التي تستفيد من أدوات تزيد قدرة القارئ على الوصول والفهم والاسترجاع والترجمة والمقارنة من دون أن تصل بالضرورة إلى مشاركة تأويلية عميقة. وهي تقع بين القراءة الرقمية البسيطة والقراءة الهجينة المتقدمة، وتمثل المجال الذي تكون فيه التقنية أداة لتوسيع القدرات البشرية أكثر من كونها شريكًا في صناعة المسار التأويلي.

ويصبح التمييز بين التعزيز والاستبدال أساسيًا؛ فالأداة المعززة تقود القارئ إلى النص وتوسع قدرته على التعامل معه، بينما الأداة البديلة قد تعفيه من القراءة الأصلية وتقدم له ملخصًا أو تفسيرًا جاهزًا.

القراءة الميتا خوارزمية

تشير القراءة الميتا خوارزمية إلى ممارسة لا تكتفي بفهم النص، بل تجعل الوسيط الخوارزمي نفسه موضوعًا للفحص. فالقارئ يسأل لماذا ظهر هذا المحتوى، ولماذا قدم النظام هذا التفسير، وما الذي غاب، وهل الجواب معلومة أم فرضية، وما المصدر، وهل يمكن الحصول على قراءة مضادة. وهي بذلك تمثل انتقالًا من استخدام الخوارزمية إلى قراءة الخوارزمية أثناء استخدامها.

وتتكون هذه القراءة من أربع كفايات أساسية: الكشف عن الوساطة، ومساءلة منطقها، ومقارنة مخرجاتها، والتحقق من المعلومات والعودة إلى المصادر. ومن هنا يمكن النظر إليها بوصفها الشرط النقدي لنضج القارئ الهجين.

القراءة ما بعد الخوارزمية

أما القراءة ما بعد الخوارزمية فتستخدم في هذا الكتاب بوصفها مفهومًا استشرافيًا، لا باعتبارها مرحلة تاريخية مكتملة، وتشير إلى حالة تصبح فيها الخوارزميات والذكاء الاصطناعي مدمجين في البيئة اليومية للقراءة إلى حد يتراجع معه شعور المستخدم بأنه يستعمل أدوات مستقلة. ولا تعني «ما بعد» هنا اختفاء الخوارزمية، بل اندماجها في المحيط حتى تصبح جزءًا من البنية الاعتيادية للفعل القرائي.

وتثير هذه المرحلة المحتملة أسئلة أكثر حدة حول الاستقلال والذاكرة والهوية، لأن الوساطة كلما أصبحت أقل ظهورًا أصبح نقدها أكثر صعوبة، ولذلك تصبح القراءة الميتا خوارزمية ضرورية بوصفها وعيًا قادرًا على مرافقة هذا الاندماج.

المنهج والمدونة

المنهج البيني

تفرض طبيعة القارئ الهجين اعتماد منهج بيني لأن الظاهرة تقع في تقاطع النقد الأدبي ودراسات الوسائط وفلسفة التقنية وعلم الإدراك ودراسات الخوارزميات والتفاعل البشري ـ الآلي. ولا يستطيع أي حقل منها منفردًا أن يفسر الظاهرة كاملة؛ فنظرية التلقي تفسر بناء المعنى لكنها لا تكفي لتحليل أنظمة التوصية، ودراسات الوسائط تفسر أثر الواجهة لكنها لا تحيط وحدها بالتأويل، وعلم الإدراك يوضح الانتباه والذاكرة لكنه لا يستطيع اختزال القراءة في عمليات نفسية، بينما تقدم فلسفة التقنية إطارًا لتحليل علاقة الإنسان بالأداة.

ومن هنا لا يعني المنهج البيني جمع تخصصات متجاورة بصورة شكلية، بل توزيع الوظائف بينها بحيث يتولى كل حقل تفسير مستوى محدد من الظاهرة، ثم تتجمع النتائج داخل نموذج واحد.

نظرية التلقي ودراسات الوسائط

تشكل نظرية التلقي القاعدة الأدبية للمشروع لأنها قدمت المفاهيم التي تسمح بفهم القارئ بوصفه فاعلًا في إنتاج المعنى، ولا سيما أفق الانتظار وفعل القراءة والقارئ الضمني والقارئ النموذجي والجماعات التأويلية. غير أن هذه المفاهيم ستقرأ داخل بيئة جديدة من خلال دراسات الوسائط التي تؤكد أن الحامل والواجهة والتقنية ليست مجرد أوعية محايدة، بل تشارك في تنظيم كيفية ظهور النص وطرق التعامل معه.

وسيُعتمد في الدراسة على المقارنة بين أوضاع قرائية مختلفة للنص نفسه متى أمكن، بحيث يمكن تمييز أثر الوسيط عن أثر اختلاف النص. فالكتاب الورقي والكتاب الإلكتروني والمنصة الاجتماعية والمساعد التوليدي

تمثل بيئات مختلفة، والهدف ليس ترتيبها حسب الأفضلية، بل تحليل ما تضيفه كل واحدة وما تنتزعه من تجربة القراءة.

فلسفة التقنية وعلم الإدراك

تدخل فلسفة التقنية إلى المشروع من باب العلاقة بين الإنسان والأداة وحدود امتداد النشاط المعرفي إلى البيئة الخارجية، بينما يسمح علم الإدراك بدراسة مسائل الذاكرة والانتباه والفهم والقراءة العميقة. ويستفيد البحث من مفاهيم العقل الممتد والإدراك الموزع دون أن يتبناها بصورة حرفية، وإنما بوصفها أدوات للسؤال عن الوظائف التي أصبحت تعتمد على موارد خارجية.

وسيظل التمييز قائمًا بين توزيع العمل المعرفي وبين توزيع المسؤولية، لأن اعتماد القارئ على ذاكرة خارجية أو أداة ترجمة أو نظام توليدي لا يعفيه من التحقق والحكم. وبذلك يعتمد البحث مبدأ **التوزيع الوظيفي** مع بقاء المسؤولية التأويلية بشرية.

نماذج القراءة والمنصات محل الدراسة

تتكون مدونة البحث من طبقات متعددة تشمل النصوص والوسائط والمنصات وسلاسل التفاعل البشري ـ الآلي. وستضم المدونة نماذج من نصوص سردية وشعرية ونقدية ومعرفية، لأن أثر الوساطة يختلف باختلاف طبيعة النص، فالتلخيص قد يكون مفيدًا لاستعادة بنية رواية طويلة لكنه قد يكون أكثر اختزالًا لقصيدة تقوم قيمتها على الإيقاع والغموض والكثافة.

أما على مستوى الوسائط، فستشمل الدراسة الكتاب المطبوع والملفات الرقمية وتطبيقات القراءة، إلى جانب نماذج من المنصات الاجتماعية للكتب والحواشي التشاركية وأنظمة التوصية. وسيُنظر إلى هذه النماذج بوصفها تمثيلات لوظائف، لا علامات تجارية ثابتة، لأن النظرية ينبغي أن تظل صالحة حتى لو تغيرت الشركات أو الواجهات.

وسيحتل الذكاء الاصطناعي التوليدي موقعًا خاصًا في المدونة من خلال بناء سلاسل تفاعل يمكن تحليلها وفق بروتوكول يبدأ بالقراءة البشرية الأولية، ثم السؤال، فالجواب الآلي، فالعودة إلى النص والتحقق، ثم قبول المخرج أو رفضه وإعادة بناء التأويل. وسيتيح هذا المسار دراسة ما إذا كان النظام يغير فهم القارئ، وما الوظائف التي يؤديها، وما إذا كان يعزز القراءة أو يستبدلها.

كما ستراعي المدونة البعد العربي، لأن النظريات التي تتناول الذكاء الاصطناعي والقراءة لا ينبغي أن تبنى على نصوص إنجليزية وغربية فقط. وستتيح النصوص العربية اختبار قدرة الأنظمة على التعامل مع المجاز والإحالات التراثية والتنوع اللغوي والسياقات المحلية، كما ستسمح بطرح السؤال عن المرجعيات الثقافية التي يحملها التفسير الآلي ومدى قدرته على تمثيل فضاءات معرفية غير متساوية الحضور داخل البيانات.

وفي جميع هذه الحالات لن يدعي البحث كشف البنية الداخلية الكاملة للخوارزميات المغلقة، بل سيتعامل مع الوظائف المعلنة والمخرجات القابلة للملاحظة ويقارنها بالسلوك القرائي، وسيحافظ على تمييز منهجي بين ما يعرف عن النظام وما يستنتج من أثره. ومن هنا لا يقوم المنهج على إسناد نوايا بشرية إلى الآلة، بل على وصف ما تفعله وظيفيًا وما يحدث للقارئ نتيجة هذا الفعل.

خاتمة المقدمة العامة

تنطلق هذه الدراسة من تحول يمكن اختزاله في حركة تاريخية طويلة بدأت بتغير حامل النص وانتهت، في مرحلتها الراهنة، إلى تغير موقع الوسيط نفسه. لقد انتقلت الثقافة من الورق إلى الشاشة، ثم من النص المنعزل إلى النص الشبكي، ومن وفرة المواد إلى ضرورة ترتيبها، ومن البحث إلى التوصية، ومن الخوارزمية التي تنظم المحتوى إلى الذكاء الاصطناعي الذي يستطيع أن يتحدث عن المحتوى ويعيد صياغته ويقترح معانيه. وفي كل مرحلة من هذه المراحل تغير شيء في موقع القارئ، لكن المرحلة الحالية تكشف تحولًا أكثر عمقًا لأنها لا تمس المكان الذي يقرأ فيه فقط، بل تبدأ في ملامسة بعض الوظائف التي يقرأ بها.

ومن هنا فإن مفهوم «القارئ الهجين» لا يعلن موت القارئ التقليدي ولا نهاية الكتاب الورقي، كما لا يفترض أن كل قراءة أصبحت آلية أو أن الذكاء الاصطناعي صار ذاتًا تأويلية مساوية للإنسان، بل يحاول وصف وضع جديد أصبحت فيه بعض عمليات القراءة قابلة للتوزيع بين الإنسان والتقنية. ويظل نجاح هذا الوضع مرتبطًا بقدرة القارئ على إدارة هذه العلاقة، لأن الأداة التي توسع قدرته تستطيع في الوقت نفسه أن تقلل استقلاله إذا تحولت من مساعدة إلى بديل، والتوصية التي تسهل الوصول تستطيع أن تضيق المجال إذا أصبحت دائرة مغلقة، والتفسير الذي يفتح احتمالًا يستطيع أن يغلق الغموض إذا قدم بوصفه حقيقة نهائية.

ولذلك فإن الرهان النظري لهذا الكتاب ليس في تحديد مقدار «ذكاء» الآلة، بل في إعادة تعريف سيادة القارئ داخل بيئة لا يقرأ فيها وحده دائمًا. ولم تعد السيادة تعني القدرة على الاستغناء عن الوسائط، لأن القراءة كانت تاريخيًا عملية موسطة بأشكال مختلفة، وإنما تعني القدرة على معرفة الوسيط وإدارة تدخله والشك في مخرجاته والعودة إلى النص والمصدر والاحتفاظ بحق الحكم. ومن هنا تلتقي جميع مفاهيم الكتاب: فالتلقي الخوارزمي يصف البيئة التي تنظم الوصول، والقراءة المعززة تصف توسيع

القدرات، والقارئ الهجين يصف توزيع بعض الوظائف، والقراءة الميتا خوارزمية تصف الوعي النقدي بهذا التوزيع، بينما تمثل القراءة ما بعد الخوارزمية الأفق الذي تصبح فيه الوساطة التقنية أكثر اندماجًا في الحياة الثقافية.

وبهذا يمكن تمثيل المسار النظري الذي ستتبعه الدراسة في صورة متدرجة تبدأ بـالقارئ التقليدي الذي يواجه النص داخل وسيط مستقر نسبيًا، ثم القارئ الرقمي الذي ينتقل إلى الشاشة، ثم القارئ الشبكي الذي يتحرك بين الروابط والمجتمعات الرقمية، ثم القارئ الخوارزمي الذي تتدخل أنظمة التوصية والتخصيص في مجال اختياره، وصولًا إلى القارئ الهجين الذي تدخل الأدوات الذكية في بعض وظائف بحثه وفهمه وتأويله، ثم إلى القارئ الميتا خوارزمي الذي يجعل هذه الوساطة نفسها موضوعًا للنقد، وأخيرًا إلى القارئ ما بعد الخوارزمي بوصفه أفقًا افتراضيًا لمرحلة يصبح فيها التداخل البشري ـ التقني جزءًا اعتياديًا من فعل القراءة.

وتتغير، بالتوازي، بنية العلاقة التي كانت نظريات التلقي تصوغها أساسًا في صورة **نص ↔ قارئ**، لأن النموذج الذي يقترحه هذا البحث يصبح أكثر تركيبيًا :**قارئ ↔ نص ↔ خوارزمية ↔ سياق** .ولا ينبغي لهذه الصيغة أن تقرأ بوصفها معادلة تساوي بين عناصرها، بل باعتبارها خريطة للقوى التي يمكن أن تدخل في إنتاج التجربة القرائية، حيث يظل الإنسان الفاعل التأويلي المسؤول، ويظل النص مجال الإمكانات والمقاومة الدلالية، بينما تعمل الخوارزمية بوصفها وسيطًا ينظم ويقترح، ويمنح السياق الثقافي والتاريخي واللغوي لهذه العلاقة شروطها.

وعليه، فإن السؤال الذي يقود بقية الكتاب ليس سؤالًا تقنيًا محضًا حول استخدام الذكاء الاصطناعي في القراءة، بل سؤال نقدي وفلسفي يتعلق بتحول مفهوم القارئ ذاته :**هل ما زال القارئ هو الفرد الذي يواجه النص بعقله وذاكرته فقط، أم أننا ننتقل إلى قارئ تعمل معرفته داخل منظومة موزعة، ويصبح استقلاله مرتبطًا بقدرته على إدارة هذه المنظومة بدل الانفصال**

عنها؟ ومن الإجابة عن هذا السؤال ينطلق مشروع «القارئ الهجين» بوصفه محاولة لإعادة بناء نظرية التلقي في عصر أصبحت فيه الخوارزمية جزءًا من البيئة الثقافية، وأصبح الذكاء الاصطناعي قادرًا على الانتقال من هامش القراءة إلى المسافة التي يتكون فيها الفهم والمعنى.

الفصل الأول

القارئ في النظريات الأدبية:

من الهامش إلى مركز إنتاج المعنى

يمثل تاريخ النظريات الأدبية، من زاوية موقع القارئ داخلها، تاريخًا لتحول عميق في مركز الثقل داخل العملية الأدبية نفسها، إذ لم تمنح العناصر المكونة للعمل الأدبي، من مؤلف ونص وقارئ وسياق، المكانة ذاتها في مختلف المراحل النظرية، بل انتقلت الأولوية من عنصر إلى آخر بحسب التحولات التي عرفها التفكير النقدي، فبعد أن هيمنت سلطة المؤلف طويلًا باعتباره المصدر الأول للمعنى والمفتاح الذي يُفترض أن تقود إليه القراءة، انتقل الاهتمام تدريجيًا إلى النص بوصفه بنية مستقلة تستحق أن تدرس في ذاتها، ثم بدأ القارئ، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، يحتل موقعًا مركزيًا بعدما أصبح فعل القراءة نفسه موضوعًا للنظرية، لا مجرد مرحلة تالية على اكتمال العمل. ولا ينبغي فهم هذا المسار بوصفه انتقالًا ميكانيكيًا ألغت فيه كل مرحلة ما سبقها، بل بوصفه إعادة توزيع مستمرة للسلطة التأويلية بين المؤلف والنص والقارئ والسياق، وهي الحركة التي تسمح لنا اليوم بطرح سؤال جديد يتعلق بموقع الخوارزمية والذكاء الاصطناعي داخل هذا التاريخ، لأن مشروع «القارئ الهجين» لا ينطلق من قطيعة مع نظريات التلقي، بل من محاولة استكمال المسار الذي بدأته حين نقلت القارئ من هامش العملية الأدبية إلى صلب إنتاج المعنى.

المبحث الأول: القارئ قبل نظريات التلقي

مركزية المؤلف في النقد التقليدي

يصعب التعامل مع ما يسمى «النقد التقليدي» باعتباره منظومة واحدة متجانسة، لأن تاريخ النقد، منذ البلاغة القديمة إلى المدارس الحديثة، عرف تصورات متعددة للعلاقة بين المؤلف والعمل والجمهور، غير أن تيارًا قويًا، وخصوصًا مع التصورات الرومانسية والبيوغرافية في العصر الحديث، منح المؤلف مكانة مركزية جعلت النص يُقرأ غالبًا بوصفه تعبيرًا عن ذات مبدعه أو ترجمة لتجربته أو انعكاسًا لوعيه وانفعالاته وخياله. وقد قدم م. هـ. أبرامز في كتابه *The Mirror and the Lamp* (المرآة والمصباح) تصنيفًا مؤثرًا للاتجاهات النقدية بحسب العنصر الذي تمنحه الأولوية، فميز، ضمن ما ميز، النظريات التعبيرية التي تجعل العمل الأدبي مرتبطًا بالفنان وتعامل الإبداع باعتباره انبثاقًا من الذات المبدعة [1]. وفي مثل هذا التصور يصبح النص طريقًا إلى صاحبه، بحيث يبحث الناقد في الصور والرموز والشخصيات والأحداث عن آثار التجربة الفردية للمؤلف، ويصبح السؤال «ماذا أراد الكاتب أن يقول؟» تعبيرًا عن تصور كامل للمعنى، لأنه يفترض أن الدلالة موجودة قبل النص في ذهن صاحبه، وأن النص يقوم بنقلها، وأن القارئ كلما اقترب من استعادة القصد الأصلي كان فهمه أكثر صحة.

ولا يعني هذا أن كل أشكال النقد السابقة على نظريات التلقي كانت تختزل العمل في السيرة الذاتية أو النية، فقد عرفت التقاليد البلاغية والفلسفية والتأويلية تصورات أكثر تعقيدًا، لكن مركزية المؤلف ظلت قوية في كثير من الممارسات النقدية الحديثة، خصوصًا عندما ارتبطت بفكرة العبقرية الفردية والأصالة والإبداع الذاتي. ومن هنا أصبحت سلطة المؤلف سلطة تفسيرية، لأن معرفة حياته ورسائله ومذكراته أو تصريحاته قد تستخدم بوصفها مفاتيح لتثبيت معنى معين وإقصاء معان أخرى، وكأن النص لا يستطيع تجاوز الوعي الذي أنشأه. وبهذا المعنى يمكن تمثيل العلاقة التقليدية بصيغة يتحرك فيها المعنى من المؤلف إلى النص ثم إلى

القارئ، أي في اتجاه واحد تقريبًا، وهو التصور الذي سيخضع لاحقًا لمراجعة حاسمة عندما يبدأ النقد في التساؤل عما إذا كان قصد المؤلف قادرًا فعلًا على التحكم في حياة العمل بعد نشره.

القارئ بوصفه متلقيًا سلبيًا

إذا كان المؤلف يمثل، داخل النموذج السابق، أصل المعنى ومصدره، فإن القارئ يحتل موقعًا متأخرًا بوصفه الطرف الذي يتلقى ما سبق أن أنتجه شخص آخر، ولذلك تكون وظيفته الأساسية هي الفهم والتذوق وفك الإشارات ومحاولة الاقتراب من المقصد المفترض، لا المشاركة في إنشاء المعنى نفسه. ويمكن القول إن هذا النموذج ينظر إلى القراءة باعتبارها عملية استقبال لمعنى موجود سلفًا، فيصبح النص قناة بين قصد سابق ومتلقي لاحق، ولا يكون اختلاف القراء سوى تفاوت في درجة الفهم أو سوء الفهم، لا اختلافًا مشروعًا في إنتاج الدلالة.

لكن وجود الجمهور في التاريخ الأدبي لا يعني أن القارئ كان حاضرًا بوصفه مفهومًا نظريًا متكاملًا؛ فالكتب كانت دائمًا تكتب لأناس يقرأونها، والنقد كان يدرك أثر النص في المتلقي، غير أن السؤال عن طبيعة فعل القراءة نفسه لم يكن يحتل المركز الذي سيأخذه لاحقًا. فقد يكون القارئ متأثرًا أو مستمتعًا أو متعلمًا أو متذوقًا، لكن المعنى يظل سابقًا عليه ومستقلًا عنه، وهو ما يجعل القراءة في هذا التصور فعلًا تابعًا للعمل لا شرطًا من شروط تحققه. وسيبدأ التحول الحقيقي عندما يتغير السؤال من «هل فهم القارئ ما قصده المؤلف؟» إلى «ما الذي يحدث للنص عندما يقرأه قارئ؟»، لأن هذا التغيير البسيط في صياغة السؤال سيقود إلى مراجعة كاملة لموقع القارئ داخل العملية الأدبية.

المبحث الثاني: من المؤلف إلى النص

استقلال النص عن صاحبه

قبل أن يصبح القارئ مركزًا للنظرية كان النقد بحاجة إلى تحرير النص من الارتباط الصارم بصاحبه، وقد لعب النقد الجديد في المجال الأنجلوسكسوني دورًا مهمًا في هذه النقلة، خصوصًا مع وليم ويمسات ومونرو بيردسلي في مقالتهما الشهيرة «المغالطة القصدية»، التي رفضا فيها جعل نية المؤلف الخارجية معيارًا نهائيًا للحكم على معنى العمل وقيمته [2]. وكانت أهمية هذا الموقف تتجاوز الاعتراض على استخدام السيرة الذاتية، لأنه أعاد تعريف موضع المعنى نفسه، إذ لم يعد على الناقد أن يفتش في حياة المؤلف لكي يعرف ماذا يعني النص، بل أصبح العمل المنشور يمتلك وجودًا يمكن تحليله من خلال لغته وبنيته وعلاقاته الداخلية، حتى عندما تختلف النتائج عما صرح به صاحبه.

وقد مثّل هذا التحول انتقالًا من مركزية المؤلف إلى مركزية النص، لأن السلطة لم تمنح للقارئ مباشرة، بل انتقلت أولًا إلى البنية اللغوية للعمل، فأصبح النقد يبحث في التوترات والصور والمفارقات والتكرار والإيقاع والتنظيم الداخلي، وهو ما فتح الطريق أمام تصور يرى النص قادرًا على إنتاج دلالات تتجاوز قصد صاحبه أو لا تتطابق معه بالكامل. وبلغ هذا الاتجاه صيغة أكثر راديكالية مع رولان بارت في مقالته «موت المؤلف»، التي انتقد فيها العودة المستمرة إلى الكاتب باعتباره الأصل النهائي لمعنى النص، ودافع عن تحرير الكتابة من سلطة المصدر الفردي الواحد [5]. ولم يكن المقصود بموت المؤلف اختفاء الكاتب الواقعي أو إنكار وجوده وحقوقه، بل إسقاط الفكرة التي تجعل سيرته وقصده المرجع النهائي الذي يغلق النص ويحدد كل معانيه، وهو ما أتاح للقارئ مساحة نظرية أكبر بعد أن لم يعد مطالبًا بالعودة إلى صاحب النص في كل اختلاف تأويلي.

البنيوية وإعادة تحديد موقع القارئ

أسهمت البنيوية بدورها في إضعاف مركزية المؤلف، لكنها لم تجعل القارئ فورًا مركز العملية الأدبية، لأن اهتمامها الأساسي انصب على الأنظمة والبنى والقواعد التي تجعل اللغة والنصوص ممكنة، وقد كان لتصور فردينان دو سوسير للغة بوصفها نظامًا من العلاقات أثر حاسم في إعادة توجيه النقد من الفرد إلى البنية [3]. فالدلالة لا تفهم بوصفها انعكاسًا مباشرًا لنية شخص، بل تنتج داخل نظام من الاختلافات والعلاقات، وبذلك يصبح النص جزءًا من شبكة من القواعد والأجناس والرموز والتقاليد التي تسبقه وتجاوز إرادة صاحبه.

غير أن البنيوية فتحت في الوقت نفسه الباب أمام إعادة تعريف القارئ، لأن فهم النص يفترض امتلاك نوع من الكفاية التي تسمح بالتعرف إلى القواعد الأدبية والثقافية التي تنظمه. وقد طور جوناثان كولر هذه الفكرة في *Structuralist Poetics* حين اهتم بما يجعل القارئ قادرًا على فهم التقاليد والاتفاقات الأدبية، أي بما يمكن وصفه بالكفاية الأدبية التي لا توجد داخل النص وحده بل يحملها المتلقي معه إلى فعل القراءة [4]. وهنا لم يعد القارئ وعاءً فارغًا، لأنه يحتاج إلى معرفة ضمنية بما هو سردي أو مجازي أو ساخر أو نوعي حتى يستطيع إنتاج قراءة ممكنة، غير أن البنيوية ظلت تميل إلى النظر إلى هذه الكفاية في إطار أنظمة عامة أكثر من اهتمامها بالقارئ التاريخي الفرد وتجربته المتغيرة.

وهكذا كان انتقال النقد من المؤلف إلى النص مرحلة ضرورية قبل انتقاله إلى القارئ، لأن النص لم يعد مجرد تعبير عن ذات مبدعه، والقارئ لم يعد مجرد مستقبل، لكنه لم يصبح بعد مركزًا كاملًا لإنتاج المعنى. وقد بينت جين تومبكنز، في مجموعتها المرجعية حول نقد استجابة القارئ، أن هذا المجال لم يظهر بوصفه مدرسة واحدة متجانسة، وإنما تبلور عبر انتقالات معقدة من الشكلانية والبنيوية إلى الظاهراتية وما بعد البنيوية [12]، وهو ما يدل على أن صعود القارئ كان نتيجة مسار طويل لا لحظة نظرية منفردة.

المبحث الثالث: جماليات التلقي

هانس روبرت ياوس وأفق الانتظار

تمثل جماليات التلقي التي ارتبطت بمدرسة كونستانس تحولًا حاسمًا في تاريخ موقع القارئ، لأنها نقلت الاهتمام من ظروف إنتاج العمل أو بنيته الداخلية وحدها إلى تاريخ استقباله وإلى الشروط التي يلتقي من خلالها الجمهور بالنصوص. وقد جاء هانس روبرت ياوس في قلب هذه النقلة حين جعل «أفق الانتظار» مفهومًا أساسيًا لفهم كيفية دخول القراء التاريخيين إلى الأعمال الأدبية [6]. فالقارئ، في هذا التصور، لا يواجه النص من فراغ، بل يدخل إليه حاملًا خبرة سابقة بالأنواع والأساليب والأعراف والتقاليد، ولذلك فإن العمل الجديد يُقاس في جانب من أثره بالمسافة بين ما يتوقعه الجمهور وما يقدمه النص بالفعل.

ويتيح مفهوم أفق الانتظار فهم القراءة بوصفها لقاءً بين جديد العمل وذاكرة المتلقي الثقافية، لأن القارئ لا يتلقى النص باعتباره وحدة مكتفية بنفسها، بل يقارنه ضمنيًا أو صراحة بأعمال عرفها وبمعايير تعلمها وبأنواع أدبية توقع منها خصائص محددة. وقد ينسجم العمل مع الأفق الموجود فيؤكد توقعات الجمهور، أو يصدمه ويعدل معاييره، وفي هذه المسافة بين المألوف والجديد تتشكل تجربة جمالية وتاريخية. ومن هنا أصبح القارئ عند ياوس صاحب تاريخ، ولم يعد وجوده مجرد لحظة لاحقة على الكتابة، لأن تاريخ الأدب نفسه لا يمكن أن يُفهم من دون تاريخ قراءاته وتحول قيمته من جيل إلى آخر.

وتكتسب هذه الفكرة أهمية خاصة بالنسبة إلى مشروع القارئ الهجين، لأن أفق الانتظار، وإن كان عند ياوس مفهومًا تاريخيًا وثقافيًا، يسمح لنا اليوم بطرح سؤال إضافي حول الدور الذي تؤديه المنصات والتوصيات والتقييمات الرقمية في تشكيل بعض توقعات القارئ قبل أن يبدأ العمل. وإذا كان هذا البحث سيقترح لاحقًا مفهوم «أفق الانتظار الخوارزمي»، فإن ذلك لا يعني

نسبته إلى ياوس أو استبدال مفهومه الأصلي، بل يعني تطويره ليتعامل مع عنصر جديد لم يكن موجوداً في البيئة التي ظهرت فيها جماليات التلقي.

تاريخ الأدب من منظور المتلقي

لم يكن مشروع ياوس مقتصراً على وصف تجربة قارئ فرد ، بل كان يتضمن إعادة نظر في طريقة كتابة تاريخ الأدب نفسه، لأن العمل الأدبي لا يعيش في لحظة ظهوره فقط، وإنما يدخل في سلسلة طويلة من الاستقبالات وإعادة التقييم وإعادة الاكتشاف. فقد يفشل نص عند صدوره ثم يصبح لاحقًا مركزيًا ، وقد يحقق عمل شهرة واسعة في عصر ثم تتراجع قيمته في عصر آخر، وقد تظهر في نص قديم دلالات لم تكن محور اهتمام جمهوره الأول، وبذلك يصبح تاريخ الأدب تاريخًا للعلاقات المتغيرة بين الأعمال والجماعات التي تستقبلها.

وتمثل هذه النقلة خطوة أساسية في الطريق نحو مفهوم القارئ الهجين، لأنها أثبتت أن القراءة ليست نشاطًا فرديًا معزولًا عن الزمن، بل واقعة تاريخية تتغير بتغير القراء والسياقات. وإذا وسعنا هذا المنظور اليوم ، فإن علينا ألا ندرس فقط تغير الأجيال والقيم ، بل كذلك تغير البيئات التقنية التي تتم داخلها القراءة، لأن القارئ الذي يقرأ عملًا ورقيًا في مكتبة لا يعيش شروط التلقي نفسها التي يعيشها قارئ يصل إلى العمل عبر توصية خوارزمية ويقرأه محاطًا بمراجعات رقمية ومساعد توليدي. ومن هنا تصبح مساهمة ن. كاثرين هايلز في ربط الممارسات المعرفية بتحولات الوسائط ذات قيمة خاصة، لأنها تسمح بتوسيع تاريخ الاستقبال إلى تاريخ البيئات التي تنظم هذا الاستقبال [13].

المبحث الرابع: فعل القراءة عند وولفغانغ إيزر

القارئ الضمني

إذا كان ياوس قد ركز على أفق الجمهور التاريخي، فإن وولفغانغ إيزر توجه بدرجة أكبر إلى البنية الداخلية لفعل القراءة، وخصوصًا من خلال مفهومي «القارئ الضمني» و«فعل القراءة» [7][8]. ولا يشير القارئ الضمني إلى فرد واقعي له اسم وسيرة، بل إلى موقع قرائي يبنيه النص من خلال الطريقة التي ينظم بها المعلومات ويؤجل بعض التفاصيل ويوزع وجهات النظر ويخلق التوقعات والمفاجآت، بحيث يفترض قارئًا قادرًا على متابعة هذه الاستراتيجية وتحقيقها أثناء القراءة.

وتكمن أهمية هذا المفهوم في أنه يمنع من جهة اختزال القراءة في ما يفعله أي قارئ فعلي اعتباطًا، ومن جهة أخرى يرفض فكرة أن النص يحمل دلالته مكتملة قبل التلقي، لأن العمل يحتاج إلى قارئ يفعّل إمكاناته وينظم العلاقات بين عناصره. وهكذا تصبح القراءة حدثًا يحدث بين الطرفين، لا مجرد انتقال للمعنى من النص إلى المتلقي، ويصبح القارئ عنصرًا في تحقق العمل الجمالي من دون أن يمتلك مع ذلك حرية مطلقة تتجاهل ما يتيحه النص أو يمنعه.

الفراغات النصية ودور القارئ في ملئها

تتضح فاعلية القارئ عند إيزر بصورة أكبر من خلال مفهوم الفراغات أو مناطق عدم التحديد، لأن النص لا يقول كل شيء ولا يستطيع أن يصرح بكل العلاقات الممكنة، ولذلك يترك فجوات بين الأحداث والمعلومات والمنظورات، ويكون على القارئ أن يبني استمرارية مؤقتة وأن يضع فرضيات ثم يعدلها كلما ظهرت معلومات جديدة. فالرواية قد تقفز سنوات من دون تفسير كامل لما حدث، وقد تترك دوافع شخصية غير محسومة، وقد تقدم منظورًا ثم تقوضه لاحقًا، وفي كل هذه الحالات يقوم القارئ بعمل معرفي وتأويلي لا يمكن الاستغناء عنه.

ولا تمثل الفراغات نقصًا في النص، بل هي جزء من آليته في استدعاء المشاركة، لأن العمل الذي يشرح كل شيء ويلغي كل غموض يقلل المساحة التي يعمل فيها القارئ. ومن هنا تصبح القراءة سلسلة متواصلة من بناء الفرضيات وتصحيحها وإعادة النظر فيها، وهو ما يجعل الزمن عنصرًا أساسيًا في فعل التلقي، لأن المعنى الذي كان للقارئ في بداية الرواية قد يتغير بعد نهايتها، وقد يعيد فهم المقاطع السابقة في ضوء ما عرفه لاحقًا.

وتصبح هذه الفكرة شديدة الأهمية عندما نضعها أمام الذكاء الاصطناعي التوليدي، لأن النظام الحواري يستطيع الدخول تحديدًا في هذه الفراغات وتقديم إجابات فورية عنها. فإذا واجه القارئ نهاية غامضة أو دوافع غير واضحة أو رمزًا متعدد الدلالات، فإنه يستطيع أن يسأل الآلة فورًا، وهنا لم تعد عملية ملء الفراغ بشرية خالصة كما كانت في النموذج الأصلي، بل يمكن أن تصبح عملية هجينة يشترك فيها القارئ والنظام بدرجات مختلفة. ومن ثم فإن السؤال الجديد الذي يطرحه مشروعنا لا يتمثل في إلغاء مفهوم إيزر، بل في توسيعه: ماذا يحدث لفراغ النص عندما توجد آلة مستعدة دائمًا لأن تقترح طريقة لملئه؟ وهل تساعد هذه الآلة القارئ على بناء تأويله أم أنها تملأ المسافة نيابة عنه وتختصر الجهد الذي كان جوهر الفعل القرائي؟

المبحث الخامس: القارئ النموذجي والجماعة التأويلية

أمبرتو إيكو والقارئ النموذجي

يقدم أمبرتو إيكو تصورًا يضيف إلى فاعلية القارئ مفهومًا مهمًا هو «القارئ النموذجي»، الذي لا يشير إلى قارئ حقيقي بعينه، بل إلى قارئ تفترضه استراتيجية النص وتحتاج إليه لكي تتحقق عملياتها الدلالية [9]. فالنص لا يفتح نفسه لكل استعمال ممكن بلا حدود، وإنما يوجه قارئه عبر شبكة من التعليمات والإشارات والافتراضات، ويحتاج إلى قدر من الكفاية اللغوية والثقافية والتناصية حتى يعمل بالطريقة التي تسمح بها بنيته.

ومن هنا تنشأ عند إيكو علاقة توازن دقيقة بين انفتاح النص وحدود التأويل، إذ لا يمكن العودة إلى مركزية المعنى الواحد، لكن لا يمكن كذلك القول إن كل تفسير مشروع لمجرد أن قارئًا أو نظامًا استطاع توليده. وقد عاد إيكو في *The Limits of Interpretation* (حدود التأويل) هذه المسألة بصورة أكثر صراحة، فانتقد التوسع غير المنضبط في التأويل ودافع عن ضرورة الاحتفاظ بحقوق النص في مواجهة التأويلات التي لا يمكن دعمها من بنيته وسياقه.[10]

وتكتسب هذه الفكرة أهمية استثنائية في عصر الذكاء الاصطناعي، لأن النظام يستطيع أن يولد عشرات القراءات المحتملة للعمل نفسه، وقد تكون لغته مقنعة حتى عندما تكون العلاقة بالنص ضعيفة. ولذلك يمكن تطوير المبدأ الإيكوي ليصبح قاعدة مركزية في نظرية القارئ الهجين: القدرة على توليد تأويل لا تمنحه الشرعية تلقائيًا، بل يجب أن يخضع للدليل النصي والسياقي. فالآلة تستطيع أن تقترح، لكن القارئ ينبغي أن يفحص، والنص ينبغي أن يظل مرجعًا للمساءلة، وبذلك يصبح إيكو أحد أهم المرتكزات في بناء مفهوم «المسؤولية التأويلية» الذي يحتاج إليه القارئ الهجين.

ستانلي فيش والجماعات التأويلية

يذهب ستانلي فيش إلى خطوة أخرى حين يجعل القراءة مرتبطة بالجماعات التأويلية التي ينتمي إليها القارئ، لأن الفرد لا يدخل إلى النص باستراتيجيات اخترعها وحده، بل يتعلم داخل جماعاته ما الذي يمكن اعتباره سؤالًا مشروعًا أو دليلًا مقنعًا أو معنى معقولًا [11]. وهكذا لا يكون التأويل فرديًا محضًا ولا نصيًا محضًا، بل يتشكل داخل ممارسات مشتركة تمنح القراءة قواعدها.

وتتيح هذه الفكرة تجاوز صورة القارئ المنعزل، لأن الإنسان يقرأ بوصفه عضوًا في ثقافة ومؤسسة ومدرسة وأفق اجتماعي، وقد يرى الناقد النفسي في النص عناصر لا يركز عليها الناقد التاريخي، وقد يقرأ الطالب العمل بطريقة مختلفة عن قارئ ينتمي إلى جماعة دينية أو سياسية أو أدبية معينة، لا لأن النص يتغير ماديًا، بل لأن الاستراتيجيات التي يحملها القراء مختلفة. ومن هنا يصبح المعنى مرتبطًا بجماعات تنتج شروط إمكانه.

غير أن البيئة الرقمية تضيف إلى هذه الفكرة عنصرًا جديدًا، لأن الجماعة التأويلية لم تعد بالضرورة محيطًا اجتماعيًا بعيدًا عن لحظة القراءة، بل يمكن أن تصبح مرئية حول النص من خلال التعليقات والمراجعات والتقييمات والحواشي الاجتماعية ومقاطع الفيديو، بحيث يدخل القارئ إلى العمل وهو يرى آثار قراءات الآخرين قبل أن يبني قراءته الخاصة. والأهم أن هذه الأصوات لا تظهر بالدرجة نفسها، لأن الخوارزمية ترتبها وتمنح بعض التعليقات والمراجعات حضورًا أكبر من غيرها، وبذلك تصبح الجماعة التأويلية نفسها موسطة تقنيًا. ومن هنا يمكن الحديث عن انتقال من الجماعة التأويلية عند فيش إلى «الجماعة التأويلية المؤطرة خوارزميًا»، حيث لا يقتصر أثر المجتمع على إنتاج المعنى، بل تدخل المنصة في تحديد أي معاني المجتمع تصبح أكثر ظهورًا أمام القارئ.

المبحث السادس: حدود نظريات التلقي التقليدية

غياب الوسيط الخوارزمي

قدمت نظريات التلقي والقراءة تحولات حاسمة في فهم العلاقة بين النص والمتلقي، لكنها تشكلت داخل بيئة لم تكن تعرف أنظمة التوصية والمنصات الخوارزمية والنماذج التوليدية، ولذلك فإن محدوديتها لا تنبع من خطأ في مفاهيمها، بل من أن موضوع القراءة نفسه أصبح أكثر تعقيداً مما كان عليه زمن ظهورها. فعندما تحدث ياوس عن أفق الانتظار، لم يكن القارئ يحصل على قوائم شخصية للكتب مبنية على تاريخه السلوكي، وعندما تحدث إيزر عن الفراغات لم تكن هناك آلة تستطيع أن تقدم تفسيراً فورياً لكل غموض، وعندما تحدث إيكو عن القارئ النموذجي لم يكن القارئ الفعلي قادراً على تعويض نقص كفايته عبر أداة توليدية تشرح له المرجعيات، وعندما تحدث فيش عن الجماعة التأويلية لم تكن الخوارزميات ترتب ملايين الآراء وتقرر أيها يصل أولاً إلى المستخدم.

ومن هنا لا يمكن الاكتفاء اليوم بالنموذج الذي يجعل العلاقة بين النص والقارئ مباشرة، لأن القراءة في كثير من البيئات الرقمية أصبحت تمر عبر منصة وخوارزمية وبيانات ومحتوى اجتماعي ونظم ذكية. وقد بين تارلتون غيليسبي أن الخوارزميات تشارك في تحديد ما يعتبر ذا صلة وفي ترتيب المعلومات داخل الأنظمة الرقمية [14]، كما حلل هالينان وستريبهاس أنظمة التوصية بوصفها جزءاً من «ثقافة خوارزمية» تشارك في تصنيف التفضيلات وتنظيم الاستهلاك الثقافي [15]، بينما درست تاينا بوخر القوة الخوارزمية من زاوية تأثيرها في الظهور وتجربة المستخدم داخل المنصات [16].

وعليه فإن القارئ المعاصر قد لا يصل إلى النص مباشرة، بل يصل إلى نص سبق أن مر عبر عمليات ترتيب وتصنيف وتوصية، وقد يكون قد شاهد تقييماته ومراجعاته قبل أن يبدأه، وقد تستخدم بياناته السابقة لتحديد الأعمال التي ستظهر له لاحقاً، وقد يستعين بعد ذلك بنظام توليدي لشرح ما يقرأه.

وهكذا لم يعد الوسيط شفافًا، لأن دوره انتقل من مجرد نقل المحتوى إلى المساهمة في تشكيل شروط ظهوره ومسار تلقيه.

وتزداد الفجوة بين النظريات التقليدية والبيئة الحالية وضوحًا عندما تتحول القراءة نفسها إلى بيانات، لأن القارئ لم يعد فقط من يقرأ النص، بل أصبح النظام قادرًا على معالجة آثار سلوكه القرائي وتوظيفها في تخصيص ما سيعرض له. ومن هنا يظهر نموذج لم يكن حاضرًا في نظريات التلقي السابقة، حيث تدخل القراءة في حلقة متكررة من التفاعل والبيانات والتوصية، فيصبح القارئ في الوقت نفسه فاعلًا يقرأ وموضوعًا يُحلل سلوكه.

ضرورة تحديث مفهوم القارئ

لا تعني ضرورة تحديث مفهوم القارئ إلغاء القارئ التاريخي عند ياوس أو القارئ الضمني عند إيزر أو القارئ النموذجي عند إيكو أو الجماعات التأويلية عند فيش، بل تعني إضافة طبقة جديدة إلى هذه التصورات تسمح بفهم القارئ الذي يعيش داخل بيئة رقمية وخوارزمية. فالقارئ الهجين يمكن أن يكون في الوقت نفسه قارئًا تاريخيًا ذا أفق انتظار، وقارئًا يملأ فراغات النص، وقارئًا يحتاج إلى كفايات نموذجية، وعضوًا في جماعة تأويلية، لكنه يستخدم أيضًا محرك بحث وترجمة آلية ومنصة توصية ونظامًا توليديًا، ولذلك فإن ما يميزه ليس إلغاء أشكال القارئ السابقة، بل تراكمها داخل وضع تقني جديد.

ومن هنا يمكن النظر إلى تاريخ القارئ بوصفه توسعًا تدريجيًا في وحدة التحليل، إذ انتقل من متلقٍ في نهاية السلسلة إلى حامل للكفاية، ثم إلى قارئ تاريخي، ثم إلى فاعل في تحقيق النص، ثم إلى عضو في جماعة تأويلية، ثم إلى مستخدم للوسائط الرقمية، ثم إلى قارئ خوارزمي، وأخيرًا إلى قارئ هجين تتوزع بعض وظائفه المعرفية بينه وبين أدوات خارجية. ويقترب هذا التصور من أطروحة «العقل الممتد» عند آندي كلارك وديفيد تشالمرز، التي تسمح بالتفكير في إمكان دخول بعض الموارد الخارجية

وظيفيًا في العمليات المعرفية [17]، كما ينسجم مع تصور هايلز للعلاقة المتبادلة بين الإنسان والتقنيات الرقمية.[13]

وهنا يظهر الفرق بين القارئ الرقمي والقارئ الهجين بصورة أكثر دقة، لأن الأول قد يقرأ نصًا إلكترونيًا دون أن تتدخل الآلة في عملية الفهم نفسها، بينما تبدأ الهجنة عندما تدخل الأدوات في وظائف مثل الاسترجاع والترجمة والتلخيص والمقارنة والشرح واقتراح التأويل. ولذلك يمكن القول إن الهجنة ليست خاصية في الشاشة، بل في البنية المعرفية للقراءة.

ومن هذا المنطلق يمكن إعادة النظر في مفاهيم النظريات السابقة بطريقة تسمح بتوسيعها دون تشويهها. فأفق الانتظار عند ياوس يمكن أن تضاف إليه طبقة خوارزمية تتشكل من التوصيات والتقييمات والتخصيص، والفراغات عند إيزر يمكن أن تصبح مجالًا لتدخل آلي قد يعزز نشاط القارئ أو يستبدله، والقارئ النموذجي عند إيكو يفتح أمامنا سؤالًا جديدًا حول قدرة التقنية على تعويض بعض الكفايات التي يفتقدها القارئ الفعلي، بينما تتحول الجماعات التأويلية عند فيش في البيئة الرقمية إلى جماعات تظهر أصواتها عبر ترتيب خوارزمي غير متساوٍ.

غير أن أهم تحول يفرضه هذا التحديث يتعلق بالانتقال من مركزية القارئ إلى شبكة إنتاج المعنى. فإذا كانت نظريات التلقي قد حررت القارئ من سلطة المؤلف والنص المغلق، فإن نظرية القارئ الهجين لا ينبغي أن تستبدل تلك المركزية بمركزية مطلقة للقارئ، لأن المعنى المعاصر قد يتشكل داخل شبكة تضم النص والقارئ والخوارزمية والسياق. ويصبح النموذج الأكثر ملاءمة لهذه البيئة هو :**النص ↔ القارئ ↔ الخوارزمية ↔ السياق**، مع ضرورة الإبقاء على الفروق بين هذه العناصر، لأن الخوارزمية تستطيع أن تقترح وتعيد الترتيب والتلخيص، لكنها لا تمتلك التجربة الإنسانية ذاتها ولا تتحمل المسؤولية الأخلاقية عن الحكم التأويلي، ولذلك يظل القارئ مركز المسؤولية حتى عندما تتوزع بعض الوظائف معرفيًا.

ومن هنا يصل الفصل إلى مفهوم «القارئ الميتا خوارزمي»، أي القارئ الذي لا يكتفي باستخدام النظام في القراءة، بل يجعل النظام نفسه موضوعًا للفحص، فيسأل لماذا وصل إليه هذا النص، ولماذا قدمت الآلة هذا التفسير، وما المصادر التي يمكن التحقق منها، وما الذي غاب عن الجواب، وهل التوصية محايدة أم مخصصة، وبذلك ينتقل النقد من قراءة المؤلف ثم النص ثم القارئ إلى قراءة البنية التقنية التي تشارك القارئ في إنتاج شروط القراءة.

خاتمة الفصل

يكشف هذا المسار أن صعود القارئ إلى مركز النظريات الأدبية لم يكن لحظة واحدة ولا انقلابًا منفصلًا، بل كان نتيجة حركة طويلة بدأت بتفكيك سلطة المؤلف، ثم بإعطاء النص استقلالًا عن صاحبه، قبل أن تكشف البنيوية حاجة القراءة إلى كفايات وقواعد، ثم جاءت جماليات التلقي لتجعل القارئ صاحب أفق تاريخي، وأكد إيزر أن النص لا يتحقق جماليًا من دون نشاط القارئ داخل فراغاته، بينما حافظ إيكو على التوازن بين حرية التأويل وحدود النص، ووسّع فيش المجال ليشمل الجماعات التي تشكل استراتيجيات القراءة. غير أن البيئة الرقمية والخوارزمية تكشف اليوم أن هذه الجينالوجيا لم تصل إلى نهايتها، لأن القارئ أصبح يواجه وسيطًا يستطيع أن يختار ويصنف ويقترح ويترجم ويلخص ويولد خطابًا حول النص، وهو ما يفرض إضافة سؤال جديد إلى تاريخ نظريات القراءة.

ولا يعني ذلك أن النظريات السابقة أصبحت متجاوزة، بل العكس، إذ لا يمكن التفكير في القارئ الهجين من دونها، غير أن البيئة التي نشأت فيها لم تكن تعرف أنظمة توصية شخصية ولا مساعدات توليدية ولا اقتصاد بيانات قائمًا على سلوك المستخدم. ولهذا فإن المهمة النظرية التي يقترحها هذا الكتاب تتمثل في نقل الأسئلة التي صاغها ياوس وإيزر وإيكو وفيش إلى بيئة جديدة، بحيث لا يعود السؤال فقط ماذا يفعل القارئ بالنص، بل ماذا يحدث للقارئ والنص معًا عندما تدخل الخوارزمية بينهما أو إلى جانبهما.

ومن هنا يمكن النظر إلى تطور موقع القارئ في تاريخ النظرية الأدبية بوصفه انتقالًا من المتلقي إلى الفاعل، ثم من الفاعل الفردي إلى الفاعل الاجتماعي، وأخيرًا إلى الفاعل البشري الذي يعمل داخل شبكة تقنية. وعند هذه النقطة يبدأ مفهوم «القارئ الهجين» في اكتساب مبرره النظري الحقيقي، لأنه لا يصف مجرد قارئ يستخدم جهازًا جديدًا، بل يصف قارئًا يعيد بناء فعله المعرفي داخل بيئة تشارك فيها الآلة بعض الوظائف من دون أن يصبح ذلك مبررًا لنقل المسؤولية التأويلية إليها. وبذلك يظل القارئ،

رغم كل التحولات التقنية، مركز الحكم والنقد والمسؤولية، لكن مركزه لم يعد معزولًا، بل أصبح نقطة تقاطع داخل شبكة أوسع لإنتاج المعنى.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Abrams, M. H.** *The Mirror and the Lamp: Romantic Theory and the Critical Tradition*. New York: Oxford University Press, 1953.

مرجع أساسي لفهم تحولات النظريات النقدية وخصوصًا الاتجاهات التعبيرية التي منحت المبدع موقعًا مركزيًا في تفسير العمل.

[2] **Wimsatt, W. K. Jr. & Beardsley, Monroe C.** "The Intentional Fallacy." *The Sewanee Review*, Vol. 54, No. 3, 1946, pp. 468–488.

يمثل المقال محطة أساسية في نقد الاعتماد على قصد المؤلف معيارًا نهائيًا لمعنى النص وقيمته.

[3] **Saussure, Ferdinand de.** *Course in General Linguistics*. Edited by Charles Bally and Albert Sechehaye, 1916.

يمثل المرجع اللساني المؤسس لفهم اللغة بوصفها نظامًا من العلاقات، وهو ما استفادت منه البنيوية الأدبية في نقل الاهتمام من الذات الفردية إلى البنى.

[4] **Culler, Jonathan.** *Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and the Study of Literature*. 1975.

يفيد في فهم الصلة بين البنيوية واللسانيات ومفهوم الكفاية الأدبية للقارئ.

[5] **Barthes, Roland.** "The Death of the Author." 1967؛ **أعيد نشره في** *Image–Music–Text*, translated by Stephen Heath, London: Fontana, 1977, pp. 142–148.

يمثل نصًا محوريًا في تفكيك سلطة المؤلف باعتباره المصدر النهائي لمعنى العمل.

[6] **Jauss, Hans Robert.** *Toward an Aesthetic of Reception*. Translated by Timothy Bahti. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.

أحد المراجع المؤسسة لجماليات التلقي، وخصوصًا مفهوم أفق الانتظار وإعادة بناء تاريخ الأدب من منظور المتلقي.

[7] Iser, Wolfgang. *The Implied Reader: Patterns of Communication in Prose Fiction from Bunyan to Beckett*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1974.
مرجع أساسي لمفهوم القارئ الضمني ولدراسة موقع القارئ الذي تبنيه استراتيجية النص.

[8] Iser, Wolfgang. *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.
يمثل الإطار النظري الأشمل لفعل القراءة ودور الفراغات وعدم التحديد في إنتاج المشاركة القرائية.

[9] Eco, Umberto. *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts*. Bloomington: Indiana University Press, 1979.
مرجع أساسي في مفهوم القارئ النموذجي والتعاون التأويلي والعلاقة بين النص والقارئ.

[10] Eco, Umberto. *The Limits of Interpretation*. Bloomington: Indiana University Press, 1990.
يكتسب أهميته في الدفاع عن حدود التأويل ونقد التفسير غير المنضبط الذي لا يستند إلى بنية النص.

[11] Fish, Stanley. *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980.
مرجع تأسيسي لمفهوم الجماعات التأويلية ودور الممارسات المشتركة في إنتاج المعنى.

[12] Tompkins, Jane P. (ed.). *Reader-Response Criticism: From Formalism to Post-Structuralism*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1980.
مجموعة مرجعية مهمة توثق تنوع النقد المتمحور حول القارئ وانتقالاته النظرية.

[13] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press,

2012.
يستخدم في هذا البحث لربط تاريخ القراءة بتاريخ الوسائط ولدراسة العلاقة المتبادلة بين الممارسات المعرفية والتقنيات الرقمية.

[14] Gillespie, Tarleton. “The Relevance of Algorithms.” In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. MIT Press, 2014.
مرجع مركزي لدراسة الدور الثقافي والاجتماعي للخوارزميات في ترتيب المعلومات وتحديد الصلة والظهور.

[15] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. “Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture.” *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137.
مرجع مهم لمفهوم الثقافة الخوارزمية ودراسة أنظمة التوصية بوصفها عناصر مشاركة في تصنيف التفضيلات وتنظيم الاستهلاك الثقافي.

[16] Bucher, Taina. *If…Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.
يفيد في تحليل القوة الخوارزمية وتأثيرها في الظهور وتجربة المستخدم داخل المنصات.

[17] Clark, Andy & Chalmers, David. “The Extended Mind.” *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19.
يوفر أساسًا فلسفيًا لفكرة إمكان امتداد بعض العمليات المعرفية إلى موارد خارجية، وهو ما يستثمره هذا الكتاب لاحقًا في تحليل القراءة الهجينة والذات القارئة الموزعة.

خلاصة مرجعية

تنتظم مراجع هذا الفصل في ثلاث طبقات متكاملة؛ إذ تفسر أعمال أبرامز وويمسات وبيردسلي وسوسير وكولر وبارت [1–5] انتقال النقد من مركزية المؤلف إلى استقلال النص وإعادة تعريف شروط القراءة، بينما تشكل أعمال ياوس وإيزر وإيكو وفيش وتومبكنز [6–12] الأساس النظري لصعود القارئ إلى مركز عملية إنتاج المعنى، في حين تتيح أعمال هايلز وغيليسبي وهالينان وستريبهاس وبوخر وكلارك وتشالمرز [13–17] الانتقال من نظريات القارئ التقليدية إلى سؤال القارئ الذي يعيش داخل بيئة رقمية وخوارزمية، وهو السؤال الذي ستتولى الفصول التالية تطويره وصولًا إلى تأسيس مفهوم القارئ الهجين.

الفصل الثاني

من الورق إلى الشاشة:

التحولات المادية والثقافية للقراءة

لا يمكن فهم التحولات التي أصابت القارئ المعاصر، ولا الانتقال الذي يقترحه هذا الكتاب من مفهوم القارئ الرقمي إلى مفهوم القارئ الهجين، من دون العودة إلى التاريخ المادي والثقافي لفعل القراءة نفسه، لأن القراءة لم تكن في أي مرحلة نشاطًا ذهنيًا خالصًا منفصلًا عن الأجسام والأدوات والفضاءات التي تحمل النصوص وتعرضها وتنظم التعامل معها، بل ظلت مرتبطة على الدوام باللوح والبردي والمخطوط والكتاب المطبوع والشاشة والواجهة، كما ظلت تتغير تبعًا للطريقة التي يُكتب بها النص ويُخزن ويوزع ويُسمع ويُرى ويُلمس ويُستعاد. ومن ثم فإن الانتقال من الورق إلى الشاشة لا يمكن اختزاله في استبدال مادة بمادة أو جهاز بكتاب، لأن الحامل ليس مجرد وعاء محايد يحتفظ بمحتوى يمكن نقله دون أثر، وإنما يشارك، بدرجات متفاوتة، في تنظيم مسار القراءة وعلاقتها بالذاكرة والانتباه والجسد والزمن والمكان.

وقد بينت دراسات تاريخ القراءة أن الممارسات القرائية لم تكن ثابتة عبر العصور، وأن الانتقال بين أنماط الكتابة وتقنيات إنتاج النصوص صاحبه تغير في طرائق القراءة والجمهور والأعراف الثقافية التي تنظم علاقة الإنسان بالمكتوب [1][2]. فهناك فرق بين النص الذي يُلقى في مجلس ويسكن الذاكرة من خلال الصوت والإيقاع، والمخطوط الذي ينسخه ناسخ وتحتفظ صفحاته بخصوصيتها المادية، والكتاب المطبوع الذي يتيح إنتاج نسخ متشابهة بكميات واسعة، والنص الرقمي الذي يتحول إلى بيانات قابلة للبحث والتعديل والربط والتفاعل. وقد قدم روجيه شارتييه، من خلال أعماله حول تاريخ الكتاب والقراءة، تصورًا يؤكد أن معنى النص لا ينفصل تمامًا عن الأشكال المادية التي تتيح تملكه واستعماله، وأن تاريخ الكتاب

يتقاطع بالضرورة مع تاريخ القراء والمكتبات وأشكال تنظيم المكتوب [3]. وتؤكد دراسات تاريخ القراءة في الغرب أن التغيرات التقنية في الأشكال المادية للكتب رافقتها تحولات في ممارسات القراءة والجمهور وأساليب استعمال النصوص .

ولهذا فإن هذا الفصل لا يسعى إلى كتابة تاريخ شامل للقراءة منذ العصور القديمة، وإنما إلى تتبع مجموعة من التحولات التي تساعد على فهم الشروط التي أفضت إلى الوضع الراهن، حيث لم تعد القراءة مرتبطة بنص ثابت وحامل واحد ومسار خطي محدد سلفًا، بل أصبحت تتم داخل بيئة يمكن أن تجمع النص والصورة والصوت والفيديو والرابط والتعليق والتوصية والبحث، قبل أن يضاف إليها الذكاء الاصطناعي بوصفه وسيطًا قادرًا على الحوار مع القارئ حول ما يقرأ. وسيكشف هذا المسار أن القارئ الهجين ليس طفرة ظهرت فجأة مع النماذج التوليدية، بل هو نتيجة بعيدة لسلسلة من التحولات التي بدأت بإعادة تنظيم العلاقة بين الصوت والكتابة، ثم بين المخطوط والطباعة، ثم بين الصفحة والواجهة، ثم بين الخطية والتشعب، وأخيرًا بين القراءة بوصفها انتقالًا داخل كتاب والقراءة بوصفها تنقلًا داخل شبكة.

المبحث الأول: القراءة الشفوية والمخطوط

القراءة الجماعية وذاكرة السماع

قبل أن تصبح القراءة مرتبطة في المخيال الحديث بصورة الفرد المنعزل أمام كتاب صامت، عرفت الثقافات الإنسانية أشكالًا واسعة من التلقي تقوم على الصوت والسماع والحضور الجماعي، ولم تكن الحدود بين القراءة والإلقاء والاستماع والحفظ مستقرة بالطريقة التي أصبحت عليها لاحقًا. وقد بين والتر أونغ في دراسته عن الشفوية والكتابة أن الثقافة الشفوية لا تقوم فقط على غياب الكتابة، بل تنتج أساليب خاصة في تنظيم المعرفة والذاكرة، حيث تؤدي الصيغ المتكررة والإيقاع والتوازي والعبارات القابلة للحفظ وظيفة أساسية في تثبيت المعرفة وانتقالها [1]. وفي مثل هذه البيئات لا يكون النص، بالمعنى الذي نفهمه اليوم، شيئًا موضوعًا أمام قارئ فردي يمكنه أن يعود إليه متى شاء، وإنما يكون الكلام حدثًا يحدث في الزمن، ويعتمد بقاؤه على الذاكرة وإعادة الأداء.

ويكتسب السماع في هذا السياق وظيفة معرفية وثقافية لا تقل عن وظيفة النظر، لأن المتلقي لا يملك النص بالمعنى المادي وحده، بل يتملكه عبر الأذن والذاكرة والجماعة، وهو ما يجعل القراءة الجماعية أو الإلقاء العلني ممارسة تتداخل فيها المعرفة بالأداء الاجتماعي. فالنص الذي يقرأ بصوت مرتفع لا يصل إلى كل متلق بالطريقة نفسها التي يصل بها النص الصامت إلى قارئ منفرد، لأن الإيقاع والنبر والوقفات والحضور الجسدي للقارئ الأول يصبح جزءًا من الوساطة، كما أن استجابة الجماعة نفسها قد تؤثر في تجربة المتلقي، وبذلك يصبح النص حدثًا اجتماعيًا بقدر ما هو محتوى لغويًا.

ولا يعني الانتقال إلى الكتابة أن الشفوية اختفت، بل استمرت الممارسات الصوتية إلى جانب الكتابة والمخطوط والطباعة، وقد ظلت القراءة الجهرية حاضرة في البيئات الدينية والتعليمية والأسرية والأدبية حتى بعد توسع القراءة الصامتة. وهذا التداخل مهم بالنسبة إلى مشروعنا، لأنه يبين

منذ البداية أن تاريخ القراءة ليس تاريخ إحلال كامل لوسيط محل آخر، وإنما تاريخ تراكم وإعادة توزيع للوسائط؛ فالشفوية بقيت داخل الثقافة المكتوبة، والصوت عاد اليوم بصورة جديدة داخل الكتب الصوتية والمساعدات الصوتية والواجهات التي تحول النص إلى كلام، وهو ما يدل على أن التقنيات الحديثة لا تعيد تشكيل المستقبل فقط، بل تستعيد أحيانًا وظائف قديمة داخل بنيات جديدة.

ومن الناحية المعرفية، تكشف القراءة السمعية عن ارتباط وثيق بين الذاكرة والإيقاع والتكرار، لأن المتلقي لا يستطيع دائمًا أن يعود إلى الجملة السابقة بالسهولة التي يتيحها النص المكتوب، ولذلك تكتسب بنية الخطاب أهمية مضاعفة في تثبيت المعنى. وفي المقابل تمنح الكتابة القارئ إمكان العودة والتوقف والمقارنة بين مواضع مختلفة، فتبدأ المعرفة في الانتقال من ذاكرة تعتمد بقوة على الاستيعاب الداخلي إلى ذاكرة تستطيع الاتكاء على العلامة الخارجية. ومن هنا يمكن اعتبار الكتابة بداية مبكرة لمسار طويل من إخراج بعض وظائف الذاكرة إلى وسيط مادي، وهو المسار الذي سيصل في البيئة الرقمية إلى قواعد البيانات ومحركات البحث والذاكرة السحابية.

<u>المخطوط وخصوصية العلاقة بالنص</u>

أحدث المخطوط تحولًا في علاقة الإنسان بالكلام حين منح النص وجودًا ماديًا يمكن العودة إليه، لكنه ظل يحمل خصائص تميزه بوضوح عن الكتاب المطبوع الحديث، لأن إنتاج النسخة المخطوطة كان عملًا فرديًا أو مؤسساتيًا يعتمد على النسخ اليدوي، وهو ما يجعل كل نسخة قابلة لأن تحمل فروقًا في الخط والتصحيح والزخرفة والترتيب والهوامش وأحيانًا في النص نفسه. ولم يكن القارئ يتعامل دائمًا مع «نسخة مطابقة» لما يملكه قراء آخرون، بل مع جسم مادي له تاريخه وخصائصه وآثار استعماله، ولذلك كانت العلاقة بالمخطوط تجمع بين القراءة ومشاهدة أثر اليد التي أنتجته.

وقد بين شارتييه أن تاريخ الكتاب لا يمكن فصله عن الطرق التي نظمت بها المجتمعات النصوص والمكتبات والكتابة، وأن الانتقال من الكتب المخطوطة إلى المطبوعات غيّر أنظمة إنتاج النصوص وتصنيفها وتداولها، لا محتوياتها فقط [3]. كما تكشف الدراسات الجامعة في تاريخ القراءة في الغرب أن شكل الكتاب وتقنيات إنتاجه أثرا في ممارسات القراءة وفي الجمهور الذي يستطيع الوصول إليه .[2]

ويتيح المخطوط نوعًا خاصًا من القرب المادي، لأن الصفحة لا تكون مجرد سطح موحد، بل فضاءً قد يجمع المتن والهامش والتعليق والتصحيح والرموز وأثر قارئ سابق، وقد يتحول الكتاب بذلك إلى تاريخ متراكم للقراءات. فالهوامش ليست دائمًا إضافات خارجية، بل يمكن أن تكشف الطريقة التي دخل بها القراء السابقون إلى النص، وهو ما يجعل الجسم المادي للمخطوط شاهدًا على تاريخ التلقي. ومن هذه الناحية يمكن للمخطوط أن يبدو أقرب، على نحو مفارق، إلى بعض البيئات الرقمية الحديثة التي تسمح للحواشي والتعليقات بالتراكم حول النص، مع فارق جوهري يتمثل في أن الهامش المخطوط يبقى مرتبطًا بجسم مادي محدود، بينما يمكن للهامش الرقمي أن يصبح مشتركًا بين عدد هائل من القراء.

كما أن ندرة النسخ وارتفاع تكلفة إنتاجها كانا يفرضان شروطًا مختلفة للوصول إلى المعرفة، بحيث لا يكون الكتاب شيئًا متاحًا بسهولة لكل قارئ، وهو ما يجعل القراءة مرتبطة بالمؤسسة الدينية أو التعليمية أو البلاط أو المكتبة أو جماعة محدودة. ومن هنا لا يمكن فصل تاريخ القراءة عن تاريخ إتاحة النص، لأن ما يستطيع الفرد قراءته يتحدد بقدر ما هو موجود أمامه. وهذه العلاقة بين الإتاحة والاختيار ستتغير بصورة جذرية مع الطباعة، ثم تنقلب مرة أخرى في العصر الرقمي عندما تنتقل المشكلة من ندرة النصوص إلى فائضها.

وكان للمخطوط كذلك إيقاعه الخاص في القراءة، إذ إن التعامل مع نص غير موحد الطبعة أو التقسيم يتطلب درجة مختلفة من الألفة المادية

بالكتاب، كما أن عملية النسخ نفسها كانت قادرة على أن تصبح فعل قراءة عميق، لأن الناسخ لا يمر على النص كما يمر عليه جهاز الاستنساخ، بل يعيد إنتاجه حرفًا بعد حرف، وهو ما يجعل الحدود بين الكتابة والقراءة أقل صرامة مما ستصبح عليه في الصناعة الطباعية. ويهمنا هذا الأمر لأن البيئة الرقمية ستعيد ، بطريقة مختلفة، تقريب الحدود بين القارئ والكاتب؛ فالقارئ المعاصر يستطيع النسخ والتعليق والمشاركة وإعادة الصياغة والنشر بسرعة، وبذلك يعود التلقي إلى اكتساب بعد إنتاجي كان حاضرًا بأشكال أخرى في ثقافات المخطوط.

المبحث الثاني: الطباعة وصناعة القارئ الحديث

الكتاب المطبوع واستقرار النص

شكل اختراع الطباعة بالحروف المتحركة وتوسعها الأوروبي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر نقطة تحول كبرى في تاريخ الثقافة المكتوبة، ليس لأن النصوص لم تكن موجودة قبلها، بل لأن الطباعة غيرت شروط تكاثرها وانتشارها واستقرارها النسبي. وقد خصصت إليزابيث آيزنشتاين عملها الضخم *The Printing Press as an Agent of Change* لدراسة الآثار الواسعة للانتقال من النسخ اليدوي إلى الورشة الطباعية، وربطت هذا التحول بتغيرات في التعلم والبحث والتاريخ الفكري الأوروبي [4]. وتوضح Cambridge University Press أن كتابها يعالج الانتقال من المخطوط إلى الطباعة وآثاره في النهضة والإصلاح الديني وصعود العلم الحديث، كما يركز على الخصائص الجديدة التي أتاحتها الثقافة الطباعية..

كان أحد آثار الطباعة الأكثر أهمية هو إمكان إنتاج أعداد كبيرة نسبيًا من النسخ المتشابهة، وهو ما دعم استقرارًا أكبر للنص وأتاح إحالات أكثر انتظامًا بين القراء، لأن الأشخاص أصبحوا قادرين، بصورة متزايدة، على الحديث عن طبعة واحدة وترقيم صفحات وفصول يمكن تحديدها بدرجة أعلى من الدقة. ولم يصبح النص ثابتًا بصورة مطلقة، فقد استمرت الاختلافات بين الطبعات والأخطاء والتعديلات، لكن مفهوم «النسخة» نفسه تغير، وأصبح الكتاب المطبوع يرسخ توقعًا بوجود نص يمكن تكراره على نطاق واسع مع الحفاظ على بنية متقاربة.

وهذا الاستقرار له أثر عميق في القراءة، لأنه يسمح ببناء ذاكرة مكانية أكثر انتظامًا، حيث يرتبط المعنى بموقع داخل الصفحة والفصل والكتاب، ويصبح الاقتباس والمراجعة والتدريس أكثر قابلية للتوحيد. كما سمحت الطباعة بتوسع الفهارس والمراجع وأنظمة التصنيف، وساعدت على تحول الكتاب إلى وحدة أكثر انتظامًا داخل السوق والمكتبة والمؤسسة

التعليمية. وإذا كانت الثقافة المخطوطة تجعل كل نسخة ذات فردية مادية قوية، فإن الثقافة الطباعية تدفع في اتجاه توحيد الشكل وتثبيت المرجع.

وقد ربط مارشال ماكلوهان في *The Gutenberg Galaxy* صعود الطباعة بتحولات أوسع في الإدراك والثقافة والتنظيم الاجتماعي [5]، ورغم أن بعض تعميماته التاريخية تعرضت للنقد، فإن أهميته بالنسبة إلى بحثنا تكمن في الإصرار على أن التقنية التي تحمل الكلمة ليست مجرد خلفية محايدة، بل تدخل في إعادة تنظيم الحواس وعادات التلقي. ومن هنا يمكن فهم الكتاب المطبوع باعتباره أكثر من وسيلة لحفظ الكلام، لأنه رسخ شكلًا مخصوصًا من العلاقة بين القارئ والنص يقوم على الصفحة الخطية، والترتيب التسلسلي، والاستقرار المادي، والقدرة على امتلاك الكتاب والعودة إليه وفق بنية محددة.

ولا ينبغي أن يعني ذلك أن الطباعة فرضت قراءة خطية واحدة لا يستطيع القارئ تجاوزها، فالقراء كانوا دائمًا يقفزون بين الفصول ويستخدمون الفهارس والهوامش ويقرؤون أجزاء دون أخرى، لكن بنية الكتاب المطبوع تمنح الخطية قوة تنظيمية واضحة، إذ يفترض الكتاب، في الغالب، بداية ونهاية وترتيبًا معينًا للصفحات، ويظل حتى القارئ الذي يقفز بين المواضع واعيًا بوجود بنية كاملة يمكن العودة إليها. وهذا الاستقرار هو الذي سيتعرض لاحقًا لإعادة التشكيل داخل النص التشعبي، حيث يصبح الانتقال بين الوحدات جزءًا من بنية النص نفسها لا مجرد قرار خارجي يتخذه القارئ.

القراءة الفردية وصعود الثقافة الجماهيرية

أتاحت الطباعة على المدى الطويل توسعًا في جمهور القراء وزيادة أعداد الكتب وتنوع أنواعها، وأسهمت إلى جانب التعليم والتحضر وتطور السوق والمؤسسات الثقافية في انتشار ممارسات القراءة الفردية، غير أن العلاقة بين الطباعة وصعود القراءة الصامتة أو الخاصة لا ينبغي اختزالها في سبب واحد، لأن تاريخ القراءة يكشف تداخلًا بين التحولات المادية والاجتماعية

والدينية والتعليمية [2][3]. ومن المهم هنا تجنب الرواية المبسطة التي تجعل اختراع المطبعة لحظة واحدة انتقلت فيها البشرية فجأة من القراءة الجماعية إلى الفردية، لأن الأنماط المختلفة ظلت تتعايش زمنًا طويلًا، إلا أن الكتاب المطبوع ساعد بلا شك على خلق شروط أكثر ملاءمة لامتلاك النص وقراءته بعيدًا عن المجلس الجماعي .

ومع توسع السوق الطباعية لم يعد الجمهور يتكون فقط من جماعات محدودة متصلة بالمؤسسات الدينية أو العلمية، بل أخذ يتسع مع انتشار الصحف والروايات والكتيبات والمنشورات الشعبية، وأصبحت القراءة جزءًا من ثقافة جماهيرية تتداخل فيها التجارة والتعليم والترفيه والسياسة. وتحول الكتاب بالتدريج إلى سلعة ثقافية يمكن إنتاجها لجمهور غير معروف للكاتب شخصيًا، وهو ما أعاد تنظيم العلاقة بين المؤلف والناشر والقارئ، لأن النص صار يدخل سوقًا واسعة تقتضي التنبؤ برغبات الجمهور.

وتظهر هنا نواة مبكرة لمسألة ستصبح مركزية في الثقافة الخوارزمية؛ إذ إن صناعة النشر كانت منذ وقت بعيد تسعى إلى معرفة ما يريده القراء، غير أن معرفة الجمهور كانت تعتمد على المبيعات والتوزيع والنقد واستطلاعات السوق، بينما تستطيع المنصة الرقمية اليوم جمع بيانات فردية أكثر تفصيلًا وإعادة استخدامها في التوصية. وبذلك لا يبدأ الاهتمام بقياس القارئ مع الخوارزمية، لكن التقنية المعاصرة تغير درجة الدقة والسرعة والاستمرارية التي يجري بها هذا القياس.

كما رسخت القراءة الفردية تصورًا للكتاب بوصفه فضاءً داخليًا يمكن للقارئ أن ينفصل من خلاله مؤقتًا عن محيطه، وهو تصور ارتبط في الثقافة الحديثة بصورة القارئ الغارق في الرواية أو الباحث المنعزل في المكتبة. وقد كان لهذا الشكل من الانفراد أثر في جعل القراءة فعلًا يبدو مستقلًا عن الجماعة، مع أن القارئ ظل بالطبع متأثرًا باللغة والتعليم والمجتمع والمؤسسات. وسيصبح هذا التصور موضع مراجعة في البيئة الرقمية، لأن الجهاز الذي يعرض الكتاب هو نفسه في كثير من الأحيان الجهاز الذي

يعرض الرسائل والإشعارات والمراجعات والتعليقات، وبذلك يدخل المجال الاجتماعي من جديد إلى اللحظة التي بدت في العصر المطبوع أكثر خصوصية وانغلاقًا.

المبحث الثالث: الكتاب الإلكتروني

تغير حامل النص

مثل ظهور الكتاب الإلكتروني انتقالًا مهمًا في تاريخ الثقافة المكتوبة، لكنه لم يكن في بداياته ثورة كاملة في بنية النص، لأن كثيرًا من الكتب الرقمية حافظ على الخصائص الأساسية للكتاب المطبوع؛ فهناك عنوان وغلاف وفصول وفهرس وتسلسل، غير أن المادة التي تحمل هذه العناصر تغيرت من الورق إلى البيانات المعروضة على شاشة. ومن هنا يمكن النظر إلى الكتاب الإلكتروني بوصفه حالة واضحة لما يسميه جاي ديفيد بولتر «إعادة تشكيل» المطبوع داخل فضاء رقمي، حيث تستعيد الوسائط الجديدة أشكالًا سابقة ثم تضيف إليها إمكانات لم تكن متاحة في الحامل القديم [6]. ويبين بولتر في *Writing Space* أن الكتابة الإلكترونية والنص التشعبي يعيدان تشكيل أشكال الطباعة وأجناسها، وأن الحاسوب ينبغي فهمه كتقنية للقراءة والكتابة لا مجرد آلة معالجة .

فالقارئ الإلكتروني يستطيع، بحسب الجهاز والتطبيق، تغيير حجم الخط والتباعد والإضاءة، والبحث عن كلمة داخل الكتاب، وحفظ ملاحظات، وتظليل مقاطع، والوصول إلى قاموس أو رابط خارجي، وهو ما يجعل الصفحة لم تعد وحدة مادية ثابتة تمامًا، لأن تغيير حجم الخط يعيد توزيع الكلمات ويغير عدد «الصفحات» الظاهرة. وهنا تبدأ العلاقة المكانية بالنص في التحول، لأن القارئ لا يملك دائمًا الإحساس نفسه بموقع العبارة داخل جسم الكتاب، وقد يحل رقم الموقع أو شريط التقدم محل التذكر الحسي للصفحة.

ولا ينبغي المبالغة في جعل الورق والشاشة عالمين منفصلين، لأن القارئ ينقل إلى الكتاب الإلكتروني عادات تعلمها في الثقافة المطبوعة، مثل التقدم عبر الفصول ووضع العلامات والهوامش، بينما تعيد الواجهة تقديم هذه الوظائف في صورة رقمية. وهذا ما يجعل الانتقال أقرب إلى إعادة

الوساطة منه إلى القطيعة، حيث تستمر بنية الكتاب القديمة داخل وسيط جديد وتدخل معها في علاقة من المحافظة والتغيير.

غير أن اختلاف الحامل يبقى ذا أثر، لأن الكتاب الورقي جسم محدود يمكن رؤية سمكه والشعور بالمسافة التي قطعت منه، بينما يصبح الكتاب الإلكتروني محتوى يمكن تحميله إلى جهاز يحمل في الوقت نفسه مئات الكتب. ويتغير بذلك معنى الامتلاك والمساحة، لأن المكتبة لم تعد بالضرورة غرفة أو رفوفًا، بل يمكن أن تكون قائمة أو قاعدة بيانات، وهي نقلة ذات أثر في الذاكرة الثقافية نفسها؛ فالكتاب الذي كان يحتل مكانًا دائمًا أمام العين قد يتحول إلى اسم داخل واجهة لا يظهر إلا عند البحث عنه.

<u>تغير عادات القراءة</u>

أثارت المقارنة بين القراءة على الورق والقراءة على الشاشة عددًا كبيرًا من الدراسات، ولا تسمح نتائجها ببناء حكم ساذج يقول إن أحد الوسيطين أفضل في جميع الأحوال، لأن الفهم يتأثر بنوع النص والمهمة والجهاز والزمن وخبرة القارئ. ومع ذلك وجدت دراسة آن مانغن وبنتي فالغيرمو وكولبيورن برونيك على طلاب نرويجيين أن المجموعة التي قرأت نصوصًا خطية مطبوعة حققت نتائج أفضل في اختبار الفهم من المجموعة التي قرأت النصوص نفسها بصيغة PDF على شاشة حاسوب [7]. وأكد تحليل تلوي واسع أجراه بابلو ديلغادو وزملاؤه وجود أفضلية متوسطة للورق في ظروف معينة، مع تأثير عوامل مثل ضغط الوقت ونوع النص، وهو ما يقتضي فهم الفرق باعتباره مشروطًا لا حكمًا كليًا ضد القراءة الرقمية .[8]

وتكتسب هذه الدراسات أهميتها بالنسبة إلى مشروع القارئ الهجين من أنها تكشف أن تغير الحامل وحده يستطيع أن يؤثر في بعض أبعاد القراءة، وهو ما يجعل من الضروري الفصل بين أثر الشاشة وأثر الخوارزمية وأثر الذكاء الاصطناعي .فإذا كان القارئ يفهم نصًا بطريقة مختلفة لأنه يقرأه على شاشة، فهذه مسألة وسائطية، أما إذا تغير ما يقرأه بسبب توصية آلية فهذه مسألة خوارزمية، وإذا تغير تفسيره بعد حوار مع نظام توليدي فهذه مسألة

هجينة. ومن دون هذا التمييز يمكن أن نخلط بين أنواع مختلفة من التحول وننسبها كلها إلى «الرقمنة.«

وقد تغيرت عادات القراءة كذلك بسبب إمكان البحث الفوري، لأن القارئ لم يعد مضطرًا دائمًا إلى حفظ موقع المعلومة أو المرور بالفصول لكي يعثر عليها، بل يستطيع الوصول مباشرة إلى كلمة أو اسم. وهذه القدرة تعزز الكفاءة في بعض المهام، لكنها تستطيع أيضًا أن تشجع القراءة الانتقائية التي تتعامل مع الكتاب باعتباره قاعدة بيانات من الفقرات أكثر من كونه بنية متصلة ينبغي تتبعها من البداية إلى النهاية. ومن هنا يبدأ التوتر بين الكتاب بوصفه عملًا والكتاب بوصفه موردًا قابلًا للبحث.

كما غيرت القراءة الرقمية علاقة القارئ بالزمن، لأن الجهاز نفسه يستطيع حمل تطبيقات أخرى وإشعارات ووسائل اتصال، فيصبح فعل القراءة معرضًا لتداخل أنشطة متعددة. ولا تعني قابلية التشتيت أن القارئ سيتشتت دائمًا، لكنها تجعل الانقطاع إمكانًا مدمجًا في البيئة، بخلاف كتاب ورقي لا يستطيع بنفسه إرسال رسالة أو عرض إشعار. ومن هنا لا تعود مسألة الانتباه خاصية نفسية فردية فقط، بل تصبح مرتبطة بتصميم الوسيط وما يتيحه من انتقالات.

المبحث الرابع: النص التشعبي

تفكيك الخطية

إذا كان الكتاب الإلكتروني في صورته البسيطة ينقل الكتاب المطبوع إلى شاشة، فإن النص التشعبي يمثل تحولًا أعمق، لأنه لا يكتفي بتغيير الحامل بل يعيد تنظيم العلاقات بين وحدات النص. وقد كان جورج لاندو من أبرز من ربطوا بين النص التشعبي والنظرية الأدبية، ورأى في إمكانية الانتقال عبر الروابط تحولًا يعيد تشكيل مفاهيم مثل مركز النص وحدوده ودور القارئ [9]. وتوضح Johns Hopkins University Press أن أعمال لاندو في *Hypertext* جمعت مبكرًا بين النظرية الأدبية وتقنيات الحاسوب، واهتمت بما يمنحه النص التشعبي للقارئ من قدرة أكبر على التحكم في ما يقرأ وكيف يقرأ .

فالكتاب التقليدي يقدم، حتى مع حرية القفز، ترتيبًا ماديًا مسبقًا للصفحات، بينما يستطيع النص التشعبي أن يبني العمل نفسه بوصفه شبكة من العقد التي تتصل عبر روابط، بحيث يمكن أن تختلف الطريق التي يسلكها قارئ عن طريق قارئ آخر. وهنا لا تصبح الخطية مجرد ترتيب يمكن مخالفته، بل تصبح أحد المسارات الممكنة بين مسارات متعددة، وهو ما يغير معنى البداية والنهاية والترتيب.

ولا يعني تفكيك الخطية أن القراءة الرقمية خالية من كل تسلسل، لأن القارئ لا يستطيع قراءة جملتين في اللحظة نفسها، كما أن كثيرًا من المواقع والنصوص التشعبية تفرض هياكل واضحة، لكن الفرق يكمن في أن البنية تسمح بمسارات بديلة تصبح جزءًا مقصودًا من التصميم. ومن هنا يتحول القارئ من شخص يتتبع خطًا وضعه المؤلف إلى شخص يشارك، بدرجة أكبر، في تحديد مسار القراءة.

وهذا التحول يرتبط بقوة بمفهوم القارئ الهجين، لأن توزيع السلطة بين النص والقارئ بدأ يتغير قبل ظهور الذكاء الاصطناعي. فالنص التشعبي يمنح

القارئ حرية نسبية في الاختيار بين الروابط، لكن تلك الحرية تظل محكومة بما صممه الكاتب أو المبرمج؛ إنه يستطيع اختيار الطريق، لكنه لا يستطيع اختيار رابط غير موجود. ومن هنا يتضح أن التفاعل لا يعني غياب البنية، بل ظهور شكل جديد منها، وهو الأمر نفسه الذي سنراه لاحقًا في البيئة الخوارزمية، حيث تبدو الخيارات واسعة بينما تكون مرتبة ومصممة داخل نظام سابق.

<u>الرابط بوصفه مسارًا للقراءة</u>

الرابط التشعبي ليس مجرد أداة تقنية تنقل المستخدم من صفحة إلى أخرى، بل هو اقتراح دلالي؛ فعندما يربط الكاتب كلمة بمادة أخرى، فإنه يقول ضمنيًا إن هناك علاقة تستحق أن يتبعها القارئ، ولذلك يستطيع الرابط أن يعمل مثل هامش أو إحالة أو باب إلى سياق جديد ، لكنه يمتلك قوة أكبر لأنه يتيح الانتقال الفوري. ومن هنا تصبح هندسة الروابط شكلًا من أشكال تنظيم القراءة.

وقد أشار لاندو إلى أن النص التشعبي يمنح القارئ قدرة غير مسبوقة نسبيًا على الوصول السريع إلى شبكة من المصادر وتحديد بعض طرق حركته بينها .[9] غير أن هذه القدرة تحمل مفارقة، لأن كل رابط يوسع مجال المعرفة لكنه يهدد في الوقت نفسه استمرارية النص الأصلي؛ فالقارئ الذي ينتقل من رابط إلى رابط قد يجد نفسه بعد دقائق بعيدًا عن العمل الذي بدأه، وهو ما يجعل القراءة التشعبية تفاوضًا دائمًا بين الاستكشاف والاستمرار.

ومن هنا يمكن تعريف كفاية جديدة ظهرت مع البيئة الشبكية هي إدارة المسار القرائي، لأن القارئ لا يحتاج فقط إلى فهم الجملة، بل إلى تقرير ما إذا كان سيغادرها نحو رابط آخر، ومتى يعود ، وأي المسارات يهمه وأيها يمكن تجاهلها. وهذه الكفاية ستصبح أكثر تعقيدًا مع محركات البحث والذكاء الاصطناعي، لأن الروابط التي كانت ثابتة نسبيًا ستتحول إلى توصيات ديناميكية ومقترحات تتغير بحسب المستخدم.

كما يمثل الرابط انتقالًا من الهامش الثابت إلى السياق المفتوح. كان الهامش الورقي محدودًا بالمساحة التي يخصصها المؤلف أو المحقق، بينما يمكن للرابط أن يقود إلى كتاب كامل أو قاعدة بيانات أو فيديو أو أرشيف، وبذلك يصبح السياق المحتمل للنص شبه غير محدود. وهنا يتغير مفهوم «القراءة الكاملة»، لأن القارئ لا يستطيع أن يتبع كل الإحالات، ويصبح اختيار ما لا يقرأه جزءًا من الكفاءة بقدر اختيار ما يقرأه.

المبحث الخامس: القراءة متعددة الوسائط

النص والصورة والصوت

لم يعد النص الرقمي في كثير من البيئات يتكون من الكلمات وحدها، إذ أصبحت الصورة والصوت والتصميم والحركة عناصر قادرة على المشاركة في بناء الرسالة، وهو ما يجعل القراءة جزءًا من ممارسة أوسع لتفسير العلامات متعددة الوسائط. وقد أكد غونتر كريس في *Literacy in the New Media Age* أن الانتقال إلى الشاشة غير العلاقة بين الكتابة والصورة وأعاد تنظيم الأدوار التي تؤديها أنماط التواصل المختلفة، بحيث لا يمكن فهم محو الأمية المعاصر بالاعتماد على الكتابة وحدها [10]. ويعرض Routledge الكتاب باعتباره دراسة لتحول العلاقة بين الكتاب والشاشة ولصعود التعدد الوسائطي ضمن بيئات الاتصال الجديدة .

فعندما يقرأ المستخدم مادة رقمية قد يواجه عنوانًا مكتوبًا وصورة توضيحية ومقطعًا صوتيًا وخريطة تفاعلية في الصفحة نفسها، ولا تكون هذه العناصر بالضرورة إضافات تجميلية، بل قد يحمل كل واحد منها جزءًا من المعنى. ويحتاج القارئ، لذلك، إلى توزيع انتباهه بين أنماط مختلفة من العلامات، كما يحتاج إلى فهم العلاقات بينها، لأن الصورة قد تؤكد النص أو تناقضه أو تقدم معلومات لا يقولها، والصوت قد يضيف نبرة أو زمنًا، والتصميم قد يحدد ما ينبغي أن يظهر بوصفه أساسيًا وما يظل ثانويًا.

ومن هنا تتغير هوية القراءة نفسها، لأن فعل «القراءة» يبدأ في تجاوز فك الرموز الكتابية إلى تفسير بيئة مركبة من اللغة والصورة والصوت. ولا يعني ذلك اختفاء القراءة بالمعنى التقليدي، بل توسعها داخل ثقافة تصبح فيها الكفاءة النصية واحدة من كفاءات متعددة، وهو توسع سيزداد تعقيدًا مع الأدب الرقمي والأعمال التفاعلية التي لا يستطيع القارئ فهمها من خلال الكلمات وحدها.

كما أن الصوت يعود في البيئة الرقمية بصورة تكشف الطبيعة غير الخطية لتاريخ الوسائط؛ فالقراءة التي انتقلت طويلًا في المخيال الحديث من الجهر إلى الصمت تستعيد اليوم بعدًا سمعيًا عبر الكتب الصوتية ومحركات تحويل النص إلى كلام والمساعدات الصوتية. غير أن الصوت المعاصر مختلف عن القراءة الجماعية القديمة، لأنه غالبًا مسجل أو مولد تقنيًا ويمكن إيقافه وتسريعه وإعادته، وبذلك تلتقي خاصية السماع القديمة بقدرات التحكم الرقمية.

الفيديو والرسوم والتفاعل

يزداد التعدد الوسائطي وضوحًا عندما يدخل الفيديو والرسوم المتحركة والمحاكاة والتفاعل إلى المادة المقروءة، لأن المستخدم لم يعد يشاهد تمثيلًا ثابتًا فحسب، بل يمكن أن يغير زاوية العرض أو يضغط على عنصر أو يختار مسارًا فتتغير المادة التي تظهر أمامه. وقد أسهم ليف مانوفيتش في تأسيس دراسة الوسائط الجديدة بوصفها مجالًا يجمع تاريخ الصورة والسينما والحوسبة والواجهة، وركز على مفاهيم مثل قاعدة البيانات والواجهة الثقافية والأشكال الرقمية الجديدة [11]. وتقدم MIT Press كتابه

The Language of New Media بوصفه محاولة منهجية لبناء نظرية للوسائط الجديدة من خلال الجمع بين تاريخ الوسائط والثقافة البصرية وعلوم الحاسوب .

وتغير هذه العناصر علاقة القارئ بالزمن والبنية، لأن الفيديو يفرض زمنًا متتابعًا لكنه يتيح الإيقاف والتقديم والتأخير، بينما تسمح الرسوم التفاعلية بإنتاج معلومة تتغير بحسب فعل المستخدم. وهنا يصبح القارئ مشاركًا في تشغيل المادة، بحيث لا يكون معنى بعض الأجزاء موجودًا في صورة واحدة ثابتة، بل يظهر نتيجة للفعل الذي يقوم به المتلقي.

ومن هذه الناحية تنتقل القراءة من استهلاك تمثيل جاهز إلى تشغيل واجهة، وهي خطوة أساسية في الطريق إلى القارئ الهجين، لأن القدرة على تشغيل

النظام واتخاذ قرارات داخله تصبح جزءًا من الوصول إلى النص. وإذا كان الكتاب المطبوع يطلب من القارئ أساسًا أن يقلب الصفحات ويحدد أين يتوقف، فإن البيئة متعددة الوسائط قد تطلب منه الاختيار بين عناصر وتحريك مؤشرات وفتح نوافذ وتغيير مستويات المعلومات، وبذلك يصبح التفاعل جزءًا من البنية الدلالية.

غير أن التفاعل لا يعني تلقائيًا زيادة الفهم، لأن كثرة الوسائط قد تؤدي إلى تحميل الانتباه أكثر مما يحتمل، وقد يتحول العرض المتعدد إلى منافسة بين الصورة والنص والصوت بدل أن تكون العلاقة بينها تكاملية. ومن هنا يجب أن تظل نظرية القراءة حذرة من مساواة الثراء الوسائطي بالثراء المعرفي، لأن كثرة الإمكانات لا تنتج بالضرورة تجربة أعمق، كما أن البساطة المادية للصفحة قد تكون في بعض الحالات شرطًا للتركيز الطويل.

المبحث السادس: من الصفحة إلى البيئة الرقمية

تحول الكتاب إلى واجهة

يمثل الانتقال من الصفحة إلى الواجهة أكثر من تغير في الشكل، لأن الصفحة الورقية تقدم نفسها أساسًا بوصفها سطحًا يحمل النص، بينما الواجهة الرقمية تجمع بين العرض والأوامر والخيارات والإشارات إلى إمكانات أخرى. وقد أصبح مفهوم «الواجهة» مركزيًا في دراسات الوسائط الجديدة، لأن ما يراه المستخدم ليس البيانات في ذاتها، بل طريقة نظمها البرنامج وتقديمها له، وهو ما يجعل التصميم جزءًا من الوساطة [11]. ويؤكد مانوفيتش على أهمية الواجهة وقاعدة البيانات بوصفهما من الأشكال المركزية في الوسائط الجديدة .

وعندما يتحول الكتاب إلى واجهة، فإنه لا يعود مجرد نص ظاهر على شاشة، بل يدخل إلى منظومة يمكن أن تحتوي مكتبة وفهرسًا ومحرك بحث وقاموسًا وملاحظات وتوصيات وإعدادات وشريط تقدم، وقد تتيح الاتصال بالشبكة أو بخدمات أخرى. ومن ثم فإن القارئ لا يتعامل مع النص فقط، بل يتعلم كذلك منطق البرنامج الذي يعرضه، حتى لو لم يكن واعيًا بذلك بصورة كاملة.

ويترتب على هذا التحول تغير في السلطة داخل القراءة: فالكتاب الورقي يفرض على القارئ شكلًا ثابتًا نسبيًا لكنه لا يغير نفسه تبعًا له، بينما تستطيع الواجهة الرقمية التكيف مع المستخدم، وقد تصبح في البيئات الخوارزمية قادرة على ترتيب المواد بطريقة شخصية. وهنا ننتقل من واجهة تعرض النص بالطريقة نفسها لكل شخص إلى واجهة تستجيب لبيانات القارئ، وهي نقطة حاسمة لأنها تمهد للانتقال من القراءة الرقمية إلى التلقي الخوارزمي.

لقد أوضحت هايلز، في دعوتها إلى دراسات الوسائط المقارنة، أن التفكير الإنساني يحدث مع الوسائط ومن خلالها، وأن الانتقال من الثقافة المطبوعة

إلى الرقمية ينبغي ألا يعالج باعتباره تبديلًا سطحيًا للوعاء، بل بوصفه جزءًا من علاقة تطور متبادل بين البشر والتقنيات [12]. وتعرض

University of Chicago Press مشروعها باعتباره بحثًا في الطريقة التي نفكر بها «مع» الوسائط و«إلى جانبها»، وفي الحاجة إلى فهم الأعمال الرقمية في علاقتها بالتقاليد المطبوعة لا خارجها .

ومن هنا يصبح تحول الكتاب إلى واجهة تحولًا في المحيط الذي يحدث فيه التفكير القرائي .فالقارئ لا يقرأ الكلمات فقط، بل يتعلم أين توجد الأوامر وما الذي يستطيع البحث عنه وكيف يحفظ وما الذي يظهر إلى جوار النص، وقد تصبح هذه الممارسات مع الوقت مندمجة في عادات القراءة إلى حد يفقد المستخدم إحساسه بأنها إضافات تقنية، وهو ما يمهد نظريًا لما سيسميه هذا الكتاب لاحقًا القراءة ما بعد الخوارزمية، أي المرحلة التي تصبح فيها الوساطة جزءًا طبيعيًا وغير ملحوظ من الفعل القرائي.

القراءة بوصفها تنقلًا داخل شبكة

يبلغ التحول المادي والثقافي للقراءة مستوى أكثر جذرية عندما لا يعود القارئ يتنقل فقط بين صفحات كتاب، بل بين عقد شبكة تتصل عبر البحث والروابط والمنصات والتعليقات والمصادر الخارجية. فعملية القراءة المعاصرة قد تبدأ بنص ثم تنتقل إلى اسم، ومنه إلى موقع، ثم إلى دراسة أكاديمية، ثم إلى فيديو، ثم إلى نقاش اجتماعي، قبل العودة إلى الأصل، وهو ما يجعل مسار القراءة أقرب إلى رحلة معرفية قابلة للتفرع من كونه تقدمًا داخل جسم واحد.

ولا ينبغي فهم الشبكية بوصفها فوضى كاملة، لأن المسارات التي يسلكها القارئ منظمة دائمًا بدرجات مختلفة؛ ففي النص التشعبي يحدد الكاتب الروابط، وفي محرك البحث ترتب الخوارزمية النتائج، وفي المنصة تنظم التوصيات، وفي النظام التوليدي يصبح الانتقال نفسه حواريًا، بحيث لا يبحث المستخدم عن الرابط فقط، بل قد يطلب من النظام أن يلخص له ما كان

سيبحث عنه. وهنا يبدأ التحول من التنقل عبر الشبكة إلى الاستعانة بوسيط يعيد تركيب الشبكة في جواب.

ومن هذه الزاوية يمكن قراءة تاريخ التحول من الورق إلى الشاشة بوصفه انتقالًا تدريجيًا في وحدة القراءة. ففي المخطوط كانت الوحدة مرتبطة بجسم مادي فريد نسبيًا، وفي الكتاب المطبوع أصبحت النسخة جزءًا من نظام إنتاج واسع ومستقر، وفي الكتاب الإلكتروني انفصل النص بدرجة أكبر عن جسم واحد، وفي النص التشعبي أصبحت الوحدة موزعة بين عقد وروابط، وفي البيئة متعددة الوسائط دخلت أنظمة دلالية مختلفة إلى التجربة، وأخيرًا في الشبكة الخوارزمية أصبح القارئ يتحرك داخل فضاء ترتب مكوناته ديناميكيًا.

ويغير ذلك مفهوم السياق، لأن السياق في القراءة الورقية يمكن أن يكون ما يحيط بالنص داخل الكتاب أو ما يستدعيه القارئ من معرفته، بينما يستطيع القارئ الشبكي استدعاء سياقات خارجية بصورة فورية. وهذه القدرة هائلة من حيث توسيع المعرفة، لكنها تجعل الانضباط القرائي أكثر أهمية، لأن السياق المفتوح بلا حدود قد يتحول إلى فقدان للمركز. ومن هنا تظهر كفاية جديدة يمكن تسميتها **القدرة على العودة**، أي قدرة القارئ على الاستفادة من التفرعات دون أن يفقد النص الذي انطلق منه.

وتمثل هذه القدرة أحد الشروط السابقة لظهور القارئ الهجين، لأن القارئ الذي لا يستطيع إدارة شبكة الروابط والمصادر سيكون أكثر عرضة لأن تصبح الآلة هي التي تديرها نيابة عنه. فإذا كان محرك البحث قد تطلب من القارئ تقييم قائمة من المصادر، فإن النظام التوليدي يستطيع أن يختزل القائمة في جواب واحد، وبذلك يصبح تاريخ القراءة الشبكية خلفية ضرورية لفهم التحول الذي سيحدث مع الذكاء الاصطناعي؛ إذ إن الآلة التوليدية لا تلغي الشبكة، بل تقف بين القارئ وبينها وتقدم له تمثيلًا منتقى منها.

ومن هنا يتضح أن الانتقال من الصفحة إلى البيئة الرقمية ليس مجرد تطور في وسائل العرض، بل انتقال من نص يملك حدوداً مادية واضحة إلى بيئة قرائية تضم النص ووسائل التنقل والبحث والتعليق والربط والاقتراح. وفي هذه البيئة يبدأ القارئ في اكتساب هوية مختلفة، لأنه لا يتعامل فقط مع المعنى الموجود في العمل، بل مع مجموعة من الأدوات التي تساعده على تحديد طريقه إليه.

خاتمة الفصل

يكشف المسار التاريخي الذي تتبعناه أن القراءة لم تكن فعلًا ثابتًا انتقل من وسيط إلى آخر دون أن يتغير، بل ظلت تعيد تشكيل نفسها مع تحولات المادة والتقنية والثقافة. فالقراءة الشفوية ربطت المعرفة بالصوت والحضور والذاكرة الجماعية، وأتاح المخطوط للنص أن يصبح جسمًا ماديًا يمكن الرجوع إليه مع بقاء النسخة مرتبطة بخصوصية إنتاجها، ثم وسعت الطباعة إمكان التكرار والاستقرار والانتشار وأسهمت في تكوين القارئ الحديث وفي تحول الكتاب إلى وحدة ثقافية قابلة للتداول على نطاق واسع، قبل أن يأتي الكتاب الإلكتروني فيفصل المحتوى بدرجة أكبر عن جسم مادي واحد ويضيف إلى القراءة وظائف البحث والتخصيص والتخزين الرقمي. ثم أعاد النص التشعبي تنظيم المسار عبر الروابط، ووسعت الوسائط المتعددة مفهوم القراءة بحيث أصبح النص يتجاور مع الصورة والصوت والحركة والتفاعل، إلى أن تحولت الصفحة نفسها داخل الثقافة الرقمية إلى واجهة تعمل داخل شبكة.

ولا ينبغي فهم هذه المراحل بمنطق التعاقب الذي يلغي فيه الجديد القديم، لأن القراءة المعاصرة تحمل آثار جميع هذه الأشكال في الوقت نفسه؛ فنحن ما زلنا نقرأ بصوت مرتفع ونستمع إلى الكتب، وما زال الكتاب المطبوع حاضرًا إلى جوار الملف الرقمي، وما تزال الصفحة الخطية قائمة داخل الشبكة، بينما تعمل التطبيقات والمنصات على إعادة دمج هذه الأشكال داخل فضاء واحد. ولذلك فإن التاريخ الأنسب لفعل القراءة هو تاريخ التراكم الوسائطي أكثر منه تاريخ الإحلال، وهو ما يجعل مفهوم الهجنة امتدادًا منطقيًا لهذا المسار، لأن القارئ الهجين نفسه يجمع بين ممارسات وأدوات تنتمي إلى طبقات مختلفة من تاريخ القراءة.

ويكشف هذا التاريخ كذلك أن كل توسع في إمكانات القارئ حمل معه شكلًا جديدًا من التوتر. فالكتابة دعمت الذاكرة الخارجية لكنها غيرت مكانة الحفظ الشفوي، والطباعة وسعت الانتشار لكنها رسخت أشكالًا من

التوحيد، والكتاب الإلكتروني سهل البحث لكنه أضعف بعض الإشارات المكانية المادية، والنص التشعبي وسع الاستكشاف لكنه جعل التشتت احتمالًا دائمًا، والوسائط المتعددة أثرت التعبير لكنها زادت المنافسة على الانتباه. ومن ثم فإن الانتقال إلى الذكاء الاصطناعي لن يكون استثناءً، لأنه بدوره سيقدم إمكانات معرفية جديدة مقابل مخاطر جديدة، وستصبح المهمة النقدية هي تحديد الحد الفاصل بين الأداة التي توسع القراءة والأداة التي تبدأ في القيام بها بدلًا من القارئ.

وتتضح هنا الصلة المباشرة بين هذا الفصل والمشروع العام للكتاب، لأن الانتقال من الورق إلى الشاشة أعد الشروط اللازمة للانتقال من القارئ الذي يقرأ داخل كتاب إلى القارئ الذي يقرأ داخل بيئة .والبيئة الرقمية لا تعرض النص فقط، بل تمنحه سياقًا وطرقًا للتنقل والبحث والتفاعل، وعندما تدخل الخوارزمية إلى هذه البيئة فإنها تبدأ في ترتيب ما يظهر داخلها، وعندما يدخل الذكاء الاصطناعي التوليدي فإنه يصبح قادرًا على الكلام عن النص نفسه. وهكذا يمكن تمثيل التحول التاريخي العميق في مسار يبدأ من الكتاب بوصفه جسمًا، ثم الصفحة بوصفها وحدة، ثم الشاشة بوصفها حاملًا، ثم الواجهة بوصفها منظومة، وأخيرًا الشبكة بوصفها فضاءً للتلقي.

وبهذه النقلة يصبح السؤال الذي سيقود الفصول اللاحقة أكثر دقة: إذا كانت المادة التي نقرأ عبرها قد غيرت بالفعل عادات القراءة وإيقاعها ومساراتها، فماذا يحدث عندما يصبح الوسيط نفسه قادرًا على اقتراح ما نقرأ، واسترجاع ما نسينا، وشرح ما لم نفهم، وتوليد احتمالات لما يمكن أن يعنيه النص؟ عند هذه النقطة ينتهي تاريخ الانتقال من الورق إلى الشاشة بوصفه تحولًا في الحامل، ويبدأ تاريخ آخر يتعلق بتحول القارئ ذاته، وهو التاريخ الذي سيقودنا من القراءة الرقمية والشبكية إلى تأسيس مفهوم القارئ الهجين.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Ong, Walter J.** *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word*. London/New York: Methuen؛ **ثم** Routledge، 1982 **وما تلاها من طبعات.**

يمثل الكتاب أحد المراجع الأساسية في دراسة الانتقال من الثقافات الشفوية إلى الكتابية، وعلاقة الصوت والذاكرة والتكرار ببناء المعرفة في البيئات الشفوية.

[2] **Cavallo, Guglielmo & Chartier, Roger (eds.).** *A History of Reading in the West*. Cambridge: Polity Press, 1999.

مرجع جامع في تاريخ الممارسات القرائية منذ العالم القديم إلى العصر الحديث، مع اهتمام بالعلاقة بين التحولات التقنية في الكتاب وتغير القراء وأنماط القراءة. وتصف البيانات البيبليوغرافية العمل بأنه دراسة واسعة لتغير ممارسات القراءة والأشكال المادية للنصوص والجمهور عبر التاريخ (Google Books) .

[3] **Chartier, Roger.** *The Order of Books: Readers, Authors, and Libraries in Europe Between the Fourteenth and Eighteenth Centuries*. Translated by Lydia G. Cochrane. Stanford: Stanford University Press, 1994.

يفيد في تحليل العلاقة بين النصوص والقراء والمكتبات وأنظمة تنظيم الكتاب، وفي تأكيد أن تحولات الشكل المادي والثقافي للكتاب تؤثر في العلاقة بين القارئ والنص. وتؤكد Stanford University Press **صدور الترجمة الإنجليزية سنة** 1994 **وتركيزها على أنظمة تنظيم الكتابة والتحولات التي غيرت علاقة القارئ بالنص**(Sup) .

[4] **Eisenstein, Elizabeth L.** *The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early-Modern Europe*. Cambridge: Cambridge University Press, 1980.

من المراجع المؤسسة لدراسة آثار الانتقال من النسخ المخطوط إلى الطباعة في الثقافة الأوروبية، ولا سيما في المعرفة والعلم والدين وتداول النصوص.

وتصف Cambridge University Press الكتاب بأنه دراسة تاريخية واسعة لظهور الطباعة وأهميتها بوصفها عاملًا في التحول(Cambridge) .

[5] **McLuhan, Marshall.** *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man*. Toronto: University of Toronto Press, 1962.
مرجع كلاسيكي في دراسة العلاقة بين الطباعة والتحولات الإدراكية والثقافية والاجتماعية، ويستفاد منه في هذا الفصل مع مراعاة النقاشات النقدية التي أحاطت بحتميته الوسائطية.

[6] **Bolter, Jay David.** *Writing Space: Computers, Hypertext, and the Remediation of Print*. 2nd ed. Mahwah/London: Lawrence Erlbaum Associates, 2001.
يستخدم لفهم العلاقة بين الكتابة المطبوعة والفضاء الإلكتروني والنص التشعبي، ولتحليل إعادة تشكيل أشكال الطباعة داخل الوسائط الرقمية. وتوضح Routledge أن الكتاب يدرس الحاسوب بوصفه تقنية للقراءة والكتابة وكيف تعيد الكتابة الإلكترونية والنص التشعبي تشكيل أجناس الطباعة(Routledge) .

[7] **Mangen, Anne; Walgermo, Bente R. & Brønnick, Kolbjørn.** "Reading Linear Texts on Paper versus Computer Screen: Effects on Reading Comprehension." *International Journal of Educational Research*, Vol. 58, 2013, pp. 61–68. DOI: 10.1016/j.ijer.2012.12.002.
دراسة تجريبية قارنت فهم نصوص خطية مطبوعة ومقروءة بصيغة PDF على الشاشة لدى طلاب نرويجيين، ووجدت في شروط الدراسة أداءً أفضل للمجموعة التي قرأت على الورق(ScienceDirect) .

[8] **Delgado, Pablo; Vargas, Cristina; Ackerman, Rakefet & Salmerón, Ladislao.** "Don't Throw Away Your Printed Books: A Meta-Analysis on the Effects of Reading Media on Reading Comprehension." *Educational Research Review*, Vol. 25, 2018, pp. 23–38. DOI: 10.1016/j.edurev.2018.09.003.
تحليل تلوي واسع لأبحاث المقارنة بين القراءة الورقية والرقمية، أظهر

أفضلية للورق في بعض ظروف الفهم، مع تأثير عوامل وسيطة مثل نوع النص وضغط الوقت(ScienceDirect) .

[9] Landow, George P. *Hypertext 3.0: Critical Theory and New Media in an Era of Globalization*. 3rd ed. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006.
مرجع أساسي في دراسات النص التشعبي وعلاقته بالنظرية الأدبية، ويبحث في الروابط وإعادة تشكيل مفاهيم النص والمؤلف والقارئ وإمكانات التحكم في مسارات القراءة. وتصف Johns Hopkins University Press **الكتاب بأنه من الأعمال الرائدة التي جمعت بين النظرية الأدبية وتقنيات النص التشعبي**(Hopkins Press) .

[10] Kress, Gunther. *Literacy in the New Media Age*. London/New York: Routledge, 2003.
يُستفاد منه في تحليل انتقال الثقافة من هيمنة الكتاب والكتابة إلى بيئة شاشة متعددة الوسائط، وفي دراسة العلاقة بين النص والصورة والأنماط السيميائية المختلفة. وتوضح Routledge **أن العمل يعالج أثر صعود الشاشة والتعدد الوسائطي في مستقبل محو الأمية والاتصال**(Routledge) .

[11] Manovich, Lev. *The Language of New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 2001.
من المراجع الأساسية في بناء نظرية للوسائط الجديدة، ولا سيما في تحليل الواجهة وقاعدة البيانات والعلاقة بين الثقافة البصرية والحوسبة والأشكال الرقمية. وتقدم MIT Press **الكتاب باعتباره محاولة منهجية لوضع الوسائط الجديدة داخل تاريخ الثقافة البصرية والإعلامية وتحليل أشكال مثل الواجهة وقاعدة البيانات**(MIT Press) .

[12] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.
مرجع رئيسي في فهم العلاقة المتبادلة بين البشر والتقنيات الرقمية، وفي الدعوة إلى دراسات وسائطية مقارنة تنظر إلى الثقافة الرقمية والمطبوعة

ضمن تاريخ مشترك، كما يفيد في ربط الوسيط بالممارسة المعرفية والقرائية(University of Chicago Press) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في مسار يوازي تاريخ التحولات التي ناقشها؛ إذ يتيح أونغ وكافالو وشارتييه [1–3] فهم الانتقال من الشفوية والمخطوط إلى أشكال القراءة المرتبطة بالكتاب، وتوضح آيزنشتاين وماكلوهان [4–5] الأبعاد الثقافية والإدراكية للثورة الطباعية، بينما يسمح بولتر ومانغن وديلغادو وزملاؤهما [6–8] بتحليل الانتقال من الورق إلى الكتاب الإلكتروني وبعض آثاره في الممارسة والفهم، ويقدم لاندو [9] الأساس النظري لفهم النص التشعبي وتفكيك الخطية، في حين يتيح كريس ومانوفيتش وهايلز [10–12] الانتقال من الكتاب الرقمي إلى التعدد الوسائطي والواجهة والبيئة الرقمية التي يعمل داخلها القارئ المعاصر.

ومن تقاطع هذه المراجع تتأكد الفكرة التي يقوم عليها الفصل كله، وهي أن تاريخ القراءة ليس تاريخًا للنصوص وحدها، بل هو كذلك تاريخ للأجسام والصفحات والواجهات والمسارات التي تمنح النص شكله الممكن أمام القارئ، وأن الانتقال من الورق إلى الشاشة لم يكن نهاية التحول، بل كان الشرط التاريخي الذي جعل الانتقال اللاحق من الشاشة إلى الخوارزمية، ومن القارئ الرقمي إلى القارئ الهجين، ممكنًا من الناحية الثقافية والمعرفية.

الفصل الثالث

القراءة العميقة وأزمة الانتباه

تمثل القراءة العميقة واحدة من أكثر الممارسات المعرفية التي تكشف الطبيعة المركبة لفعل القراءة، لأنها لا تقتصر على التعرف إلى الكلمات أو استخراج المعلومات المباشرة، بل تستدعي مجموعة مترابطة من العمليات تشمل الانتباه والذاكرة والاستدلال والمقارنة وربط الجديد بالمعرفة السابقة وتكوين الفرضيات ومراجعتها وبناء موقف تأويلي يمكن الدفاع عنه، ولذلك فإن السؤال عن مستقبل القراءة في البيئة الرقمية والخوارزمية لا ينبغي أن يُختزل في المقارنة بين الورق والشاشة، وإنما يجب أن يمتد إلى الشروط المعرفية التي تسمح للقارئ بأن يقيم داخل النص زمنًا كافيًا حتى تنتقل الكلمات من مجرد إشارات متتابعة إلى بنية من العلاقات والمعاني. وإذا كان الفصل السابق قد أظهر أن الانتقال من الورق إلى الشاشة أعاد تشكيل الحامل والمسار والواجهة، فإن هذا الفصل ينتقل إلى المستوى الداخلي للعملية القرائية لبحث ما يحدث للانتباه والذاكرة والفهم عندما تصبح القراءة جزءًا من بيئة تتسم بالسرعة والتعدد والإشعارات والروابط والانتقال المستمر بين المهام، ثم لما قد يحدث لاحقًا عندما يدخل الذكاء الاصطناعي إلى هذه البيئة ويوفر للقارئ إمكان الحصول الفوري على التلخيص والشرح والاسترجاع.

ولا ينطلق هذا البحث من فرضية حنينية ترى أن القراءة العميقة خاصية طبيعية للكتاب الورقي وأن الوسائط الرقمية تقضي عليها بصورة حتمية، لأن القراءة العميقة نفسها مهارة مكتسبة تاريخيًا وثقافيًا وتحتاج إلى تدريب، كما أن الشاشة لا تمنع الإنسان من التركيز إذا توفرت شروطه، والكتاب المطبوع لا يضمن الفهم بمجرد حمله. وإنما تكمن المسألة في أن البيئات المختلفة تقدم درجات مختلفة من الاحتكاك المعرفي، وتخلق إمكانات مختلفة للانتقال والانقطاع والاسترجاع، ولذلك يصبح الانتباه نتيجة لعلاقة بين القارئ والمهمة والنص والوسيط والسياق، لا خاصية ثابتة

في الإنسان أو الجهاز. ومن هنا لا يسأل الفصل إن كانت القراءة الرقمية سطحية في ذاتها، بل يبحث في الشروط التي تجعل بعض ممارساتها أكثر ميلًا إلى المسح السريع والتجزئة، وفي الكيفية التي يمكن من خلالها حماية القراءة العميقة داخل بيئة أصبحت السرعة فيها قيمة ثقافية واقتصادية.

المبحث الأول: القراءة بوصفها عملية معرفية

الإدراك والفهم

لا يولد الإنسان وهو يمتلك جهازًا عصبيًا مخصصًا للقراءة بالطريقة التي يولد بها مزودًا باستعدادات للغة الشفوية، بل تتكون القراءة من خلال تعلم يعيد تنظيم شبكات عصبية كانت تؤدي وظائف أخرى، وهو ما جعل ستانيسلاس ديهان يصفها بوصفها مثالًا على قدرة الدماغ على «إعادة تدوير» بنياته لخدمة اختراع ثقافي حديث نسبيًا مثل الكتابة [1]. وتكتسب هذه الفكرة أهمية خاصة لأنها تنزع عن القراءة صفة البداهة؛ فالتعرف السريع إلى الكلمات، وربط الحروف بالأصوات والمعاني، وتجاوز مستوى فك الشفرة إلى بناء الفهم، كلها نتائج لتدريب طويل يجعل العمليات الأولية أكثر آلية حتى تتاح موارد معرفية أعلى للاستدلال والتأويل.

وعندما يصبح التعرف إلى الكلمات أكثر سرعة، لا تنتهي القراءة عند هذا المستوى، بل تبدأ مرحلة أكثر تعقيدًا تتطلب بناء تمثيل لما يقوله النص وما يفترضه وما يربطه القارئ بمعرفته السابقة. وقد قدم والتر كينتش في نموذج «البناء ـ التكامل» تصورًا مؤثرًا للفهم يرى أن القارئ يبني أثناء القراءة شبكة أولية من المعاني والاستدلالات ثم يعمل على دمج العناصر المتوافقة داخل تمثيل أكثر استقرارًا للنص والموقف الذي يتحدث عنه [2]. ومن هنا فإن الفهم لا يساوي الاحتفاظ بجمل منفردة، بل يقوم على تحويل السلسلة اللغوية إلى بنية مترابطة تتجاوز الكلمات الظاهرة، لأن القارئ يحتاج باستمرار إلى استنتاج العلاقات السببية والزمنية والمنطقية وإلى استحضار معلومات غير مذكورة صراحة عندما تكون ضرورية لربط أجزاء الخطاب.

ولهذا يمكن أن يقرأ شخصان الكلمات نفسها ويختلف مستوى فهمهما اختلافًا كبيرًا، لأن الفرق لا يكون في فك الحروف وحده، بل في مقدار المعرفة السابقة التي يستطيع كل واحد استحضارها، وفي جودة الاستدلال الذي يبنيه، وفي القدرة على الاحتفاظ بالعناصر المهمة أثناء تقدم النص. وتصبح

المعرفة السابقة في هذا السياق عنصرًا حاسمًا، لأن المعلومة الجديدة لا تدخل إلى فراغ وإنما تتصل بشبكات موجودة في الذاكرة طويلة المدى، وكلما كانت هذه الشبكات أكثر تنظيمًا كان من الأسهل على القارئ أن يضع المعلومة الجديدة داخل سياق وأن يميز المركزي من الهامشي.

وتكشف هذه الطبيعة المركبة للقراءة أن السرعة ليست قيمة واحدة في جميع المستويات؛ فالسرعة في التعرف إلى الكلمات مفيدة لأنها تحرر الموارد، أما السرعة في الحكم على الحجة أو في الانتقال بين الدلالات فقد تصبح عائقًا إذا منعت القارئ من بناء العلاقات الضرورية. ومن هنا ينبغي التمييز بين **الطلاقة** التي تعني أتمتة بعض العمليات الأساسية، **والعجلة** التي تختصر العمليات العليا قبل اكتمالها، لأن القارئ الخبير قد يكون سريعًا في التعرف إلى الكلمات لكنه بطيئًا عمدًا أمام فقرة تحتاج إلى إعادة القراءة أو أمام استعارة تستدعي التأمل.

وهذه النقطة أساسية بالنسبة إلى مفهوم القارئ الهجين، لأن الأدوات الرقمية والذكاء الاصطناعي تستطيع تسريع عدد كبير من الوظائف المحيطة بالقراءة، لكنها لا تستطيع أن تجعل الاستيعاب الإنساني نفسه يحدث بالسرعة ذاتها. يمكن للنظام أن يعثر على السياق خلال ثانية، وأن ينتج تلخيصًا خلال لحظات، لكن القارئ يحتاج إلى زمن لدمج هذه المادة في معرفته، ولذلك قد تنشأ فجوة بين سرعة إنتاج المعلومات وسرعة تكوّن الفهم .وكلما اتسعت هذه الفجوة أصبح من السهل أن يخلط المستخدم بين امتلاك جواب وبين امتلاك معرفة.

بناء المعنى

لا يحدث بناء المعنى في النص وحده ولا في ذهن القارئ وحده، بل يتشكل في العلاقة بين ما يقدمه العمل وما يحمله المتلقي من معرفة وتوقعات واستراتيجيات، وهو ما يجعل القراءة عملية تراكمية يعاد فيها تفسير الوحدات السابقة في ضوء ما يأتي بعدها. فإذا بدأ القارئ رواية وهو يعتقد أن شخصية معينة صادقة، ثم ظهرت لاحقًا إشارات تكشف تناقضها، فإنه لا

يضيف المعلومة الجديدة فحسب، بل يعيد بناء قراءته للمشاهد السابقة، وبذلك يكون المعنى نتيجة حركة مستمرة بين الذاكرة الحالية للنص وما يضيفه التقدم داخله.

وتستند هذه العملية إلى ما يمكن تسميته النموذج الذهني الذي يبنيه القارئ، أي التمثيل الداخلي للأحداث والأفكار والعلاقات بدل الاحتفاظ بالجمل حرفيًا. وقد بينت دراسات الفهم أن القراء لا يتذكرون عادة كل الصياغات اللفظية التي واجهوها، لكنهم يحتفظون بتمثيل لمعنى النص وبنيته، وهو ما يسمح لهم بالإجابة عن أسئلة لم ترد بصيغتها نفسها في المادة الأصلية [2]. ومن هنا فإن القراءة العميقة لا تعني حفظ الكلمات، بل القدرة على بناء نموذج متماسك يسمح بالتفسير والاستنتاج والنقد.

ويكتسب الزمن هنا قيمة معرفية، لأن بعض العلاقات لا تظهر في القراءة الأولى، وقد يحتاج القارئ إلى التوقف والعودة والتردد قبل أن يستقر على تفسير. ولذلك لا تكون الصعوبة دائمًا عائقًا، بل قد تكون جزءًا من الفعل الذي يجعل القراءة منتجة؛ فالنص الذي يقاوم الفهم الفوري يجبر المتلقي على إعادة تنظيم معرفته، وقد يكون هذا الاحتكاك المعرفي ضروريًا لتكوين معنى أكثر عمقًا. ويصبح الخطر حين تتوفر أداة تستطيع إزالة كل مقاومة فورًا، لأن القارئ قد يميل إلى التعامل مع الغموض باعتباره خللًا ينبغي إصلاحه بدل اعتباره أحيانًا جزءًا من استراتيجية النص.

ومن هنا ينبغي أن يميز القارئ الهجين بين حالتين مختلفتين: حالة تكون فيها المساعدة التقنية ضرورية لتجاوز عائق خارجي، مثل كلمة مجهولة أو مرجع تاريخي لا يمكن فهم المقطع بدونه، وحالة يكون فيها الصعوبة جزءًا من العمل التأويلي نفسه، بحيث تكون محاولة حلها ذاتيًا جزءًا من بناء المعنى. وفي الحالة الثانية قد يؤدي الجواب الفوري إلى اختصار المسار المعرفي الذي كان ينبغي للقارئ أن يقطعه، ولذلك تصبح القدرة على تحديد متى لا ينبغي سؤال الآلة كفاية لا تقل أهمية عن معرفة كيفية استخدامها.

المبحث الثاني: الذاكرة والقراءة

الذاكرة العاملة

تؤدي الذاكرة العاملة دورًا محوريًا في القراءة لأنها المساحة المحدودة التي يحتفظ فيها القارئ مؤقتًا بالعناصر التي يحتاج إليها لربط ما يقرأه الآن بما قرأه قبل لحظات. وقد طور آلان بادلي وغراهام هيتش نموذجًا مؤثرًا للذاكرة العاملة، ثم واصل بادلي تطويره من خلال التمييز بين مكونات تؤدي وظائف مختلفة في حفظ المعلومات ومعالجتها، وهو ما جعل الذاكرة العاملة مفهومًا مركزيًا في علم النفس المعرفي [3]. ولا يهم هذا البحث الدخول في كل التفاصيل التجريبية للنموذج بقدر ما يهمه إدراك حقيقة أساسية هي أن قدرة الإنسان على الاحتفاظ بعناصر متعددة في الوعي في اللحظة نفسها محدودة، وأن الفهم يتأثر عندما تتجاوز المهمة هذه الحدود.

فعندما يقرأ الشخص جملة طويلة أو حجة مركبة، يحتاج إلى الاحتفاظ ببداياتها وهو يصل إلى نهايتها، وعندما ينتقل من فقرة إلى أخرى يحتاج إلى حفظ بعض الأفكار السابقة حتى يستطيع فهم العلاقة الجديدة. وإذا تعرض في أثناء ذلك لإشعار أو رسالة أو انتقال إلى تطبيق آخر، فإن جزءًا من الموارد التي كانت مخصصة للنص يعاد توجيهه إلى مهمة أخرى، وقد يضطر القارئ بعد العودة إلى إعادة بناء السياق الذي فقده. ولهذا فإن تكلفة الانقطاع لا تقتصر على الثواني التي استغرقها النظر إلى الهاتف، بل تشمل كذلك عملية إعادة الدخول المعرفي إلى المهمة السابقة.

وقد أظهرت أبحاث نيلسون كوان أن سعة التركيز الواعي في الذاكرة العاملة محدودة بدرجة كبيرة، وهو ما دفعه إلى مراجعة التصورات القديمة التي كانت تتحدث عن سبعة عناصر تقريبًا، واقتراح أن مركز الانتباه يستطيع الاحتفاظ بعدد أقل من الوحدات المستقلة في كثير من الظروف [4]. وهذه المحدودية تجعل تعدد المهام، عندما تتطلب المهام المتزامنة معالجة معرفية حقيقية، أقرب في كثير من الأحيان إلى انتقال سريع بين المهام منه إلى تنفيذها جميعًا في الوقت نفسه.

ومن هنا يظهر أن الانتباه ليس موردًا غير محدود يمكن تقسيمه بلا تكلفة، وأن القراءة تحتاج إلى حماية قدر من الذاكرة العاملة من المنافسة المستمرة. فالقارئ الذي يحاول فهم حجة فلسفية بينما يتابع في الوقت نفسه سلسلة إشعارات لا يواجه مجرد «إزعاج»، بل يضع نظامه المعرفي أمام عمليات متكررة من التفريغ وإعادة التحميل، وهو ما يزيد احتمال فقدان الروابط البعيدة التي تحتاج إليها القراءة العميقة.

الذاكرة طويلة المدى

إذا كانت الذاكرة العاملة تمثل مساحة التشغيل المؤقتة، فإن الذاكرة طويلة المدى تمنح القراءة عمقها التاريخي، لأن القارئ يفهم الجديد من خلال ما سبق أن تعلمه وخزنه، كما أن القراءة الجديدة تستطيع بدورها تعديل هذه المخزونات وبناء شبكات أكثر تعقيدًا. ومن هنا لا تقاس قيمة القراءة العميقة بما يتذكره القارئ بعد دقائق فقط، بل بما يستطيع دمجه داخل بنيته المعرفية بحيث يصبح مادة لفهم نصوص وتجارب لاحقة.

ويحدث الانتقال إلى الذاكرة طويلة المدى من خلال عمليات لا تختزل في مجرد التعرض للمعلومة، لأن التكرار المنظم والاسترجاع والربط بالمعرفة السابقة والتفكير النشط كلها عوامل تساعد على تثبيت التعلم. ويكتسب الاسترجاع هنا قيمة خاصة، لأن محاولة تذكر فكرة من دون الرجوع الفوري إلى المصدر تختلف معرفيًا عن إعادة قراءتها فقط، وتدعم أبحاث التعلم ما يسمى «أثر الاختبار» أو الاسترجاع بوصفه عملية تعزز الاحتفاظ بالمعلومات مقارنة بإعادة الدراسة وحدها.[5]

ومن هنا يطرح الاعتماد المستمر على الذاكرة الرقمية سؤالًا دقيقًا؛ فمن المفيد أن يستطيع القارئ تخزين آلاف الملاحظات واستعادتها، لكن سهولة الاسترجاع الخارجي قد تقلل الدافع إلى بعض أشكال الاسترجاع الداخلي إذا لم يستخدمها بوعي. وقد بينت دراسات عن أثر محركات البحث في الذاكرة أن الأفراد عندما يتوقعون إمكان الوصول اللاحق إلى المعلومة قد يتذكرون بدرجة أفضل مكان العثور عليها بدل تذكر تفاصيلها نفسها [6]. ولا يعني

ذلك أن الإنترنت «يدمر الذاكرة»، بل أنه يعيد توزيع ما نتذكره بين المحتوى ومسار الوصول إليه.

وهذا التحول شديد الصلة بالقارئ الهجين، لأن الذاكرة الخارجية يمكن أن تكون امتدادًا فعالًا للقراءة إذا ظلت مرتبطة بعمليات داخلية من الفهم والاسترجاع، لكنها قد تتحول إلى بديل إذا أصبح القارئ عاجزًا عن بناء أي معرفة مستقرة خارج لحظة البحث. ومن هنا يصبح المطلوب ليس رفض الذاكرة الخارجية، بل إدارة التكامل بين الذاكرة الداخلية والخارجية، بحيث يستخدم القارئ الأدوات في حفظ التفاصيل التي لا تحتاج إلى احتلال الذاكرة باستمرار، بينما يبني داخليًا الشبكات المفاهيمية التي تسمح له بتقييم ما يسترجعه.

ويظهر الخطر بصورة أوضح مع الذكاء الاصطناعي التوليدي، لأن النظام لا يسترجع المعلومة فحسب بل يستطيع أن يعيد صياغتها، وهو ما قد يجعل القارئ أقل وعيًا بالفرق بين ما يعرفه هو وما يستطيع النظام أن يقدمه له عند الطلب. ومن هنا ينبغي لنظرية القارئ الهجين أن تميز بين امتلاك المعرفة وامتلاك الوصول إلى المعرفة؛ فهما متداخلان لكنهما غير متطابقين، ولا يستطيع الإنسان بناء حكم نقدي قوي إذا كان يملك الوصول إلى المعلومات من دون بنية معرفية داخلية تسمح له بتقييمها.

المبحث الثالث: مفهوم القراءة العميقة

التأمل والتأويل

لا تشير القراءة العميقة إلى بطء ميكانيكي في تحريك العين عبر الكلمات، بل إلى نمط من المعالجة يمنح القارئ الوقت اللازم للاستدلال والتعاطف والتأمل النقدي وربط النص بخبرات أخرى وبناء تأويل لا يتوقف عند المعنى المباشر. وقد جعلت ماريان وولف مفهوم القراءة العميقة محورًا في أعمالها حول الدماغ القارئ، إذ تنظر إليها بوصفها منظومة من العمليات المكتسبة التي تتطور مع الممارسة وتشمل الاستدلال والتحليل والتعاطف والتأمل [7][8]. ويهم هذا البحث في أطروحة وولف أن القراءة العميقة ليست استجابة أوتوماتيكية لكل نص، بل قدرة تحتاج إلى زمن وتدريب ويمكن أن تتأثر بالعادات التي تفرضها البيئات المختلفة.

ويظهر العمق بوضوح في القراءة الأدبية، لأن الرواية أو القصيدة لا تقدم دائمًا رسالة مباشرة يمكن استخراجها بسرعة، بل تضع القارئ أمام مستويات من اللغة والمنظور والصمت والتلميح والتناص قد تحتاج إلى العودة وإعادة البناء. ولذلك لا يمكن مساواة التفسير العميق بتلخيص مضمون العمل، لأن معرفة «ماذا حدث» لا تكفي لمعرفة كيف صيغ الحدث ولماذا اختير هذا الصوت السردي أو هذا الإيقاع أو هذا الانقطاع. ومن هنا تصبح القراءة العميقة ممارسة مقاومة للاختزال، لا لأنها ترفض التلخيص بوصفه أداة، بل لأنها ترفض مساواته بالعمل.

ويظهر في هذا السياق أن التأويل يحتاج إلى قدر من الصمت المعرفي لا يكون فيه الجواب متاحًا فورًا، لأن القارئ يحتاج أحيانًا إلى أن يعيش مع السؤال قبل أن يقرر ما يعنيه النص. وقد يكون هذا الزمن الذي يبدو غير منتج من منظور اقتصاد السرعة جزءًا من الإنتاج الحقيقي للمعنى، لأن التأويل لا يتشكل دائمًا في اللحظة التي ننتهي فيها من الجملة، بل قد يستمر بعد إغلاق الكتاب أو أثناء المقارنة بين مواضع بعيدة.

ومن هنا يمكن القول إن القراءة العميقة تقوم على **تأجيل الإغلاق**، أي مقاومة الرغبة في تثبيت معنى سريع عندما يظل النص قادرًا على إنتاج أكثر من احتمال. وهذا المبدأ سيكون بالغ الأهمية في التعامل مع الذكاء الاصطناعي، لأن النظام الحواري مصمم وظيفيًا ليجيب، بينما تحتاج بعض النصوص إلى قارئ يعرف أن عدم الحصول على جواب فوري قد يكون جزءًا من القراءة الجيدة.

البطء بوصفه شرطًا للفهم

لا ينبغي تحويل البطء إلى قيمة رومانسية مطلقة، لأن بعض النصوص والمهام تحتاج إلى سرعة، كما أن القارئ الخبير يستطيع معالجة مواد مألوفة بسرعة من دون فقدان الفهم، غير أن البطء يصبح ضروريًا عندما تتطلب المهمة إعادة التنظيم والاستدلال والمقارنة. ومن هنا يكون الأدق الحديث عن **السرعة الملائمة للمهمة**، لا عن تفضيل البطء في ذاته.

وقد ميزت ن. كاثرين هايلز بين «الانتباه العميق» و«الانتباه الفائق»، حيث يرتبط الأول بالتركيز المطول على موضوع واحد، بينما يتصل الثاني بالانتقال السريع بين مهام متعددة وبالحاجة إلى مستويات عالية من التحفيز [9]. ولا تقدم هايلز هذا التمييز بوصفه حربًا أخلاقية بين جيلين، بل بوصفه وصفًا لأنماط معرفية مختلفة يمكن أن تكون لكل منها مزاياها وقيودها. ومن هنا يمكن للقارئ المعاصر أن يحتاج إلى النوعين؛ فهو يحتاج إلى المسح السريع عندما يبحث عن معلومة، لكنه يحتاج إلى الانتباه العميق عندما يحلل حجة أو يقرأ رواية طويلة.

ويصبح الخطر عندما يتحول نمط واحد إلى عادة مهيمنة تنتقل إلى جميع المهام. فالقارئ الذي يتدرب ساعات يومية على التمرير السريع والانتقال المتواصل قد يجد صعوبة أكبر في الدخول إلى نص لا يقدم محفزات متجددة باستمرار، لا لأن قدرته العصبية فقدت بصورة نهائية، بل لأن العادة المعرفية أصبحت تميل إلى طلب التجديد. ومن هنا لا يكون مستقبل القراءة

العميقة مرتبطًا بمنع التقنية، وإنما بتدريب القارئ على تبديل النمط بحسب المهمة.

ويظهر في هذا السياق ما يمكن تسميته حق النص في الزمن، أي الاعتراف بأن بعض الأعمال لا تكشف قيمتها تحت ضغط السرعة، وأن القارئ يحتاج إلى منحها مدة لا تحددها وتيرة المنصة أو الخوارزمية. وبالنسبة إلى القارئ الهجين يصبح هذا الحق أكثر أهمية، لأن وجود أداة قادرة على تسريع كل مرحلة تقريبًا قد يخلق وهمًا بأن التأويل نفسه يمكن تسريعه بالقدر ذاته، بينما تظل بعض عمليات الفهم مرتبطة بزمن بشري لا يمكن اختزاله إلى سرعة المعالجة الحاسوبية.

المبحث الرابع: اقتصاد التشتيت

الإشعارات وتعدد المهام

تتخذ أزمة الانتباه في البيئة الرقمية شكلًا ثقافيًا واقتصاديًا يتجاوز ضعف الإرادة الفردية، لأن كثيرًا من المنصات والخدمات تعمل داخل سوق تصبح فيه القدرة على الحصول على وقت المستخدم وعودته المتكررة موردًا ذا قيمة. وقد صاغ توماس دافنبورت وجون بيك مفهوم «اقتصاد الانتباه» بوصفه إطارًا لفهم عالم أصبحت فيه وفرة المعلومات تجعل الانتباه البشري موردًا نادرًا ينبغي التنافس عليه [10]. وإذا كان هذا التصور قد ظهر قبل منصات الهاتف الذكي في صورتها الحالية، فإنه يساعد على فهم السبب الذي يجعل الإشعارات والتحديثات والتوصيات والاستدعاءات المستمرة ليست مجرد إضافات تقنية، بل جزءًا من صراع على الموارد المعرفية للمستخدم.

ويؤدي تعدد المهام في هذا السياق دورًا ملتبسًا، لأن الثقافة الرقمية تمنح الفرد قدرة عملية على الانتقال بين الكتاب والبريد والمحادثة والبحث، لكن الدماغ لا ينفذ بالضرورة كل هذه المهام المعرفية المعقدة في الوقت نفسه دون تكلفة. وقد بينت دراسة إيال أوفير وكليفورد ناس وأنتوني واغنر حول مستخدمي الوسائط المتعددة بكثافة أن كثافة تعدد الوسائط ارتبطت بأداء أضعف في بعض اختبارات التحكم المعرفي لدى المجموعة التي تمارس تعدد الوسائط بصورة أكبر [11]. ولا ينبغي تحويل نتيجة واحدة إلى حكم حتمي على جميع المستخدمين، لكنها تذكر بأن التدريب على الانتقال المستمر بين مصادر المعلومات قد لا يساوي تحسين القدرة على التركيز.

كما أظهرت دراسات لاحقة أن التبديل بين المهام يحمل تكاليف معرفية مرتبطة بإعادة توجيه الانتباه وإعادة تفعيل قواعد المهمة السابقة، وهو ما يجعل القراءة الطويلة حساسة بصورة خاصة للانقطاعات [12]. ومن هنا فإن الإشعار، حتى عندما يستغرق لحظات، قد يترك أثرًا أطول من مدة ظهوره،

لأن القارئ يحتاج بعد العودة إلى استعادة موضعه العقلي وليس فقط موضع الصفحة.

ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما تكون المشتتات مرتبطة بالقراءة نفسها؛ فالتطبيق قد يعرض رابطاً أو توصية تبدو معرفية، ولذلك لا يشعر القارئ أنه غادر النص تماماً، بينما يكون قد انتقل فعلياً من مهمة إلى أخرى. ومن هنا تنشأ التجزئة المقنعة بالبحث، حيث يصبح من الصعب على الفرد التمييز بين الاستطراد الضروري والاستطراد الذي يبدد بنية القراءة.

<u>التجزئة المستمرة للانتباه</u>

لا تتمثل مشكلة التجزئة في عدد الانقطاعات وحده، بل في تحول الانقطاع إلى نمط افتراضي للعلاقة بالمحتوى، بحيث يتعلم القارئ أن كل مادة يمكن تركها فوراً إذا ظهر محفز أكثر جدة. وتصبح الجدة في هذه البيئة قيمة تنافس القيمة المعرفية، لأن المحتوى الجديد يحصل على فرصة تلقائية للاستحواذ على الانتباه حتى عندما يكون أقل أهمية من المهمة الحالية.

ومن هنا يمكن فهم أزمة الانتباه باعتبارها صراعاً بين منطق الاستمرار ومنطق الاستجابة؛ فالقراءة العميقة تحتاج إلى الاستمرار داخل بنية واحدة، بينما المنصة تدرب المستخدم على الاستجابة لما يظهر الآن. ولا يكون الانتباه في الحالة الأولى غياباً للمثيرات، بل القدرة على إبقاء الهدف السابق أقوى من المثير الجديد، وهي قدرة تحتاج إلى ممارسة وإلى بيئة تساعد على حمايتها.

وتكتسب هذه المسألة بعداً جديداً في البيئة الخوارزمية، لأن التوصيات لا تكون عشوائية تماماً، بل تستطيع أن تصبح أكثر ملاءمة لاهتمامات المستخدم، وهو ما يجعل مقاومتها أصعب من مقاومة إعلان غير ذي صلة. فالخوارزمية لا تحتاج إلى أن تجبر القارئ على المغادرة، بل يكفي أن تقدم له شيئاً «قد يعجبه» في اللحظة التي يحتاج فيها النص الحالي إلى جهد، وعندها يصبح الانتقال مكافأة فورية مقارنة بصعوبة الاستمرار.

ومن هنا يمكن الحديث عن اقتصاد الاحتكاك؛ فكلما كان النص صعبًا زادت كلفة البقاء فيه، وكلما كان البديل المعروض أسهل وأكثر جاذبية ارتفعت احتمالات الانتقال. وتصبح حماية القراءة العميقة مرتبطة بقدرة القارئ على تحمل مقدار من الصعوبة دون طلب مكافأة فورية، وهي قدرة يمكن تدريبها لكنها تحتاج إلى وعي بأن بعض تصميمات المنصات تعمل في الاتجاه المعاكس.

المبحث الخامس: التصفح في مقابل القراءة

المسح البصري السريع

لا ينبغي وضع التصفح والقراءة في تعارض أخلاقي يجعل الأول سطحيًا دائمًا والثانية عميقة دائمًا، لأن المسح البصري مهارة ضرورية عندما يبحث القارئ عن معلومة أو يقرر ما إذا كان النص يستحق القراءة أو يحدد موقع مفهوم معين. وقد أظهرت دراسات سلوك القراءة في البيئة الرقمية أن المستخدمين يميلون بدرجات متفاوتة إلى المسح والتصفح واختيار الكلمات المفتاحية والقراءة غير الخطية، وهو ما رصده زيمينغ ليو في دراسته المبكرة عن تغير سلوك القراءة في البيئة الرقمية [13]. وتكمن المشكلة عندما يتحول المسح من استراتيجية ملائمة لمهمة محددة إلى النمط الافتراضي الذي يستخدمه القارئ حتى أمام النصوص التي تحتاج إلى تتبع طويل.

ويساعدنا التمييز بين البحث عن معلومة وبناء فهم على توضيح الفرق. ففي الحالة الأولى يمكن أن يكون القارئ ناجحًا إذا عثر على التاريخ أو التعريف المطلوب خلال ثوان، أما في الثانية فلا يكفي الوصول إلى الجملة المركزية، لأن الفهم يحتاج إلى معرفة موقعها داخل حجة أو سرد أو شبكة من العلاقات. ومن هنا يستطيع الشخص أن يلتقط المعلومات كلها تقريبًا ويفشل مع ذلك في فهم النظام الذي يربط بينها.

وتؤدي واجهات الويب والهواتف دورًا في دعم هذا النوع من المسح من خلال العناوين القصيرة والروابط والقوائم والتمرير، وهي أشكال مفيدة في تنظيم وفرة المعلومات، لكنها تشجع العين على اتخاذ قرارات سريعة بشأن ما يستحق الانتباه. ومن هنا تصبح القراءة الرقمية تدريبًا مستمرًا على الاختيار، وهي كفاية مهمة، لكنها قد تنتج مشكلة إذا أصبحت سرعة القرار أهم من جودة الفهم.

الانتقال من الفهم إلى التقاط المعلومة

يمثل الانتقال من الفهم إلى التقاط المعلومة أحد التحولات الثقافية الأكثر أهمية في عصر الوفرة، لأن القارئ الذي يواجه آلاف الصفحات لا يستطيع التعامل معها جميعًا بالعمق نفسه، ولذلك يطور استراتيجيات للعثور على الجزء المفيد وتجاهل الباقي. وهذه الاستراتيجية عقلانية في كثير من السياقات، لكنها تستطيع أن تغير تصورنا للكتاب نفسه إذا أصبح العمل يُعامل دائمًا بوصفه مستودعًا لمقاطع قابلة للاستخراج.

ففي القراءة البحثية قد يبحث المستخدم عن كلمة داخل كتاب ثم يأخذ الفقرة المحيطة بها من دون قراءة البناء الذي جاءت داخله، وفي القراءة التوليدية يستطيع أن يطلب من النظام استخراج الأفكار الرئيسية أو الحجج، وبذلك ينتقل من مواجهة النص إلى مواجهة تمثيل منتقى للنص .ولا يكون هذا خطأ بالضرورة، لأن الباحث يحتاج أحيانًا إلى الفرز الأولي، لكن الخطر يبدأ عندما يتحول التمثيل إلى بديل دائم عن الأصل.

وهنا يظهر مفهوم يمكن تسميته القراءة المستبدلة، أي الحالة التي يحصل فيها الفرد على نتائج القراءة من دون أن يمارس العمليات الأساسية التي تنتج الفهم. فالتلخيص الذي يستخدم بعد قراءة الكتاب أداة للاسترجاع، أما التلخيص الذي يحل محل الكتاب دائمًا فقد ينتج معرفة بالموضوع لا معرفة بالعمل، وهو فرق حاسم في الأدب والفلسفة والنصوص المركبة.

ومن هنا لا ينبغي للقارئ الهجين أن يرفض أدوات الالتقاط، بل أن يعرف موقعها داخل العملية. يمكنه أن يبدأ بالمسح ليحدد ما يحتاج إلى عمق، وأن يستخدم الملخص ليستعيد بنية سبق أن فهمها، وأن يطلب من النظام استخراج المصطلحات قبل الدخول إلى الفصل، لكن ينبغي ألا يخلط بين الاستكشاف الأولي والقراءة النهائية .وفي هذا التمييز تكمن إحدى أهم كفايات القراءة الهجينة الناضجة.

وقد أظهرت أبحاث مقارنة بين الورق والشاشة وجود أفضلية للورق في بعض ظروف الفهم، كما بين تحليل تلوي واسع أن هذه الفروق تتأثر بعوامل مثل ضغط الوقت ونوع النص [14][15]. ولا تبرهن هذه النتائج أن الشاشة تمنع العمق، لكنها تشير إلى أن الوسيط والسلوك المرتبط به يمكن أن يؤثرا في النتائج، وهو ما يعزز الحاجة إلى تدريب القارئ على استخدام الشاشة بطريقة تناسب المهمة بدل افتراض أن الوسيط محايد دائمًا.

المبحث السادس: مستقبل القراءة العميقة

إمكان التعايش بين السرعة والعمق

لا يبدو مستقبل القراءة العميقة مرتبطًا بإمكانية العودة إلى عالم سابق يخلو من الشبكات والهواتف والخوارزميات، لأن هذه التقنيات أصبحت جزءًا من البنية الثقافية والمعرفية المعاصرة، كما أن كثيرًا من وظائفها يوسع إمكان الوصول إلى المعرفة بصورة لا يمكن اختزالها في أثر سلبي. ومن ثم فإن السؤال الواقعي لا يتمثل في اختيار الورق أو الشاشة اختيارًا مطلقًا، بل في بناء قارئ يستطيع الانتقال الواعي بين أنماط متعددة للقراءة.

يمكن للقارئ أن يمسح عشرات العناوين بسرعة ليحدد ما يحتاج إليه، ثم ينتقل إلى قراءة متأنية لعدد محدود منها، ويمكنه أن يستخدم محرك البحث لتحديد المرجع ثم يغلق الشبكة أثناء دراسته، وأن يستعين بالذكاء الاصطناعي في استخراج أسئلة للمقارنة ثم يعود إلى النصوص الأصلية. ومن هنا يصبح التعايش بين السرعة والعمق ممكنًا عندما تعمل السرعة بوصفها مرحلة اختيار لا بوصفها بديلًا عن المعالجة العميقة.

ويقترب هذا التصور من دعوة ماريان وولف إلى بناء ما تسميه بصورة مجازية «دماغًا قارئًا ثنائي القدرة»، أي قارئ قادر على الاستفادة من خصائص البيئة الرقمية مع الاحتفاظ بالدارات والممارسات التي تدعم القراءة العميقة [8]. ولا ينبغي فهم الثنائية هنا بوصفها انقسامًا فسيولوجيًا بسيطًا، بل بوصفها تربية على المرونة، بحيث يعرف القارئ متى يحتاج إلى المسح ومتى ينبغي أن يبطئ، ومتى تكون الأداة الرقمية معززة ومتى تتحول إلى مقاطعة.

ويضيف مشروع القارئ الهجين إلى هذا التصور مستوى جديدًا، لأن الانتقال لم يعد بين الورق والشاشة فقط، بل بين العمل البشري والعمل المفوض للآلة . فالقارئ يحتاج إلى أن يقرر متى يستخدم التلخيص، ومتى يحتفظ بمهمة التلخيص لنفسه لأنها تساعده على الفهم، ومتى يطلب مقارنة، ومتى يكون

بناء المقارنة بنفسه هو الهدف المعرفي. ومن هنا يصبح ضبط التدخل الآلي جزءًا من إدارة الانتباه.

ويمكن تسمية هذا المبدأ **اقتصاد التدخل الآلي**، أي عدم استخدام الأداة في كل موضع تستطيع فيه التدخل، بل في الموضع الذي تضيف فيه قيمة من دون أن تلغي وظيفة يحتاج القارئ إلى ممارستها بنفسه. فالذكاء الاصطناعي قد يستطيع كتابة ملخص، لكن إذا كان هدف الطالب هو تعلم بناء الملخص فإن تفويض المهمة يفوت الهدف، وقد يستطيع النظام تفسير قصيدة، لكن إذا كان الهدف تدريب الحس التأويلي فإن الجواب الجاهز يقلل القيمة التعليمية. وهكذا يتغير معيار الكفاءة من «كم وظيفة تستطيع الآلة تنفيذها؟» إلى «أي وظيفة ينبغي أن تبقى بشرية في هذه اللحظة؟.«

نحو تربية جديدة على الانتباه

إذا كانت القراءة العميقة مهارة مكتسبة، فإن الدفاع عنها لا يمكن أن يقوم على الوعظ ضد الهواتف أو على تمجيد الكتاب الورقي، بل يحتاج إلى **تربية على الانتباه** تعلم القارئ إدارة البيئة التي يقرأ داخلها. ويتضمن ذلك معرفة حدود الذاكرة العاملة، وفهم تكلفة الانتقال بين المهام، والتمييز بين البحث والتصفح والقراءة العميقة، والقدرة على إنشاء فترات قراءة محمية من الإشعارات، إلى جانب تنمية عادة الاسترجاع وإعادة الصياغة الشخصية بدل الاعتماد الدائم على التخزين الخارجي.

وتحتاج هذه التربية كذلك إلى تعليم القارئ أن الصعوبة ليست دائمًا إشارة إلى فشل النص أو نقص الأداة، وأن بعض درجات الحيرة والتردد مفيدة لأنها تدفع إلى إعادة التنظيم. ويصبح من الضروري إعادة الاعتبار إلى الصبر المعرفي، لا بوصفه فضيلة أخلاقية مجردة، بل بوصفه شرطًا لبعض أنماط الفهم التي لا يمكن اختزالها في إجابة سريعة.

وفي البيئة الهجينة ينبغي أن تتضمن التربية على الانتباه بعدًا خوارزميًا، بحيث يعرف القارئ أن المنصة قد تنظم ما يظهر أمامه، وأن التوصيات مصممة لإدامة التفاعل، وأن الجواب التوليدي ليس خاتمة طبيعية للسؤال. ومن هنا تتقاطع التربية على الانتباه مع القراءة الميتا خوارزمية، لأن التحكم في الانتباه يحتاج إلى فهم القوى التي تتنافس عليه.

وتتجسد الكفاية الجديدة في مجموعة من الاختيارات الواعية؛ فيستطيع القارئ أن يقرر متى يقرأ دون اتصال، ومتى يسمح بالروابط، ومتى يستخدم البحث، ومتى يؤجل سؤال الذكاء الاصطناعي حتى ينتهي من بناء فرضيته الأولية، ومتى يقارن جواب النظام بالنص، ومتى يترك سؤالًا مفتوحًا بدل البحث عن حل نهائي. وبذلك تصبح القراءة العميقة في عصر الخوارزمية أقل ارتباطًا بنوع الجهاز وأكثر ارتباطًا بقدرة الإنسان على تصميم شروط قراءته.

ومن هنا يمكن القول إن مستقبل القراءة العميقة لا يتوقف على هزيمة السرعة، بل على وضعها في مكانها المناسب. فالسرعة ممتازة في العثور على الطريق، لكنها لا تستطيع دائمًا أن تسير بدل القارئ داخله، والتوصية مفيدة في اكتشاف النص، لكنها لا تضمن فهمه، والتلخيص يساعد على الاستعادة، لكنه لا يعادل التجربة، والذكاء الاصطناعي يستطيع أن يوسع السؤال، لكنه لا ينبغي أن يلغي الزمن الذي يحتاج إليه الإنسان لكي يصبح السؤال جزءًا من معرفته.

خاتمة الفصل

يكشف تحليل القراءة العميقة وأزمة الانتباه أن التحولات الرقمية لا تؤثر في القراءة من الخارج فقط، بل تستطيع أن تصل إلى بعض الشروط المعرفية التي يقوم عليها الفهم، لأن الذاكرة العاملة محدودة، والانتباه قابل للمنافسة، والذاكرة طويلة المدى تحتاج إلى عمليات من الربط والاسترجاع، وبناء المعنى يحتاج إلى زمن يسمح بتكوين العلاقات وتصحيح الفرضيات. ومن هنا لا يمكن التعامل مع الإشعار والرابط والتوصية والتلخيص باعتبارها أدوات محايدة تماماً، لأن كل واحد منها يعيد توزيع الزمن والانتباه بصورة يمكن أن تدعم القراءة أو تقطعها.

وقد ظهر خلال الفصل أن التمييز الحاسم لا يقع بين الورق والشاشة، بل بين أنماط المعالجة .فالقارئ يستطيع أن يمارس قراءة سطحية على الورق، كما يستطيع أن يقرأ نصاً رقمياً بعمق، لكن بعض البيئات الرقمية تجعل الانتقال والتجديد والتجزئة أسهل، وهو ما يفرض على القارئ مهارة أكبر في إدارة انتباهه. ولا تصبح التقنية هنا عدواً للقراءة، بل عنصراً داخل بيئة ينبغي تعلم استخدامها بوعي.

ويكشف الفصل كذلك أن القراءة العميقة لا تعني رفض السرعة، بل القدرة على التمييز بين المهام التي تستفيد منها والمهام التي تحتاج إلى البطء. فالاستكشاف والمسح والبحث والاسترجاع يمكن أن تتم بسرعة عالية، بينما تحتاج المقارنة والتأويل وبناء الحجة إلى زمن أطول، ومن هنا يكون القارئ الناضج هو الذي يملك مرونة إيقاعية تسمح له بتغيير سرعة القراءة وفق غرضها.

غير أن دخول الذكاء الاصطناعي يضيف مستوى جديداً إلى أزمة الانتباه، لأن الخطر لم يعد يقتصر على قطع القراءة بإشعار خارجي، بل يمتد إلى إمكان اختصار القراءة من الداخل عبر أدوات تقدم النتيجة قبل أن يمر القارئ بالعملية. فإذا كان التشتت التقليدي يسحب القارئ بعيداً عن النص، فإن الاستبدال التوليدي قد يجعله يعتقد أنه بقي قريباً منه بينما كان

يتعامل في الحقيقة مع ملخص أو تفسير بديل. ومن هنا يصبح الدفاع عن القراءة العميقة مرتبطًا بالتمييز بين المساعدة والاستبدال، وبين الوصول إلى المعرفة وبنائها.

ويؤدي هذا كله إلى نتيجة مركزية في مشروع الكتاب: إن القارئ الهجين لا ينبغي تعريفه بكمية الأدوات التي يستخدمها، بل بقدرته على إدارة العلاقة بين التوسيع التقني والسيادة المعرفية .فكلما ازدادت قدرة الآلة على القيام بوظائف القراءة، أصبحت حاجة الإنسان أكبر إلى معرفة الوظائف التي ينبغي أن يحتفظ بها، وكلما أصبح الحصول على الجواب أسرع، ازدادت أهمية السؤال عن نوع المعرفة التي لم تتكون بعد داخله.

ومن هنا يمهد هذا الفصل للانتقال إلى تأسيس مفهوم القارئ الهجين في الباب التالي، لأن أزمة الانتباه تكشف أن الهجنة الناجحة لا تقوم على أكبر قدر ممكن من المساعدة، وإنما على توزيع واع للوظائف يحمي ما تحتاج إليه القراءة من زمن وصعوبة واسترجاع ومقاومة. وإذا كانت البيئة الرقمية قد جعلت القارئ أسرع في الوصول، فإن التحدي القادم يتمثل في أن يصبح أكثر قدرة على معرفة الموضع الذي ينبغي أن يتوقف فيه عن السرعة، وإذا كان الذكاء الاصطناعي قد جعله قادرًا على الحصول على تفسير خلال لحظات، فإن النضج القرائي سيقاس بقدرته على معرفة الموضع الذي يجب فيه تأجيل التفسير حتى يعمل عقله هو أولًا.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Dehaene, Stanislas.** *Reading in the Brain: The New Science of How We Read*. New York: Viking, 2009.

مرجع أساسي في دراسة الأسس العصبية والمعرفية للقراءة وفي فكرة إعادة توظيف شبكات الدماغ لخدمة الاختراع الثقافي للكتابة.

[2] **Kintsch, Walter.** "The Role of Knowledge in Discourse Comprehension: A Construction–Integration Model." *Psychological Review*, Vol. 95, No. 2, 1988, pp. 163–182.

يمثل نموذج البناء ـ التكامل أحد المراجع الأساسية في تفسير الفهم بوصفه عملية لبناء تمثيلات أولية ثم دمجها داخل بنية أكثر اتساقًا.

[3] **Baddeley, Alan D.** "The Episodic Buffer: A New Component of Working Memory?" *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 4, No. 11, 2000, pp. 417–423.

يستفاد منه في فهم الذاكرة العاملة بوصفها منظومة محدودة تضم مكونات متعددة وتؤدي دورًا أساسيًا في الاحتفاظ المؤقت بالمعلومات ودمجها أثناء النشاط المعرفي.

[4] **Cowan, Nelson.** "The Magical Number 4 in Short-Term Memory: A Reconsideration of Mental Storage Capacity." *Behavioral and Brain Sciences*, Vol. 24, No. 1, 2001, pp. 87–114.

مرجع مهم في مناقشة الحدود الفعلية للسعة التي يستطيع مركز الانتباه الاحتفاظ بها أثناء المعالجة.

[5] **Roediger, Henry L. III & Karpicke, Jeffrey D.** "Test-Enhanced Learning: Taking Memory Tests Improves Long-Term Retention." *Psychological Science*, Vol. 17, No. 3, 2006, pp. 249–255.

يمثل أحد المراجع البارزة في أثر الاسترجاع والاختبار في دعم الاحتفاظ طويل المدى مقارنة بإعادة الدراسة وحدها.

[6] **Sparrow, Betsy; Liu, Jenny & Wegner, Daniel M.** "Google Effects on Memory: Cognitive Consequences of Having Information at Our Fingertips." *Science*, Vol. 333, No. 6043, 2011, pp. 776–778.

تستفاد منه في مناقشة التحول من تذكر بعض المعلومات نفسها إلى تذكر مواقع الوصول إليها عندما يتوقع الفرد أن تظل المعلومات متاحة خارجياً.

[7] Wolf, Maryanne. *Proust and the Squid: The Story and Science of the Reading Brain*. New York: Harper, 2007.

مرجع مهم في تاريخ الدماغ القارئ وفي فهم القراءة بوصفها قدرة ثقافية مكتسبة تتطور عبر التدريب.

[8] Wolf, Maryanne. *Reader, Come Home: The Reading Brain in a Digital World*. New York: Harper, 2018.

يستخدم في هذا الفصل لتأصيل مفهوم القراءة العميقة ومناقشة مستقبل الانتباه والقراءة التأملية داخل البيئة الرقمية.

[9] Hayles, N. Katherine. "Hyper and Deep Attention: The Generational Divide in Cognitive Modes." *Profession*, 2007, pp. 187–199.

يمثل مرجعاً مهماً في التمييز بين الانتباه العميق والانتباه الفائق وفي فهم الممارسات المعرفية المتصلة بالبيئات الرقمية دون اختزالها في حكم أحادي.

[10] Davenport, Thomas H. & Beck, John C. *The Attention Economy: Understanding the New Currency of Business*. Boston: Harvard Business School Press, 2001.

يفيد في بناء مفهوم اقتصاد الانتباه وفهم التنافس على الوقت والتركيز البشري في بيئة تتسم بوفرة المعلومات.

[11] Ophir, Eyal; Nass, Clifford & Wagner, Anthony D. "Cognitive Control in Media Multitaskers." *Proceedings of the National Academy of Sciences*, Vol. 106, No. 37, 2009, pp. 15583–15587.

دراسة مؤثرة في العلاقة بين كثافة تعدد الوسائط وبعض أبعاد التحكم المعرفي، ويستفاد منها بحذر بوصفها جزءاً من أدبيات أوسع حول تبديل المهام والانتباه.

[12] Monsell, Stephen. "Task Switching." *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 7, No. 3, 2003, pp. 134–140.
مرجع أساسي في تفسير تكاليف الانتقال بين المهام وإعادة تهيئة النظام المعرفي عند تبديل الهدف أو قواعد النشاط.

[13] Liu, Ziming. "Reading Behavior in the Digital Environment: Changes in Reading Behavior over the Past Ten Years." *Journal of Documentation*, Vol. 61, No. 6, 2005, pp. 700–712.
دراسة مبكرة ومهمة في رصد الميل إلى المسح والتصفح والكلمات المفتاحية والقراءة غير الخطية داخل البيئة الرقمية.

[14] Mangen, Anne; Walgermo, Bente R. & Brønnick, Kolbjørn. "Reading Linear Texts on Paper versus Computer Screen: Effects on Reading Comprehension." *International Journal of Educational Research*, Vol. 58, 2013, pp. 61–68.
دراسة تجريبية تقارن فهم نصوص خطية على الورق والشاشة، وتفيد في إبراز أن أثر الوسيط يمكن أن يظهر في بعض شروط القراءة دون تعميم النتيجة على جميع السياقات.

[15] Delgado, Pablo; Vargas, Cristina; Ackerman, Rakefet & Salmerón, Ladislao. "Don't Throw Away Your Printed Books: A Meta-Analysis on the Effects of Reading Media on Reading Comprehension." *Educational Research Review*, Vol. 25, 2018, pp. 23–38.
تحليل تلوي واسع يبين وجود أفضلية للورق في بعض ظروف الفهم مع أهمية متغيرات مثل ضغط الوقت ونوع النص، ويستخدم في هذا الفصل لتأكيد أن العلاقة بين الوسيط والفهم مشروطة وليست حتمية.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في أربعة محاور متكاملة؛ إذ تؤسس أعمال ديهان وكينتش [1–2] لفهم القراءة بوصفها عملية معرفية يتجاوز فيها القارئ فك الشفرة إلى بناء تمثيل متماسك للمعنى، بينما توضح أعمال بادلي وكوان ورويديغر وكاربيك وسبارو وزملائها [3–6] دور الذاكرة العاملة والذاكرة طويلة المدى والاسترجاع والذاكرة الخارجية في دعم القراءة أو إعادة توزيع وظائفها. وتقدم أعمال وولف وهايلز [7–9] الأساس النظري لمفهوم القراءة العميقة والتوتر بين أنماط الانتباه المختلفة، في حين تسمح أعمال دافنبورت وبيك وأوفير وناس وواجنر ومونسيل وليو ومانغن وديلغادو وزملائهم [10–15] بتحليل اقتصاد الانتباه وتعدد المهام والمسح الرقمي وآثار الوسيط في الفهم.

ومن تقاطع هذه المحاور يتأكد الافتراض الذي يمهد للباب التالي من الكتاب، وهو أن القارئ الهجين لا يمكن أن يُبنى نظريًا بوصفه قارئًا أسرع أو أكثر اتصالًا بالأدوات، وإنما بوصفه قارئًا يعرف كيف يحمي شروط الفهم العميق داخل بيئة توسع إمكان الوصول والتدخل والتشتيت في الوقت نفسه؛ فالهجنة الناضجة لا تقاس بكمية التكنولوجيا الداخلة في القراءة، بل بقدرة القارئ على توزيع وظائفه المعرفية من دون أن يفقد الانتباه والذاكرة والحكم التي تجعل القراءة فعلًا إنسانيًا منتجًا للمعنى.

الفصل الرابع

القارئ الهجين: المفهوم والحدود النظرية

يمثل مفهوم «القارئ الهجين» النقطة التي تنتقل عندها هذه الدراسة من تتبع التحولات التاريخية والمادية والمعرفية لفعل القراءة إلى محاولة بناء جهاز نظري قادر على وصف القارئ الذي يتشكل داخل البيئة الرقمية والخوارزمية المعاصرة، لأن الفصول السابقة بينت أن الانتقال من المخطوط إلى المطبوع، ثم من الورق إلى الشاشة والنص التشعبي والواجهة متعددة الوسائط، لم يكن مجرد تعاقب في الحوامل، وإنما صاحبه باستمرار تحول في العلاقات التي يقيمها القارئ بالنص والذاكرة والانتباه والجماعة والسياق. كما ظهر أن الذكاء الاصطناعي التوليدي يدفع هذه التحولات إلى مستوى أكثر عمقًا حين لا يكتفي الوسيط بعرض النص أو إتاحته أو ربطه بمصادر أخرى، بل يصبح قادرًا على إنتاج خطاب حوله، وعلى تقديم ملخصات وشروح ومقارنات وترجمات واقتراحات تأويلية، وهو ما يطرح مسألة الحدود بين النشاط المعرفي الذي يقوم به الإنسان والوظائف التي أصبحت قابلة للتفويض أو التوزيع على الأدوات.

ولا يُطرح مفهوم القارئ الهجين هنا باعتباره تسمية مستقرة في نظريات القراءة السابقة يمكن نقل تعريفها الجاهز إلى هذا الكتاب، بل بوصفه اقتراحًا نظريًا إجرائيًا يسعى البحث إلى تأسيسه بالاستفادة من سلسلة من المفاهيم التي تطورت في الدراسات الثقافية والوسائطية وفلسفة التقنية وعلم الإدراك، من دون الادعاء بأن هذه المرجعيات استخدمت المصطلح بالمعنى نفسه الذي نقترحه. ومن ثم فإن مهمة هذا الفصل لا تقتصر على تعريف القارئ الهجين، بل تتطلب تحديد الشروط التي تجعل المفهوم ضروريًا، ورسم الحدود التي تفصله عن القارئ الرقمي والقارئ الشبكي والقارئ المعزز، ثم بيان الدرجة التي يصبح عندها تدخل التقنية في القراءة أعمق من مجرد استعمال أداة خارجية، بحيث تبدأ بعض الوظائف المعرفية في التوزع بين القارئ والوسيط.

ويقتضي هذا التأسيس منذ البداية الحذر من تصور الهجنة باعتبارها اتحادًا بين طرفين متساويين، لأن الإنسان والنظام التقني لا يتمتعان بالطبيعة الوجودية نفسها ولا يؤديان الوظائف ذاتها. فالقارئ البشري يحمل ذاكرة شخصية وتجربة جسدية وثقافية وتاريخًا في التعلم واللغة والانفعال، بينما تعتمد الأنظمة الحسابية على معالجة المدخلات وإنتاج المخرجات بحسب بنياتها ونماذجها وبياناتها، ولذلك لا تعني مشاركة الآلة في بعض عمليات القراءة أنها أصبحت قارئًا بشريًا آخر، كما لا تعني الاستفادة من قدراتها أن الإنسان فقد موقعه. إن الهجنة التي يدافع عنها هذا الكتاب هجنة وظيفية ومعرفية ووسائطية غير متماثلة، تتداخل فيها القدرات من دون أن تختلط المسؤوليات، وتظل فيها الذات البشرية مسؤولة عن التحقق والاختيار والتأويل النهائي.

المبحث الأول: مفهوم الهجنة

الهجنة في العلوم الإنسانية

انتقل مفهوم الهجنة عبر حقول معرفية متعددة قبل أن يصبح واحدًا من المصطلحات المؤثرة في الدراسات الثقافية وما بعد الاستعمارية، ولذلك لا يمكن استعماله في دراسة القراءة من دون الانتباه إلى تاريخه الدلالي وإلى المخاطر التي تنتج عن نقله من مجال إلى آخر. فقد استخدمت استعارات الاختلاط والتهجين لوصف اللغات والثقافات والهويات والأشكال الفنية والاجتماعية، لكن هذا الاستعمال لم يكن محايدًا دائمًا، إذ ارتبط في مراحل تاريخية بخطابات بيولوجية وعنصرية، قبل أن تعيد العلوم الإنسانية توظيفه بصورة نقدية للإشارة إلى العمليات التي تنتج أشكالًا ثقافية جديدة من التماس والتفاوض وإعادة التركيب.

وقد منح هومي ك. بابا مفهوم الهجنة موقعًا مركزيًا داخل دراسات ما بعد الاستعمار، خصوصًا في *The Location of Culture*، حيث ارتبط عنده بمفاهيم المنطقة البينية والمحاكاة والالتباس وبإمكان تشكل فضاءات ثقافية لا يمكن اختزالها إلى أحد الأصلين المتقابلين [1]. ولا تستعمل هذه الدراسة مفهوم بابا مباشرة لتفسير القراءة التقنية، لأن الهجنة الثقافية في سياق العلاقات الاستعمارية والهويات لا تساوي الهجنة المعرفية بين القارئ والأداة، غير أن أهمية بابا تكمن في تفكيك التصورات الثنائية التي تفترض وجود كيانات نقية مكتفية بذاتها، وفي إبراز أن اللقاء بين نظم مختلفة قد ينتج موقعًا ثالثًا تتغير داخله العلاقة بين العناصر الأصلية، وهو ما يوفر خلفية إبستمولوجية تسمح بالتفكير في الهجنة بوصفها عملية تعيد تشكيل الحدود بدل أن تكون مجرد جمع حسابي بين طرفين .

ويقدم بيتر بيرك في *Cultural Hybridity* معالجة تاريخية أوسع لعمليات التفاعل والتبادل والمزج الثقافي، ويشدد في أعماله اللاحقة على أن الحديث عن التهجين بوصفه عملية قد يكون أدق من التعامل مع «الهجنة» كحالة مكتملة، لأن النظر إلى العملية يسمح بالتفكير في الدرجات والتحولات

بدل الاقتصار على ثنائية الوجود والغياب [2]. وهذه الفكرة ذات فائدة مباشرة في بناء مفهوم القارئ الهجين، إذ لا ينبغي أن نسأل فقط ما إذا كان القارئ هجينًا أو غير هجين، بل ما درجة الهجنة التي تتشكل داخل ممارسة معينة، وما الوظائف التي دخلت فيها التقنية، وهل بقيت مجرد مساعدة خارجية أم أصبحت جزءًا متكررًا من طريقة الوصول إلى النص وفهمه ومراجعته. وقد أشار بيرك صراحة في تناوله لمفهوم التهجين إلى فائدة التفكير فيه بوصفه عملية يمكن أن تكون أكثر أو أقل كثافة، بدل التعامل معه كصفة ثنائية ثابتة([2]

ويكتسب مفهوم الهجنة بعدًا آخر مع دونا هاراواي في «بيان السايبورغ» وفي مجموعة *Simians, Cyborgs, and Women*، حيث استخدمت صورة السايبورغ لتفكيك عدد من الحدود التي بدت مستقرة في الفكر الغربي، ومن بينها الفصل بين الكائن والآلة والطبيعة والثقافة [3]. ولا يحتاج مشروع القارئ الهجين إلى استعارة السايبورغ بمعناها السياسي والفلسفي الكامل، ولا إلى تحويل القارئ إلى كائن نصف عضوي ونصف آلي، لكن قيمة هاراواي تكمن في فتح مجال التفكير في أن الحدود بين الإنسان والتقنية يمكن أن تصبح أقل بساطة عندما تدخل الأدوات إلى الحياة اليومية والمعرفة والهوية والممارسة. وتصف Routledge السايبورغ عند هاراواي بوصفه هجينًا من الكائن والآلة يستخدم لتحدي الثنائيات الجامدة بين الطبيعة والثقافة وبين العضوي والتقني .[3]

وتسمح هذه المرجعيات الثلاث باستخلاص مبدأ منهجي دون استنساخ مفاهيمها: الهجنة، في استعمالها الذي يهم هذا الكتاب، لا تعني ذوبان عنصرين في كيان يفقد خصائصهما، وإنما تعني إعادة تنظيم العلاقة بين وظائف كانت تبدو منفصلة، بحيث يظهر نمط من الممارسة لا يمكن تفسيره تفسيرًا كاملًا برده إلى أحد الطرفين وحده. ومن هنا فإن القراءة الهجينة ليست قراءة بشرية خالصة أضيفت إليها شاشة بصورة عرضية، كما أنها ليست عملية آلية يقوم فيها النظام بدل الإنسان، بل هي وضع تتوزع فيه

بعض مراحل النشاط على طرف بشري وموارد تقنية مع المحافظة على عدم التماثل بينهما.

ويتيح هذا التعريف كذلك تجاوز الاستخدام الاحتفالي للهجنة الذي يجعل كل مزج قيمة إيجابية في ذاته، لأن الهجنة يمكن أن توسع قدرات القارئ كما يمكن أن تزيد تبعيته، ويمكن أن تفتح أمامه نصوصًا ولغات وسياقات جديدة كما يمكن أن تضعف بعض مهاراته إذا تحول التعزيز إلى استبدال. ولهذا ينبغي النظر إلى الهجنة بوصفها وصفًا لبنية العلاقة قبل أن تكون حكمًا عليها، ثم يأتي التقييم لاحقًا بحسب درجة استقلال القارئ ووعيه بالوساطة وقدرته على التحقق والعودة إلى النص.

انتقال المفهوم إلى الدراسات الرقمية

لم تنتقل فكرة الهجنة إلى الدراسات الرقمية من طريق اصطلاحي واحد، وإنما ظهرت في مجموعة واسعة من النظريات التي حاولت تفسير تداخل الوسائط القديمة والجديدة، وتفاعل البشر مع الحواسيب، وتحوّل الحدود بين الإنتاج والاستهلاك، وبين الكتابة والقراءة، وبين الذاكرة الداخلية والموارد الخارجية. وقد قدمت ن. كاثرين هايلز مفهوم «التكوين التقني المعاصر» بوصفه إطارًا لفهم التطور المتبادل بين الإنسان والتقنيات التي يستخدمها، ودعت إلى دراسة كيفية التفكير «من خلال الوسائط ومعها وإلى جانبها»، وهو تصور يرفض النظر إلى التقنية باعتبارها جسمًا خارجيًا لا يترك أثرًا في العمليات المعرفية [4]. وتبين *How We Think* أن هايلز تربط تحولات الوسائط الرقمية بالممارسات المعرفية، وتقدم مفهوم technogenesis باعتباره علاقة تطور متبادل بين البشر والتقنيات .[4]

ويذهب ليف مانوفيتش في اتجاه موازٍ حين يحلل الوسائط الجديدة بوصفها بيئة لها منطقها الخاص، لا مجرد حامل إلكتروني لمحتوى قديم، ويجعل الواجهة وقاعدة البيانات من الأشكال الأساسية التي تنظم العلاقة بين المستخدم والمادة الرقمية [5]. وهنا تصبح الهجنة أكثر وضوحًا لأن ما يواجهه القارئ على الشاشة ليس النص في حالته المجردة، بل بناءً واجهيًا

يجمع بين المحتوى والأوامر والروابط وأشكال التنقل، وهو ما يجعل القراءة ممارسة تقع منذ البداية بين اللغة وتصميم البرمجيات. وقد عرضت MIT Press *The Language of New Media* بوصفه عملًا يؤسس نظرية منهجية للوسائط الجديدة ويركز، ضمن ما يركز عليه، على الواجهة وقاعدة البيانات والعلاقات بين الوسائط القديمة والجديدة .[5]

وتظهر فكرة التداخل كذلك في مفهوم «ثقافة التقارب» عند هنري جنكينز، حيث تلتقي الوسائط القديمة والجديدة وتتداخل أدوار المنتجين والمستهلكين وتتحرك المضامين بين قنوات متعددة [6]. وعلى الرغم من أن موضوع جنكينز أوسع من القراءة، فإن فكرته عن التقاء قوى المنتج والمستهلك والوسائط المختلفة تساعد على تفسير ظهور قارئ لا يكتفي باستقبال النص، بل يعلق عليه ويشارك مقاطعه ويعيد إنتاجه ويدخل في مجتمعات رقمية حوله، بحيث تتقاطع القراءة والكتابة والمشاركة الاجتماعية في النشاط نفسه. وتصف» NYU Press ثقافة التقارب» بأنها مجال تتلاقى فيه الوسائط القديمة والجديدة وتتصادم فيه سلطات المنتجين مع قوى الجمهور بصورة غير متوقعة.[6]

كما يكشف تطور «القراءة الاجتماعية الرقمية» أن القراءة الشبكية لم تعد مجرد استعارة، بل أصبحت ممارسة موثقة داخل منصات تتيح للقراء التعليق والمراجعة والتوصية والمناقشة والمشاركة في إنتاج خطاب حول النصوص. وتبين بحوث حديثة أن القراءة الاجتماعية الرقمية تشمل المراجعات والتعليقات داخل النص والمناقشات والكتابة التشاركية وغيرها من الممارسات التي تجعل التواصل بين القراء جزءًا من الثقافة الأدبية الرقمية [7]، بينما يؤكد فيديريكو بيانزولا في كتابه *Digital Social Reading* أن التطبيقات الاجتماعية غيّرت بعض الطرق التي يقرأ بها الأفراد الأدب ويتفاعلون حوله[8]

غير أن الانتقال الأهم بالنسبة إلى مفهومنا لا يتمثل في مزج الوسائط أو تداخل القراءة والكتابة وحدهما، بل في تحول العلاقة بين الإنسان

والتقنية من علاقة استعمال إلى علاقة يمكن أن تصبح تكاملًا وظيفيًا متكررًا .وتوفر أطروحة «العقل الممتد» عند آندي كلارك وديفيد تشالمرز خلفية فلسفية لهذا السؤال، إذ تقترح أن الموارد الخارجية تستطيع في بعض الشروط أن تؤدي دورًا فعليًا داخل عملية معرفية موسعة، بينما يقدم إدوين هاتشنز في «الإدراك الموزع» تصورًا يجعل النشاط المعرفي قابلًا للدراسة على مستوى الأنظمة التي تتفاعل فيها الأفراد والأدوات والممارسات [9][10]. ولا يساوي هذا الكتاب بين القراءة الهجينة وأطروحة العقل الممتد، لكنه يستفيد منها في طرح سؤال الوظائف: إذا أصبح القارئ يعتمد بصورة منتظمة على البحث الرقمي والذاكرة الخارجية والترجمة الآلية والمساعد التوليدي، فهل تظل وحدة التحليل هي الفرد وحده، أم يصبح من المفيد أحيانًا تحليل «القارئ والأداة» بوصفهما نظامًا قرائيًا مؤقتًا؟ وتثبت المراجع الأصلية لأطروحة العقل الممتد ومشروع الإدراك الموزع موقع هذين التصورين داخل النقاش حول مشاركة البيئة والأدوات في بعض العمليات المعرفية [9 .[10][

ومن هنا يصبح انتقال مفهوم الهجنة إلى القراءة الرقمية انتقالًا من الحديث عن مزج الوسائط إلى الحديث عن تداخل الوظائف، وهي النقطة التي يبدأ عندها مفهوم القارئ الهجين في اكتساب خصوصيته: فالقارئ الرقمي يستخدم وسيطًا جديدًا، والقارئ الشبكي يتحرك بين الروابط والجماعات، والقارئ المعزز يستفيد من أدوات توسع قدراته، أما القارئ الهجين فينشأ عندما يصبح هذا التفاعل جزءًا من البنية المتكررة التي تتشكل داخلها القراءة نفسها.

المبحث الثاني: تعريف القارئ الهجين

البعد البشري

يقوم تعريف القارئ الهجين على أولوية واضحة للبعد البشري، لأن الهجنة لا تفهم في هذا الكتاب بوصفها عملية يتحول فيها الإنسان إلى ملحق للآلة، وإنما باعتبارها تنظيمًا جديدًا لبعض الموارد التي يستخدمها أثناء القراءة. ولهذا يمكن تعريف القارئ الهجين، تعريفًا أوليًا، بأنه قارئ بشري تتم بعض عمليات قراءته داخل منظومة معرفية موزعة تتفاعل فيها قدراته اللغوية والذاكرية والتأويلية والنقدية مع أدوات رقمية وخوارزمية وأنظمة ذكاء اصطناعي تساعده في الوصول إلى النص واختياره والبحث فيه وترجمته وشرحه ومقارنته وربطه بسياقات أخرى واقتراح احتمالات لتأويله، مع بقاء مسؤولية الحكم النهائي على المعنى مسؤولية بشرية.

ويكتسب وصف القارئ بالبشري هنا دلالة منهجية لا بلاغية، لأن جزءًا من الخطاب المعاصر حول الذكاء الاصطناعي يميل إلى استخدام كلمات مثل الفهم والتفسير والقراءة للآلة من دون التمييز دائمًا بين معناها الوظيفي ومعناها الإنساني. إن القارئ الإنساني لا يتعامل مع النص من خارج حياته، بل يقرأه من موقع في التاريخ واللغة والجسد والثقافة، ويحمل إليه خبرات سابقة وذكريات وانفعالات ومصالح وقيمًا، وقد يتغير موقفه منه مع تغير تجربته، ولذلك فإن تأويله لا يمكن اختزاله إلى معالجة رموز. أما النظام التقني فيستطيع إنتاج خطاب يمكن أن يشبه التفسير أو النقد، لكنه لا يملك، بالمعنى نفسه، تاريخ حياة أو تجربة جسدية أو مسؤولية أخلاقية عن موقفه.

ولا يعني هذا التمييز التقليل من قدرة الأنظمة على التأثير، بل على العكس يسمح بوصف أثرها دون الحاجة إلى أنسنتها، إذ يستطيع النظام أن يقدم فرضية تغير قراءة إنسان حتى لو لم تكن له تجربة بشرية للمعنى. ومن هنا يميز الكتاب بين التجربة التأويلية التي تظل بشرية والمساهمة الوظيفية في التأويل التي يمكن أن تقوم بها الآلة، وهي مساهمة تحدث عندما يدخل

المخرج التوليدي إلى مجموعة المواد التي يفحصها القارئ ويقبل بعضها ويرفض بعضها ويعيد تنظيمها داخل تفسيره.

ويظل البعد البشري أساسيًا كذلك لأن القراءة ليست دائمًا حلًا لمشكلة معرفية واضحة، فقد يقرأ الإنسان من أجل المتعة أو الصدمة أو التذكر أو التماهي أو المقاومة، وقد يترك النص مفتوحًا دون أن يريد الوصول إلى معنى نهائي، وهو ما يجعل تصور القراءة باعتبارها عملية تحسين للكفاءة وحدها تصورًا ناقصًا. فالذكاء الاصطناعي يستطيع أن يجعل البحث أسرع، لكنه لا يحدد بالضرورة لماذا يريد الفرد القراءة أو ما القيمة التي يمنحها للبطء أو للغموض أو للاكتشاف الذاتي. ومن هنا يتعين أن يظل مفهوم القارئ الهجين مرتبطًا بغاية بشرية توجه الأدوات لا بأن تصبح الأداة هي التي تحدد تلقائيًا ما ينبغي أن يفعله القارئ.

ويتصل بذلك مبدأ «السيادة التأويلية» الذي سيعود إليه الكتاب في الفصول اللاحقة، والمقصود به قدرة القارئ على الاحتفاظ بحق تحديد السؤال، وفحص المخرجات، والعودة إلى النص، ورفض الاقتراح الآلي، وبناء الموقف الذي يستطيع تحمل مسؤوليته. ولا تعني السيادة هنا الاستغناء عن التقنية، لأن الاستقلال في البيئة المعاصرة قد يقوم على استعمال الأدوات بوعي بدل رفضها، وإنما تعني ألا يتحول الاعتماد الوظيفي عليها إلى تنازل عن القدرة على الحكم.

البعد التقني والخوارزمي

إذا كان البعد البشري يحافظ على مركز المسؤولية، فإن البعد التقني هو الذي يجعل استعمال مفهوم «الهجين» ضروريًا بدل الاكتفاء بمفهوم القارئ التقليدي أو الرقمي، لأن الأدوات المعاصرة لا تؤدي وظيفة واحدة بسيطة، بل يمكن أن تتدخل في مراحل متعددة من الدورة القرائية. ففي مرحلة ما قبل القراءة تستطيع الخوارزميات أن تنظم نتائج البحث والتوصيات وتؤثر في اكتشاف النص، وأثناء القراءة يمكن للأدوات أن تبحث وتترجم وتفسر وتستخرج المعلومات، وبعد القراءة تستطيع أن تلخص وتقارن وتساعد في

تنظيم الملاحظات وإعادة الإنتاج والمشاركة، وهو ما يجعل التقنية قابلة للحضور عبر الدورة القرائية كاملة.

وتتفاوت درجة هذا التدخل من أداة إلى أخرى، فالقاموس الرقمي يقدم وظيفة محددة نسبيًا، ومحرك البحث يعيد مجموعة من النتائج يحتاج القارئ إلى تقييمها، بينما يستطيع النظام التوليدي أن يجمع وظائف متعددة داخل واجهة واحدة ويقدم إجابة جديدة بدل إرجاع قائمة مصادر فقط. وتكمن أهمية هذا الفرق في أن الوسيط يصبح قادرًا على الانتقال من الاسترجاع إلى إعادة التركيب والتوليد، ومن ثم يصبح أكثر قربًا من مجال المعنى، لأن التلخيص والتفسير والمقارنة ليست عمليات محايدة كليًا، بل تقوم على اختيار عناصر وترتيبها وربطها.

ويقدم إطار «الفاعلية الآلية» عند س. شيام سوندار مدخلًا مفيدًا لتحليل هذا التحول، لأنه يدرس الأنظمة الحديثة بوصفها قادرة على أداء وظائف كان المستخدم يتوقع تقليديًا أن تصدر عن البشر أو أن تحتاج إلى تدخل بشري مباشر، ويربط صعود هذه الفاعلية بقضايا الثقة والشفافية والسيطرة البشرية في التفاعل مع الذكاء الاصطناعي [11]. ولا يستعمل هذا الكتاب «الفاعلية» بمعناها الوجودي أو الأخلاقي الكامل، بل بمعنى أن النظام يستطيع تنفيذ فعل يغير ما يحدث للقارئ بعده، كأن يقترح نصًا أو يقدم تفسيرًا يغير مسار السؤال. وتبين دراسة سوندار أن تصاعد قدرات التخصيص والتعلم الآلي يفرض دراسة جديدة للتفاعل البشري ـ الآلي، مع مخاوف متصلة بالشفافية والتحكم البشري .[11]

ويصبح البعد الخوارزمي أكثر وضوحًا عندما تكون الأداة غير متساوية في الشفافية، لأن القارئ قد يستخدم خدمة يعرف وظيفتها العامة لكنه لا يعرف تمامًا كيف ترتب النتائج أو لماذا ولد النظام جوابًا محددًا. ومن هنا تختلف القراءة الهجينة عن الاستعانة التقليدية بمرجع ثابت، إذ تدخل إلى العملية بنية احتمالية وديناميكية قد يتغير مخرجها بحسب صياغة السؤال أو السياق أو تحديث النظام. ولذلك فإن القارئ الهجين يحتاج إلى

كفاية إضافية تتمثل في إدراك أن الوسيط نفسه متغير وقابل للخطأ وغير محايد بالكامل.

غير أن وجود التقنية وحده لا يكفي لإعلان الهجنة، لأن استعمال آلة حاسبة لعد صفحات الكتاب أو استخدام شاشة لعرض ملف لا يدخل بالضرورة إلى البنية المعرفية للقراءة. ويقترح البحث، لذلك، أن يتحقق البعد التقني للهجنة عندما تؤدي الأداة وظيفة ذات صلة مباشرة بواحدة أو أكثر من العمليات التالية :اختيار النص، والوصول إليه، واسترجاع المعرفة المتعلقة به، وتنظيمه، وترجمته، وشرحه، ومقارنته، وتلخيصه، وبناء سياقه، واقتراح معانٍ محتملة له .وكلما اتسع عدد الوظائف وازداد تداخلها مع فعل القارئ، ارتفعت درجة الهجنة.

المبحث الثالث: القارئ الرقمي والقارئ الهجين

نقاط التقاطع

ينتمي القارئ الرقمي والقارئ الهجين إلى البيئة الثقافية نفسها في كثير من الحالات، ولهذا توجد بينهما مساحة واسعة من التقاطع تجعل الفصل الحاد بينهما مضللًا. فكلاهما يستطيع قراءة النص على شاشة، واستخدام البحث والتظليل والملاحظات، والانتقال بين النصوص، والاستفادة من المكتبات الرقمية، والمشاركة في المنصات الاجتماعية، ولذلك لا يمثل القارئ الهجين نقيضًا للقارئ الرقمي، بل يمكن النظر إليه بوصفه درجة أكثر تعقيدًا من بعض الممارسات الرقمية.

كما يشترك الاثنان في التعامل مع النص بوصفه مادة أقل ارتباطًا بجسم مادي ثابت، ويمكن لكليهما أن يغير حجم الخط أو يعيد ترتيب بعض عناصر الواجهة أو يستدعي رابطًا أو يعثر على كلمة بسرعة، وهي خصائص ناقشها الفصل السابق ضمن تحول الكتاب إلى واجهة. ومن هذه الزاوية يتأسس القارئ الهجين تاريخيًا على القارئ الرقمي، لأن انتقال القراءة إلى فضاء قابل للبرمجة والربط والبحث هو الذي أتاح لاحقًا دخول الخوارزميات والذكاء الاصطناعي إلى مراحلها المختلفة.

كما تلتقي الممارستان في التعدد الوسائطي، لأن القارئ الرقمي يستطيع التعامل مع النص والصورة والصوت والفيديو، بينما يستفيد القارئ الهجين من البنية نفسها لكنه يضيف إليها مستوى جديدًا من التفاعل مع أنظمة تستطيع تحليل هذه المواد أو إعادة صياغتها أو الربط بينها. ومن هنا لا يكون الفرق في وجود الوسيط الرقمي بل في درجة ما يفعله الوسيط داخل النشاط.

وتؤكد الدراسات الحديثة للقراءة الرقمية أن نتائجها لا يحددها الحامل وحده، بل تتشكل من تفاعل كفايات القارئ والمتطلبات المعرفية وتصميم التقنية والسياق التعليمي أو المؤسسي، وهو ما يعزز رفض التعامل مع «الرقمي» بوصفه نمطًا واحدًا متجانسًا [12]. ومن ثم فإن القارئ الرقمي قد يمارس قراءة

عميقة أو سطحية، فردية أو اجتماعية، خطية أو شبكية، ولا يصبح هجينًا فقط لأنه يستعمل الشاشة .

حدود الاختلاف

يكمن الاختلاف الأساسي بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة في مستوى العملية الذي تدخله التقنية، ويمكن اختصار الفرق في مبدأ مركزي سيعتمد عليه هذا الكتاب :**كل قراءة هجينة تتضمن بعدًا رقميًا أو تقنيًا بدرجة ما، لكن ليست كل قراءة رقمية قراءة هجينة** .فالقراءة الرقمية تتحدد أولًا بحامل النص وخصائصه الإلكترونية، بينما تتحدد القراءة الهجينة بتوزيع بعض وظائف النشاط المعرفي بين الإنسان والأداة.

إذا فتح القارئ رواية على جهاز إلكتروني وقرأها من البداية إلى النهاية من دون أن تستعمل الخوارزمية في تنظيم اختياره أو أن يستخدم أدوات في فهمها، فإننا أمام قراءة رقمية لا نحتاج إلى وصفها بالهجين. وإذا قرأ شخص رواية ورقية لكنه استخدم هاتفه لترجمة بعض العبارات والبحث في سياقها التاريخي ثم دخل في حوار مع نظام توليدي يقارن بين تفسيره وتفسيرات بديلة، فإن تجربته تصبح هجينة رغم أن النص الأصلي ورقي. وهكذا لا تكون الشاشة هي المعيار، بل **البنية الوظيفية للقراءة**.

ويمكن التعبير عن الفرق بأن القراءة الرقمية تقوم على **رقمنة الوسيط**، بينما تقوم القراءة الهجينة على **تهجين العملية المعرفية**، وهو فرق يسمح بتجاوز كثير من الالتباس الاصطلاحي. فالوسيط قد يكون رقميًا بينما يبقى النشاط التأويلي بشريًا بصورة شبه كاملة، في حين قد تدخل التقنية في القراءة الورقية نفسها من خارج الكتاب وتغير طريقة بناء الفهم.

ويتصل بهذا الفرق معيار آخر هو **درجة الاعتماد المتكرر** .فقد يستخدم القارئ قاموسًا رقميًا مرة عابرة من دون أن يصبح ذلك بنية مستقرة في قراءته، بينما يصبح الاعتماد على مجموعة من الأدوات في الترجمة والاسترجاع والمقارنة جزءًا من أسلوبه المعرفي المعتاد، وعندها تصبح

الهجنة أكثر رسوخًا. ومن هنا يقترح الكتاب التفكير في «طيف للهجنة القرائية» يبدأ بوظائف بسيطة محدودة وينتهي بتفاعل حواري متكرر تدخل فيه الأنظمة الذكية إلى عمليات متقدمة من الفهم والتأويل.

ويجب ألا يُفهم ارتفاع درجة الهجنة باعتباره ارتفاعًا في جودة القراءة بصورة تلقائية، لأن القارئ الذي يفوض كل وظائف الفهم إلى النظام قد يكون أكثر هجنة من الناحية التقنية لكنه أقل استقلالًا من قارئ يستخدم أداة واحدة استخدامًا نقديًا. ولهذا لا تتطابق درجة الهجنة مع درجة الكفاءة، وهو تمييز ضروري حتى لا يتحول المفهوم إلى مقياس احتفالي لكمية التكنولوجيا المستخدمة.

المبحث الرابع: القارئ الشبكي والقارئ المعزز

القراءة داخل الشبكات

يُعد القارئ الشبكي مرحلة مهمة بين القارئ الرقمي والقارئ الهجين، لأنه لا يكتفي بقراءة نص على شاشة، بل يتحرك بين روابط ومصادر ومجتمعات وتفاعلات تجعل القراءة نشاطًا موزعًا على فضاء اتصالي واسع. وقد أظهر النص التشعبي منذ مراحله المبكرة أن القارئ يمكن أن يشارك بدرجة أكبر في تحديد مسار القراءة، ثم جاءت الشبكات الاجتماعية والمنصات الأدبية لتضيف إلى المسار روابط بشرية، بحيث يصبح الانتقال من نص إلى آخر مصحوبًا بالانتقال بين مراجعات وتعليقات وتوصيات ومجتمعات.

وتقدم دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية دليلًا واضحًا على هذا التحول، لأن المستخدمين لا يكتفون باستهلاك النصوص بل يراجعونها ويناقشونها ويضيفون تعليقات إليها ويشاركون اقتباساتها، وقد أصبحت هذه الممارسات موضوعًا لدراسات الأدب الرقمي والعلوم الإنسانية الرقمية [7][8]. ومن هنا يصبح القارئ الشبكي جزءًا من دورة تواصلية يتحول فيها التلقي بسهولة إلى كتابة، ويصبح الأثر الذي يتركه القارئ مادة لقراء آخرين، وهو ما يعيد بناء الجماعة التأويلية داخل بيئة متصلة .

وتتميز القراءة الشبكية كذلك باتساع السياق المحتمل، لأن القارئ يستطيع الانتقال من النص إلى سيرة المؤلف ثم إلى أرشيف أو مقابلة أو مرجع نقدي خلال دقائق، وهو ما يوسع أفق الفهم لكنه يضع عليه عبئًا جديدًا هو إدارة المسار. فالانتقال بين العقد لا يضمن بناء معرفة مترابطة، وقد يتحول التوسع إلى تشتت إذا لم يمتلك القارئ القدرة على تحديد ما يحتاج إليه وما يمكن تأجيله.

ولهذا لا يساوي القارئ الشبكي القارئ الهجين، لأن الشبكة توسع المجال الذي يتحرك فيه الإنسان لكنها لا تعني بالضرورة أن الآلة تشارك في عمليات فهمه. فإذا كان القارئ هو الذي يفتح الروابط ويختار المصادر

ويقيمها، فإن التقنية تنظم الفضاء لكنها لا تدخل بالضرورة إلى التأويل، أما عندما يبدأ النظام في اختيار الروابط نيابة عنه أو تلخيص المصادر أو اقتراح العلاقات بينها فإننا نقترب من الهجنة المعرفية.

القراءة المدعومة بالأدوات الذكية

يقوم مفهوم القارئ المعزز على مرحلة أكثر تقدمًا، حيث لا تكتفي التقنية بإتاحة الشبكة وإنما تساعد القارئ على تنفيذ وظائف كانت تتطلب وقتًا أو مهارة أو معرفة أكبر، مثل الترجمة الفورية، أو تحويل النص إلى صوت، أو استخراج تعريف، أو البحث داخل آلاف الصفحات، أو المقارنة الأولية بين مستندات. ويمكن تعريف «القراءة المعززة» في هذا الكتاب بأنها قراءة بشرية تستفيد من أدوات تقنية توسع إمكانات الوصول والفهم والاسترجاع والترجمة والمقارنة والسياق، من دون أن تنتقل بالضرورة إلى شراكة تأويلية عميقة مع الآلة.

وتكمن أهمية هذا المستوى في أنه يسمح بتحديد منطقة انتقالية بين الرقمي والهجين، لأن التقنية قد توسع قدرة القارئ من دون أن تصبح جزءًا من بنية القرار التأويلي. فالشخص الذي يستخدم أداة لتحويل نص ضعيف البصر إلى صوت يحصل على تعزيز للوصول، والذي يستعمل قاموسًا آليًا يحصل على تعزيز لغوي، والذي يستخدم البحث الدلالي لاستدعاء مواضع متفرقة يحصل على تعزيز للاسترجاع، لكن هذا كله لا يعني أن الآلة شاركت في بناء معنى العمل بالمستوى نفسه الذي يحدث عندما تولد تفسيرًا ويناقشها القارئ حوله.

ويمكن تقسيم القراءة المعززة إلى ثلاث درجات وظيفية :**تعزيز الوصول** حين تزيل التقنية عائقًا يحول دون الوصول إلى النص، و**تعزيز الفهم** حين تقدم شرحًا أو ترجمة أو سياقًا، و**تعزيز الاستكشاف** حين تساعد في المقارنة والبحث وربط المواد. وتبدأ الهجنة الأكثر وضوحًا حين ينتقل النظام من تقديم مورد يمكن للقارئ استخدامه إلى الدخول في سلسلة من الأسئلة والأجوبة تعيد تشكيل فرضياته.

ومن هنا يمكن صياغة قاعدة عملية مفادها أن الأداة المعززة تقود القارئ إلى النص، بينما الأداة البديلة قد تعفيه من النص، وهي قاعدة تسمح بالتمييز بين الاستعمال الذي يوسع فعل القراءة والاستعمال الذي يستبدله. فإذا قدم النظام للقارئ معنى كلمة ليعود إلى القصيدة، فإنه يعزز القراءة، أما إذا قدم له «معنى القصيدة» فاستغنى عن قراءتها، فقد انتقلنا من التعزيز إلى الاستبدال.

المبحث الخامس: خصائص القارئ الهجين

التعدد الوسائطي والتفاعلية

يتصف القارئ الهجين أولًا بقدرته على التحرك داخل بيئة متعددة الوسائط دون أن يتقيد بنظام سيميائي واحد ، لأن النص يمكن أن يظهر إلى جانب الصورة والصوت والفيديو والخرائط والروابط والرسوم التفاعلية، وقد تصبح هذه العناصر جزءًا من بناء الفهم لا إضافات خارجة عنه. ولا يعني ذلك أن كل قارئ يتعامل مع فيديو ونص يصبح هجينًا بالمعنى الكامل، لكن التعدد الوسائطي يخلق أحد الشروط التي تسهل توزيع الوظائف بين وسائط مختلفة.

وتظهر الهجنة بدرجة أكبر عندما لا يكون التفاعل محدودًا بالاختيار بين عناصر ثابتة، بل يصبح النظام قادرًا على الاستجابة للقارئ وتعديل المخرج تبعًا لسؤاله، لأن القراءة هنا تنتقل من التفاعل مع واجهة صامتة إلى التفاعل مع وسيط قادر على توليد استجابة. ويصبح السؤال نفسه جزءًا من القراءة، كما يصبح تغيير السؤال وسيلة لإعادة تشكيل ما يقدمه النظام ، وهو ما يجعل التجربة أقرب إلى دورة حوارية منها إلى استهلاك مادة مكتملة.

ويتصل بذلك أن القارئ الهجين لا يستهلك النص في صورة واحدة فقط، بل يستطيع تحويله بين أوضاع متعددة؛ فقد يقرأه ثم يستمع إليه، أو يطلب تلخيصه أو تحويل عناصره إلى جدول أو مقارنة أو شرح، وبذلك يصبح المحتوى قابلًا للتحول وفق المهمة. وتمنح هذه المرونة القارئ قدرة واسعة على تخصيص التجربة، لكنها تفرض عليه مسؤولية معرفة أثر كل تحويل، لأن تحويل الرواية إلى ملخص أو القصيدة إلى شرح ليس إجراءً بريئًا ، بل يغير ما يصل من العمل.

وتكشف هنا فكرة «التكوين التقني» عند هايلز أهميتها مرة أخرى، لأن العلاقة بين الإنسان والوسائط لا تفهم بوصفها استخدامًا خارجيًا بحتًا ، بل بوصفها بيئة تتغير داخلها الممارسات نفسها [4]. فالذي يعتاد القراءة مع البحث والتعليق والاسترجاع الفوري قد يطور استراتيجيات مختلفة عن قارئ

يتعامل مع نص مغلق، وهو ما يجعل القارئ الهجين ليس صاحب مجموعة أدوات فقط بل صاحب عادات معرفية تشكلت مع الأدوات) .

السرعة والانتقال وإعادة الإنتاج

تتمثل الخاصية الثانية في ارتفاع قدرة القارئ على الانتقال بين المستويات والمصادر، لأن البحث والروابط والواجهات التفاعلية تتيح الوصول السريع إلى معلومات كانت تحتاج سابقًا إلى وقت طويل، بينما يضيف الذكاء الاصطناعي إمكانية اختصار مراحل كاملة من البحث الأولي. ويمنح ذلك القارئ قدرة غير مسبوقة على توسيع سياقه، لكنه يهدد كذلك بتحويل السرعة من وسيلة إلى معيار، بحيث يشعر أن كل تأخير في الفهم مشكلة يجب أن تحلها الأداة.

ولهذا فإن القارئ الهجين الناضج لا يتحدد بالسرعة نفسها بل بقدرته على إدارة السرعات؛ فهو يعرف متى يستخدم البحث الفوري ومتى يحتاج إلى الإقامة داخل النص، ومتى يستفيد من التلخيص ومتى يكون تلخيص النص بنفسه جزءًا من التعلم ، ومتى يسأل النظام ومتى يؤجل السؤال حتى يبني تفسيره الأولي. ومن هنا يرتبط مفهوم القارئ الهجين بالفصل السابق حول القراءة العميقة، لأن الهجنة التي لا تحافظ على القدرة على البطء قد تتحول إلى اعتماد على التقاط المعلومات بدل بناء المعنى.

وتتمثل خاصية ثالثة في إعادة الإنتاج، لأن الحدود بين القراءة والكتابة أصبحت أقل صرامة داخل البيئة الرقمية؛ فالقارئ يستطيع اقتباس النص ومشاركته والتعليق عليه وإعادة تركيبه في منشور أو مراجعة أو حاشية أو عمل مشتق، بينما يستطيع الذكاء الاصطناعي مساعدته في إعادة الصياغة والتنظيم. وقد بينت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن ممارسات التعليق والمراجعة والكتابة المرتبطة بالقراءة أصبحت جزءًا واسعًا من التفاعل الأدبي في المنصات [7][8]، وهو ما يجعل القارئ المعاصر منتجًا لطبقة من الخطاب حول النص يمكن أن تدخل بدورها في تلقي قراء آخرين

ومن هنا يصبح القارئ الهجين قادرًا على التحرك في دورة تبدأ بالاستقبال وتنتهي بإنتاج محتوى يعود إلى الشبكة، وهو ما يقربه من مفهوم القارئ المنتج الذي سيعالجه الكتاب بصورة أكثر تفصيلًا لاحقًا. غير أن إعادة الإنتاج تحمل بدورها مخاطر الاختزال، لأن سهولة اقتطاع الجمل ونشرها قد تفصلها عن السياق، كما أن التلخيص الآلي يمكن أن ينشر تمثيلًا للعمل يصبح أكثر تداولًا من الأصل، ولذلك يجب أن يرتبط الإنتاج المعزز بالوعي بالمصدر والسياق.

وتتصف الهجنة كذلك بقابلية التخصيص؛ فالقارئ يستطيع أن يطلب من النظام مستوى معينًا من الشرح أو لغة مختلفة أو مقارنة تلائم اهتمامه، وهو ما يمنح القراءة مرونة كبيرة، لكنه قد ينتج «قراءة على مقاس القارئ» تقل فيها فرصة مواجهة المختلف أو الصعب. ومن هنا يظهر التوتر بين التخصيص والمفاجأة الثقافية، لأن القراءة ليست فقط الحصول على ما يتفق مع حاجاتنا، بل يمكن أن تكون مواجهة لنص يقاوم عاداتنا ويغيرها.

المبحث السادس: شروط تحقق الهجنة القرائية

مشاركة الآلة في عمليات القراءة

لا تتحقق الهجنة القرائية، وفق التعريف المقترح، لمجرد وجود جهاز أو اتصال بالشبكة، وإنما تبدأ عندما تشارك التقنية بصورة وظيفية في بعض العمليات التي يتكون منها النشاط القرائي. ويمكن ترتيب هذه المشاركة على طيف يبدأ بمستوى ضعيف ثم يتدرج نحو مستويات أكثر عمقًا، بما يسمح بتحديد اللحظة التي يصبح عندها استعمال التقنية جزءًا من بنية القراءة بدل أن يظل مرفقًا خارجيًا.

يتمثل المستوى الأول في المشاركة في الوصول، عندما تساعد التقنية القارئ على العثور على النص أو تحويله إلى صيغة يمكنه استخدامها، وهو المستوى الأقرب إلى القراءة الرقمية. ويأتي بعده مستوى الاسترجاع والتنظيم، حيث تستخدم أدوات البحث والفهرسة والذاكرة الرقمية في تحديد المواضع وتجميع الملاحظات وربط المواد، ثم المستوى التفسيري المساعد الذي تدخل فيه الترجمة والشرح والتبسيط والسياق، ويليه المستوى التحليلي حيث تبدأ الأداة في المقارنة واستخراج العلاقات وبناء التصنيفات، ثم المستوى التأويلي الاقتراحي عندما يولد النظام فرضيات حول معنى النص، وأخيرًا المستوى الحواري الذي يصبح فيه القارئ والنظام داخل دورة من السؤال والجواب والاعتراض وإعادة الصياغة.

ولا تعني هذه المستويات أن كل انتقال إلى درجة أعلى يمثل تقدمًا قرائيًا، لأن قيمة التدخل تتحدد بحسب المهمة. فقد تكون أفضل قراءة لقصيدة قصيرة هي إبقاء النظام خارجها في المرحلة الأولى، بينما يكون استعماله في استعادة مرجع تاريخي ضروريًا بعد ذلك، ولذلك فإن الكفاءة الحقيقية لا تتمثل في الوصول إلى أعلى درجة من المشاركة التقنية، وإنما في اختيار الدرجة المناسبة لكل مهمة.

ومن هنا يمكن اقتراح معيارين لقياس الهجنة: الأول هو عدد الوظائف التي تشارك فيها التقنية، والثاني هو عمق هذه الوظائف بالنسبة إلى إنتاج المعنى .فالقارئ الذي يستخدم خمس أدوات سطحية قد لا يكون أكثر هجنة معرفيًا من شخص يدخل في حوار تأويلي واحد يعيد تشكيل قراءته. ولهذا لا يمكن قياس الهجنة بعدد التطبيقات المستخدمة، بل بموقع تدخلها داخل دورة القراءة.

كما ينبغي أن يكون هناك شرط ثالث هو **التكامل الفعلي**، لأن استعمال أداة منفصلة مرة عرضية لا يكفي دائمًا للحديث عن بنية هجينة. وتصبح الهجنة أكثر وضوحًا عندما تدخل التقنية في سير العمل بحيث يعتمد القارئ عليها بصورة متكررة ويطور مهارات لإدارتها ومراجعتها. ويمكن هنا الاستفادة من أطروحات العقل الممتد والإدراك الموزع، التي تؤكد أهمية العلاقات المستقرة والعملية بين الفرد والموارد الخارجية عند تحليل النظام المعرفي [9 .[10][

غير أن شرط الاستقرار لا يعني التبعية المطلقة؛ فالاعتماد الذي يلغي قدرة القارئ على العمل عند غياب النظام يطرح مشكلة مختلفة يمكن تسميتها **الاستلاب الخوارزمي للقارئ**، حين لا تعود الأداة توسع قدرته بل تصبح شرطًا لقيامه بالوظيفة التي كان ينبغي أن يحتفظ بحد أدنى منها. ومن هنا تتضح الطبيعة المتناقضة للهجنة: فهي يمكن أن تكون توسعًا أو إفقارًا بحسب إدارة الحدود بين الإنسان والأداة.

تحول التقنية من أداة إلى شريك معرفي

تمثل عبارة «الشريك المعرفي» أكثر نقاط هذا الفصل حساسية، لأنها قد توحي بسهولة بمساواة الأنظمة الذكية بالإنسان، ولذلك يستخدمها الكتاب بمعنى وظيفي محدد. فالآلة تصبح **شريكًا معرفيًا وظيفيًا** عندما لا تكتفي بتنفيذ أمر تقني بسيط، بل تدخل في دورة يتغير فيها نشاط القارئ استجابة لما تنتجه، ويتغير مخرج النظام استجابة لسؤال القارئ، بحيث تقوم بين الطرفين علاقة تكرارية تؤثر في مسار الفهم.

ويمكن توضيح الفرق بين الأداة والشريك من خلال مثال بسيط؛ فالمسطرة التي يضع بها القارئ خطًا تحت جملة أداة، لأنها لا تعيد إليه أي اقتراح، والقاموس الورقي يظل مرجعًا ثابتًا نسبيًا، بينما النظام الحواري الذي يقدم تفسيرًا ثم يعيد صياغته بعد اعتراض القارئ يدخل في علاقة أكثر دينامية. غير أن هذا لا يجعله شريكًا إنسانيًا في التجربة، بل يجعله عنصرًا تفاعليًا في النظام المعرفي.

ويقترب هذا الفهم من إطار سوندار حول الفاعلية الآلية ومن التصورات التي قدمها كلارك حول استعداد البشر لدمج الأدوات في أنظمتهم المعرفية، إذ يرى كلارك في *Natural-Born Cyborgs* أن البشر يتميزون تاريخيًا بقدرة واسعة على بناء روابط مع الأدوات التي توسع قدراتهم [11][13]. ولا يحتاج الكتاب إلى تبني وصف «السايبورغ الطبيعي» بصورة حرفية، لكنه يستفيد منه في تأكيد أن العلاقة الوثيقة بالتقنيات ليست مجرد ظاهرة مستجدة، بينما يكمن الجديد الحالي في نوع الوظائف اللغوية والتفسيرية التي أصبحت التقنية تستطيع أداءها .وتثبت بيانات Oxford University Press لكتاب كلارك موقعه ضمن النقاش حول العقل والتكنولوجيا ومستقبل الذكاء البشري .[13]

ومن هنا يكون الانتقال من الأداة إلى الشريك المعرفي مرتبطًا بثلاثة شروط مترابطة :التفاعلية بحيث يستجيب النظام للقارئ، والتوليد بحيث لا يعرض موردًا ثابتًا فقط بل ينتج مخرجًا جديدًا، والتأثير الرجعي بحيث يؤدي المخرج إلى تغيير السؤال أو مسار القراءة. فإذا غاب الشرط الأخير، فقد يبقى النظام مجرد أداة متقدمة؛ أما إذا أصبح القارئ يراجع تفسيره استجابة للمخرجات ويعيد السؤال في ضوء ما قرأ، فإننا ندخل بوضوح في بنية هجينة.

ومع ذلك ينبغي أن يقترن مفهوم الشراكة الوظيفية بمبدأ مضاد يمنع الانزلاق إلى التبعية، وهو مبدأ بقاء الإنسان في دائرة التأويل .فالقارئ هو الذي ينبغي أن يقرر متى يستدعي النظام، وما الذي يقبله من جوابه، ومتى

يحتاج إلى تحقق مستقل، وما إذا كان المخرج متوافقًا مع النص والسياق. وإذا اختفى هذا الدور وتحولت المخرجات إلى أجوبة تتلقى بلا مراجعة، لم نعد أمام شراكة معرفية ناضجة بل أمام **تفويض معرفي** قد يصل إلى الاستبدال.

وبهذا يمكن التمييز بين أربعة أنماط للعلاقة: علاقة أداتية تنفذ فيها التقنية وظيفة محدودة، وعلاقة معززة توسع فيها بعض قدرات القارئ، وعلاقة هجينة تتوزع فيها وظائف معرفية مع استمرار الإدارة البشرية، وعلاقة استبدالية تنتقل فيها الوظائف الأساسية إلى النظام بينما يتحول الإنسان إلى مستهلك للمخرجات. ولا ينبغي لنظرية القارئ الهجين أن تتوقف عند وصف النمط الثالث، بل عليها أن تمتلك الأدوات النقدية التي تمنع انزلاقه إلى الرابع.

وهنا تتحدد الحدود النظرية للمفهوم بصورة أدق؛ فالقارئ الهجين ليس القارئ الأكثر استخداماً للتكنولوجيا، ولا القارئ الذي يثق بالآلة أكثر، ولا القارئ الذي يستطيع الحصول على الأجوبة أسرع، وإنما هو القارئ الذي يدمج التقنية في فعل القراءة من دون أن يسلمها حق الحكم نيابة عنه .وتصبح الهجنة ناضجة حين يعرف الإنسان ما الذي يمكن أن يفوضه وما الذي ينبغي أن يحتفظ به، وحين يستخدم النظام لتوسيع مساحة السؤال بدل تقليصها، وحين يعود من المخرج إلى النص بدل أن يستبدل النص بالمخرج.

الحدود النظرية لمفهوم القارئ الهجين

يقتضي تأسيس أي مفهوم جديد بيان ما لا يعنيه بقدر بيان ما يعنيه، ولذلك ينبغي رسم مجموعة من الحدود تمنع توسع «القارئ الهجين» حتى يصبح اسماً فضفاضًا لكل قراءة معاصرة. يتمثل الحد الأول في أن الهجنة ليست مرادفًا للرقمنة، لأن تغير الحامل لا يعني بالضرورة تغير توزيع الوظائف المعرفية، ويتمثل الحد الثاني في أنها ليست مرادفًا للتعدد الوسائطي، لأن الجمع بين النص والصورة والصوت يمكن أن يحدث من دون مشاركة خوارزمية في الفهم، بينما يتمثل الحد الثالث في أنها ليست مرادفًا للقراءة الشبكية، لأن

الاتصال بقراء ومصادر أخرى يوسع السياق لكنه لا يساوي بالضرورة التكامل البشري ـ الآلي.

أما الحد الرابع فيتمثل في أن القارئ الهجين ليس «قارئًا اصطناعيًا»، لأن المفهوم لا يصف نظام ذكاء اصطناعي يقرأ النصوص بمعزل عن الإنسان، بل يصف ممارسة بشرية تدخل فيها الآلة بوظيفة وسيطة أو معززة أو اقتراحية. ويتمثل الحد الخامس في أن الهجنة لا تعني المساواة بين الطرفين؛ فالتفاعل قد يكون شديدًا، لكن الخبرة والمسؤولية والتقييم الأخلاقي تظل بشرية. ويتمثل الحد السادس في أن الهجنة ليست بالضرورة قيمة إيجابية، لأنها يمكن أن تنتج توسعًا معرفيًا أو اعتمادًا مفرطًا بحسب شروطها.

ومن هنا يقترح البحث أن يوضع مفهوم القارئ الهجين داخل سلسلة مفاهيم متدرجة تساعد على ضبطه :**القارئ الرقمي** هو الذي يقرأ عبر وسيط إلكتروني، و**القارئ الشبكي** هو الذي تتحرك قراءته عبر روابط وجماعات ومصادر متصلة، و**القارئ المعزز** هو الذي تستخدم التقنية لتوسيع بعض قدراته، و**القارئ الهجين** هو الذي تتوزع بعض وظائف قراءته بصورة أعمق بين قدراته والأدوات، و**القارئ الميتا خوارزمي** هو الذي يضيف إلى هذه الهجنة وعيًا نقديًا بالنظام الذي يتدخل فيها، بينما يمثل **القارئ ما بعد الخوارزمي** أفقًا نظريًا تصبح فيه الوساطة مندمجة في البيئة إلى حد يتراجع معه إحساس المستخدم بحدودها.

ولا تشكل هذه السلسلة سلمًا زمنيًا حتميًا، لأن الشخص نفسه يستطيع الانتقال بينها في اليوم الواحد، كما تستطيع أشكال القراءة التقليدية أن تتعايش معها. والغرض منها هو توفير لغة تحليلية تسمح بتحديد نوع الممارسة بدل وضع جميع استخدامات التقنية تحت عنوان واحد.

خاتمة الفصل

يؤسس هذا الفصل لمفهوم «القارئ الهجين» انطلاقًا من تاريخ طويل لفكرة الهجنة ومن التحولات التي أدخلتها الثقافة الرقمية على العلاقة بين الإنسان والوسيط، لكنه يحرص في الوقت نفسه على عدم استنساخ الهجنة الثقافية أو صورة السايبورغ أو أطروحة العقل الممتد وإسقاطها آليًا على القراءة. فالمفهوم المقترح هنا ينتمي إلى نظرية القراءة ويحتاج إلى تعريف وظيفي خاص به، ولذلك جرى تحديده بوصفه قارئًا بشريًا تدخل الأدوات الرقمية والخوارزمية والذكاء الاصطناعي في بعض وظائف قراءته بدرجات متفاوتة، مع استمرار الإنسان في تحمل المسؤولية عن الاختيار والتحقق والحكم.

وقد أظهر التحليل أن الهجنة ليست في الجهاز الذي يحمل النص، بل في العلاقة المعرفية التي تنشأ أثناء القراءة، ولذلك يستطيع النص الورقي أن يدخل في قراءة هجينة كما تستطيع الشاشة أن تستضيف قراءة رقمية غير هجينة. ومن هنا يصبح الفرق بين القارئ الرقمي والقارئ الهجين فرقًا بين رقمنة الوسيط وتهجين العملية، ويصبح القارئ الشبكي والقارئ المعزز مرحلتين أو نمطين وسيطين يساعدان على فهم الانتقال من الاتصال بالأدوات إلى توزيع بعض الوظائف عليها.

كما تبين أن القارئ الهجين لا ينبغي أن يقاس بعدد الأدوات التي يستخدمها، بل بدرجة دخولها إلى عمليات الوصول والاسترجاع والشرح والمقارنة والتأويل، وأن هذا الدخول لا يمكن تقييمه إيجابًا أو سلبًا بعيدًا عن موقع القارئ في العلاقة. فإذا بقي الإنسان قادرًا على تحديد السؤال والعودة إلى النص ومراجعة المخرج ورفضه، فإن الهجنة تستطيع أن تكون توسعًا في المجال المعرفي، أما إذا تحولت المخرجات إلى بدائل عن القراءة وأصبحت الوظائف تفوض بلا تحقق، فإن الهجنة تنزلق إلى التبعية.

وبذلك يمكن صياغة التعريف النظري الذي سيعتمده الكتاب في الفصول اللاحقة على النحو الآتي :القارئ الهجين هو قارئ بشري تتوزع بعض وظائف قراءته، بدرجات متفاوتة، بين قدراته اللغوية والمعرفية والتأويلية وبين

وسائط رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي تؤدي وظائف الوصول والاسترجاع والتنظيم والشرح والمقارنة والتوليد، ضمن علاقة تفاعلية يحتفظ فيها الإنسان بالسيادة التأويلية والمسؤولية عن الحكم النهائي.

وتسمح هذه الصيغة بتحديد المبدأ الذي يفصل الهجنة الخلاقة عن الهجنة التابعة، إذ لا تكون التقنية ذات قيمة لأنها تستطيع أداء وظائف أكثر، وإنما لأنها تدخل في الموضع الذي توسع فيه قدرة القارئ دون أن تلغي الممارسة التي يحتاج إليها لبناء معرفته. ولذلك يمكن تلخيص الحدود النظرية للمفهوم في قاعدة ستكون حاضرة في بقية الكتاب :الهجنة ليست مقدار التقنية داخل القراءة، بل طبيعة العلاقة النقدية التي يقيمها القارئ مع التقنية.

ومن هنا يصبح السؤال التالي أكثر تحديداً: إذا كانت الهجنة درجات وليست حالة واحدة، فما الأنماط التي يمكن أن يتخذها القارئ الهجين، وكيف يمكن التمييز بين القارئ الهجين البسيط، والشبكي، والاجتماعي، والمعزز، والتوليدي، والنقدي؟ وهو السؤال الذي سيقود مباشرة إلى الفصل التالي المخصص لأنماط القارئ الهجين ودرجات الهجنة.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Bhabha, Homi K.** *The Location of Culture*. London/New York: Routledge, 1994.

يُستفاد منه في تأصيل مفهوم الهجنة داخل الدراسات الثقافية وما بعد الاستعمارية، ولا سيما في تفكيك الحدود الصلبة بين الهويات والثقافات ومفهوم الفضاء البيني، مع التأكيد أن مفهوم القارئ الهجين المقترح في هذا الكتاب ليس نقلًا مباشرًا لنظرية بابا. وتصف Routledge **الكتاب بأنه يقدم نظرية للهجنة الثقافية من خلال مفاهيم مثل المحاكاة والهجنة والحدية والفضاء البيني**(Routledge) .

[2] **Burke, Peter.** *Cultural Hybridity*. Cambridge: Polity, 2009.

يمثل مرجعًا مهمًا في دراسة التفاعل والاختلاط والتبادل الثقافي، ويستفاد منه خصوصًا في النظر إلى التهجين بوصفه عملية ذات درجات بدل اعتباره حالة ثنائية ثابتة. وتشير أعمال بيرك إلى فائدة مفهوم hybridization **في التفكير في «الأكثر والأقل» بدل الحضور والغياب المطلقين**(Wiley-VCH) .

[3] **Haraway, Donna J.** *Simians, Cyborgs, and Women: The Reinvention of Nature*. New York/London: Routledge, 1991، **ويتضمن** "A Cyborg Manifesto".

يفيد في الخلفية النظرية المتعلقة بتفكيك الحدود بين الإنسان والتقنية والطبيعة والثقافة، مع عدم مساواة مفهوم السايبورغ بمفهوم القارئ الهجين في هذه الدراسة(Routledge) .

[4] **Hayles, N. Katherine.** *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.

مرجع مركزي في دراسة التطور المتبادل بين البشر والتقنيات وفي تحليل التفكير والقراءة داخل البيئات الرقمية، كما يقدم مدخلًا إلى دراسات الوسائط المقارنة والتحولات المعرفية المتصلة بالوسائط(University of Chicago Press) .

[5] **Manovich, Lev.** *The Language of New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 2001.
يُستفاد منه في تحليل الواجهة وقاعدة البيانات والأشكال الخاصة بالوسائط الجديدة وفي فهم انتقال المستخدم من التعامل مع النص وحده إلى التفاعل مع بنية برمجية تنظم ظهوره ومساراته(MIT Press) .

[6] **Jenkins, Henry.** *Convergence Culture: Where Old and New Media Collide*. New York: New York University Press, 2006.
يفيد في تحليل التقاء الوسائط القديمة والجديدة وتغير العلاقات بين المنتجين والمستهلكين والثقافات التشاركية التي يتحول فيها المتلقي بدرجات مختلفة إلى مشارك في تداول المحتوى وإعادة إنتاجه(NYU Press) .

[7] **Rebora, Simone; Boot, Peter; Pianzola, Federico; Gasser, Brigitte; Herrmann, J. Berenike; Kraxenberger, Maria; Kuijpers, Moniek; Lauer, Gerhard; et al.** "Digital Humanities and Digital Social Reading." *Digital Scholarship in the Humanities*, Vol. 36, Supplement 2, 2021, pp. ii230–ii250.
مرجع مهم في تعريف القراءة الاجتماعية الرقمية وفي دراسة التعليقات والمراجعات والمناقشات والكتابة التي تتشكل حول النصوص داخل المنصات الرقمية(OUP Academic) .

[8] **Pianzola, Federico.** *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.
يوفر مرجعًا حديثًا لفهم الأشكال الاجتماعية للقراءة الرقمية وكيف تعيد التطبيقات والمنصات تنظيم مشاركة القراء وتفاعلهم حول الأدب(MIT Press) .

[9] **Clark, Andy & Chalmers, David.** "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.
يمثل الأساس الفلسفي لأطروحة العقل الممتد وفكرة الدور النشط لبعض الموارد الخارجية في النشاط المعرفي، ويُستفاد منه في هذه الدراسة بوصفه خلفية لا تعريفًا جاهزًا للقارئ الهجين(DOI) .

[10] Hutchins, Edwin. *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.
مرجع تأسيسي في الإدراك الموزع، ويفيد في النظر إلى بعض الأنشطة المعرفية بوصفها واقعة داخل أنظمة تتفاعل فيها الأفراد والأدوات والممارسات الثقافية بدل حصر التحليل في الفرد المنعزل(MIT Press) .

[11] Sundar, S. Shyam. "Rise of Machine Agency: A Framework for Studying the Psychology of Human–AI Interaction (HAII)." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 25, No. 1, 2020, pp. 74–88. DOI: 10.1093/jcmc/zmz026.
يُستفاد منه في ضبط مفهوم الفاعلية الآلية وظيفيًا وفي تحليل انتقال النظام من أداة جامدة إلى عنصر قادر على تنفيذ أفعال واقتراحات تؤثر في خبرة المستخدم، مع بروز أسئلة الشفافية والتحكم والثقة(DOI) .

[12] Alkhalaf, Abdulrahman. "Digital Reading in Higher Education: Trends, Behaviours, and Evidence-Based Strategies—A Systematic Review." *International Journal of Learning, Teaching and Educational Research*, Vol. 25, No. 7, 2026.
تستفاد منه في تأكيد أن نتائج القراءة الرقمية تتشكل من تفاعل كفايات القارئ والمتطلبات المعرفية وتصميم التكنولوجيا والسياق، وليس من الحامل منفردًا، وهو ما يساند التمييز بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة .
(IJLTER)

[13] Clark, Andy. *Natural-Born Cyborgs: Minds, Technologies, and the Future of Human Intelligence*. New York: Oxford University Press, 2003.
يفيد في التفكير في استعداد البشر التاريخي لدمج الأدوات والتقنيات داخل أنشطتهم المعرفية، مع التأكيد أن مفهوم القارئ الهجين في هذا الكتاب أضيق ويظل مرتبطًا على وجه التحديد بفعل القراءة والتلقي(Google Books) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في ثلاث دوائر متكاملة؛ إذ تقدم أعمال بابا وبيرك وهاراواي [1–3] الخلفية الإنسانية والثقافية لمفهوم الهجنة وتساعد على تفكيك التصورات الثنائية الصلبة، بينما تسمح أعمال هايلز ومانوفيتش وجنكينز ودراسات القراءة الاجتماعية الرقمية [4–8] بفهم انتقال التفاعل والهجنة إلى البيئة الرقمية والشبكية وتداخل الوسائط والممارسات، في حين توفر أعمال كلارك وتشالمرز وهاتشنز وسوندار وكلارك [9–11][13] الأساس المعرفي والفلسفي لتحليل العلاقة المتزايدة بين النشاط البشري والأدوات والفاعلية الآلية، ويضيف البحث الحديث في القراءة الرقمية [12] ما يدعم ضرورة التمييز بين مجرد استعمال الوسيط الإلكتروني وبين التحول الأعمق في بنية الممارسة القرائية.

ومن تقاطع هذه المرجعيات لا يستمد هذا الكتاب تعريفًا جاهزًا لمفهوم «القارئ الهجين»، وإنما يبني مفهومه الخاص بوصفه فرضية نظرية قابلة للتطوير والاختبار، قوامها أن الهجنة القرائية تبدأ عندما تنتقل التقنية من محيط النص إلى داخل بعض وظائف القراءة، لكنها لا تصبح ممارسة نقدية ناضجة إلا عندما يحتفظ القارئ بقدرته على إدارة هذا التدخل ومساءلته والعودة منه إلى النص بدل السماح له بأن يحل محل النص أو الحكم البشري عليه.

الفصل الخامس

أنماط القارئ الهجين ودرجات الهجنة

إذا كان الفصل السابق قد حاول تأسيس مفهوم «القارئ الهجين» ورسم حدوده النظرية وتمييزه عن القارئ الرقمي والشبكي والمعزز، فإن الانتقال من التعريف إلى بناء نظرية أكثر قابلية للاستخدام يقتضي التخلي عن تصور القارئ الهجين بوصفه نموذجًا واحدًا مغلقًا، والانتقال بدل ذلك إلى التفكير فيه باعتباره طيفًا من الممارسات تتفاوت فيه درجة دخول التقنية إلى فعل القراءة من المستوى المادي والوسائطي البسيط إلى المستوى المعرفي والتأويلي الأكثر تركيبًا. فالقارئ لا يصبح هجينًا بطريقة واحدة، كما أن استعماله للأدوات لا يبقى بالدرجة نفسها في جميع النصوص والمهام، بل يستطيع أن يبدأ بقراءة كتاب مطبوع ثم ينتقل إلى نسخة إلكترونية منه، أو يستخدم الروابط ومحرك البحث، أو يشارك في مجتمع رقمي للقراء، أو يستعين بأدوات الترجمة والتلخيص، أو يدخل في حوار مع نظام توليدي حول معنى النص، وقد يضيف إلى جميع هذه الممارسات مستوى نقديًا يفحص فيه الخوارزمية ذاتها ويقاوم ميلها إلى تنظيم ما يراه وكيف يراه.

ومن هنا لا يتعامل هذا الفصل مع الأنماط الستة المقترحة باعتبارها شخصيات منفصلة ينتمي كل قارئ إلى واحدة منها بصورة دائمة، وإنما بوصفها درجات وظيفية للهجنة يستطيع الفرد نفسه أن ينتقل بينها خلال فعل قرائي واحد، فقد يبدأ قارئًا هجينًا بسيطًا حين يتنقل بين النسخة الورقية والرقمية، ثم يصبح شبكيًا عندما يبحث في الإحالات والروابط، واجتماعيًا عندما يقرأ مراجعات الآخرين أو يناقش الكتاب معهم، ومعززًا عندما يستخدم الترجمة أو البحث الذكي، وتوليديًا عندما يدخل في حوار مع نظام ذكاء اصطناعي حول العمل، ثم نقديًا إذا أخضع نتائج هذه الأنظمة ومنطق توصياتها ومصادرها وافتراضاتها للمساءلة. ولذلك فإن ما نبحث عنه ليس تصنيف الأشخاص بقدر ما هو تصنيف أوضاع القراءة، وهو

تمييز ضروري حتى لا يتحول مفهوم القارئ الهجين إلى هوية ثابتة أو إلى وصف فضفاض لكل مستخدم للتقنية.

كما لا ينبغي أن يُفهم ترتيب الأنماط الوارد في هذا الفصل باعتباره سلمًا للقيمة ترتفع فيه جودة القراءة كلما اقتربنا من القارئ التوليدي أو النقدي، لأن زيادة تدخل التقنية لا تعني تلقائيًا زيادة الفهم، وقد يكون قارئ يعتمد على عدد قليل من الأدوات أكثر استقلالًا وعمقًا من قارئ يوظف أنظمة كثيرة لكنه يقبل نتائجها من دون مراجعة. إن ما يرتفع من نمط إلى آخر هو، أساسًا، **عمق تدخل الوسيط في وظائف القراءة**، لا القيمة الأدبية أو الفكرية للقارئ، ومن هنا ينبغي أن نظل أوفياء للقاعدة التي جرى تأسيسها في الفصل السابق، ومفادها أن الهجنة لا تقاس بمقدار التكنولوجيا داخل القراءة فقط، بل بطبيعة العلاقة التي يقيمها الإنسان معها وبدرجة احتفاظه بالسيادة التأويلية.

المبحث الأول: القارئ الهجين البسيط

الجمع بين الورق والشاشة

يمثل القارئ الهجين البسيط الدرجة الأولى والأكثر وضوحًا من التداخل بين أنظمة القراءة، لأنه يجمع بين الحامل الورقي والحامل الرقمي من دون أن تكون التقنية قد دخلت بعد بصورة عميقة في إنتاج المعنى أو التأويل، ولذلك يمكن النظر إلى هذا النمط باعتباره هجنة مادية ووسائطية تمهيدية أكثر منه هجنة معرفية مكتملة. فالقارئ قد يبدأ كتابًا ورقيًا في المنزل، ثم يواصل قراءة نسخة إلكترونية أثناء السفر، وقد يرجع إلى النسخة المطبوعة للتدوين في الهامش ثم يستخدم ملفًا رقميًا للبحث عن كلمة أو اقتباس، وهو في هذه الحالة لا يستبدل وسيطًا بآخر نهائيًا، بل يبني ممارسة تتحرك بينهما بحسب الوظيفة والظرف.

ولا تمثل هذه الممارسة حالة استثنائية في الثقافة الرقمية، لأن الوسائط الجديدة لم تنشأ تاريخيًا من خلال إلغاء الوسائط السابقة، بل غالبًا عن طريق إعادة تمثيلها واستيعاب بعض خصائصها، وهو ما صاغه جاي ديفيد بولتر وريتشارد غروسن في مفهوم «إعادة الوساطة»، حيث تعيد الوسائط الرقمية تشكيل أشكال سبقتها بدل أن تقطع معها بصورة مطلقة [1]. ويتيح هذا المدخل فهم استمرار الصفحة والغلاف والفهرس والتظليل والهامش داخل الكتاب الإلكتروني بوصفه دليلًا على أن الثقافة الرقمية تحمل داخلها آثار الثقافة الطباعية، وأن القارئ المعاصر لا ينتقل دائمًا من عالم ورقي انتهى إلى عالم رقمي بدأ، بل يعيش في فضاء تتجاور فيه الأنظمة القديمة والجديدة وتتبادل الوظائف .

ويكتسب هذا الجمع بين الورق والشاشة أهمية نظرية أكبر مما قد يبدو لأول وهلة، لأن كل حامل يقدم للقارئ إمكانات تختلف جزئيًا عن الآخر؛ فالكتاب المطبوع يمنحه علاقة مادية مستقرة بالصفحة وحضورًا محسوسًا لبنية العمل، في حين تسمح النسخة الإلكترونية بسرعة البحث والتخزين والحمل والوصول، ولذلك يستطيع القارئ أن يوزع احتياجاته بين الوسيطين

بدل أن يختار أحدهما اختيارًا مطلقًا. ويتقاطع هذا مع دعوة ن. كاثرين هايلز إلى «دراسات الوسائط المقارنة» التي ترفض بناء قطيعة مبسطة بين المطبوع والرقمي، وتنظر بدل ذلك في كيفية تشكل التفكير من خلال الوسائط المختلفة وفي العلاقة المتبادلة بين الإنسان وتقنياته .[2]

غير أن وصف هذه الممارسة بأنها «هجنة» يحتاج إلى احتراز، لأن مجرد الانتقال بين نسختين لا يكفي، وفق التعريف الصارم الذي تبناه الكتاب، لإثبات أن الوظائف المعرفية للقراءة أصبحت موزعة بين الإنسان والتقنية. ولهذا ينبغي التمييز بين **الهجنة الوسائطية الدنيا** التي يمثلها الجمع بين الحوامل، و**الهجنة المعرفية** التي ستظهر في الأنماط اللاحقة عندما تدخل الأدوات في البحث والشرح والمقارنة والتأويل. ومن هنا يحتل القارئ الهجين البسيط موقع البداية في الطيف لا لأنه النموذج الكامل للمفهوم، بل لأنه يكشف أول تحول في وحدة الممارسة: لم تعد القراءة مرتبطة بحامل وحيد، بل أصبحت قادرة على الانتقال بين تمثيلات مختلفة للنص نفسه.

ويظهر أثر هذه الممارسة كذلك في الذاكرة القرائية، لأن القارئ الذي يوزع نشاطه بين الكتاب الورقي والنسخة الرقمية يكتسب أكثر من نظام لاستعادة النص؛ فقد يتذكر الموضع بصريًا في الصفحة الورقية، لكنه يستطيع في النسخة الرقمية استدعاء الجملة بالبحث، وقد يعتمد في الحامل الأول على أثر القلم والهامش وفي الثاني على العلامة الرقمية وقائمة الملاحظات. ولا يعني ذلك أن إحدى الطريقتين أفضل في ذاتها، وإنما يكشف أن القارئ أصبح قادرًا على تركيب نظام شخصي للقراءة يستثمر خصائص وسائط متعددة بحسب الحاجة، وهو ما يشكل البنية الأولية لفكرة «الذات القارئة الموزعة» التي سيطورها الكتاب لاحقًا.

- الانتقال بين الحوامل

لا يقتصر الانتقال بين الحوامل على تغير المكان الذي تظهر فيه الكلمات، بل يمكن أن يؤدي إلى تغير في طريقة التعامل مع النص ذاته، لأن القارئ قد يختار الحامل وفق نوع المهمة؛ فيفضل النسخة الورقية للقراءة المتصلة

الطويلة، والنسخة الإلكترونية للبحث والاسترجاع، والكتاب الصوتي للاستماع أثناء الحركة، وقد يستخدم أكثر من شكل في اليوم نفسه. وتكمن الهجنة هنا في أن الممارسة لم تعد تعرف وسيطًا افتراضيًا واحدًا، بل أصبحت تقوم على اختيار وظيفي للحامل، وهو ما يجعل القارئ نفسه مديرًا لبيئة من الوسائط.

ويصبح هذا الانتقال أكثر أهمية عندما تتحول النسخ المختلفة إلى أجزاء متصلة من تجربة واحدة، بحيث يبدأ القارئ القراءة في جهاز ويواصلها في جهاز آخر ويستعيد ملاحظاته في فضاء ثالث، وعندها لا تعود وحدة القراءة هي الجسم المادي للكتاب، بل تصبح الحساب أو الملف أو النص القابل للظهور في أكثر من مكان. ويُعد هذا التحول مقدمة ضرورية للهجنة الأعمق، لأن انفصال النص عن حامل واحد هو الذي سمح لاحقًا بأن ترتبط القراءة بقواعد البيانات ومحركات البحث والمنصات وأنظمة التوصية والمساعدات الذكية.

ومن الناحية النظرية يمكن القول إن القارئ الهجين البسيط يغير جغرافية القراءة قبل أن يغير بنيتها المعرفية؛ إذ يصبح النص قادرًا على مرافقته عبر سياقات مختلفة، لكنه يبقى في جوهره موضوعًا يفسره القارئ بقدراته الخاصة. ولهذا فإن هذه الدرجة لا ينبغي أن تتضخم مفهوميًا، بل يجب أن تبقى الحد الأدنى في الطيف الذي يسمح بفهم الانتقال التاريخي من قارئ مرتبط بحامل واحد إلى قارئ يستطيع أن يبني بيئة شخصية متعددة الحوامل، ومنها سينتقل إلى فضاء أكثر تعقيدًا لا يغير مكان النص فقط، بل يغير شبكة العلاقات التي تحيط به.

المبحث الثاني: القارئ الشبكي

الروابط التشعبية

يبدأ القارئ الشبكي في تجاوز الهجنة الوسائطية البسيطة عندما لا يعود النص وحدة مغلقة تنتقل بين الحوامل، بل يصبح عقدة داخل شبكة من العلاقات تسمح للقارئ بالتحرك الفوري بين عمل وآخر ومصدر وآخر وسياق وآخر. وقد مثل النص التشعبي أحد أهم التحولات التي مهدت لهذا النمط، لأنه جعل الرابط عنصرًا بنيويًا في فعل القراءة، ومنح القارئ قدرة أكبر على اختيار الطريق الذي يسلكه داخل المادة، وهي النقلة التي ربطها جورج لاندو مبكرًا بتحولات أوسع في مفاهيم النص والمؤلف والقارئ [3]. وتؤكد Hopkins Press أن مشروع لاندو جمع بين النظرية الأدبية وتقنيات الحاسوب ودرس ما يمنحه النص التشعبي للقراء من قدرة على الوصول السريع إلى مكتبات افتراضية من المصادر وعلى التحكم بصورة أكبر في ماذا يقرؤون وكيف يقرؤون .

ولا يعني الرابط أن القارئ أصبح حرًا حرية مطلقة، لأن المسارات الممكنة تظل محددة بما أتاحه تصميم النص أو الموقع، لكنه يغير طبيعة الاختيار من اتباع تسلسل واحد إلى اتخاذ قرارات متكررة حول البقاء أو الانتقال. ومن هنا يصبح القارئ الشبكي قارئًا للمسارات بقدر ما هو قارئ للجمل، لأنه يحتاج إلى أن يقرر ما إذا كان الرابط ضروريًا لفهم النص، وما إذا كان السياق الجديد يستحق مغادرة المسار الأصلي، ومتى ينبغي العودة، وهي مهارات لم تكن غائبة عن القراءة المطبوعة تمامًا لكنها أصبحت أكثر حضورًا واستمرارية داخل الفضاء الشبكي.

ويترتب على ذلك أن القارئ الشبكي يعيش باستمرار بين قوتين؛ الأولى قوة التوسيع السياقي التي تتيح له الانتقال من مفهوم إلى مرجع ومن اسم إلى سيرة ومن حدث إلى أرشيف، والثانية قوة التشتيت التي قد تجعل كل رابط بابًا إلى سلسلة لا تنتهي من الروابط. ولهذا فإن الكفاءة الشبكية لا تقاس بعدد الصفحات التي يستطيع القارئ فتحها، بل بقدرته على إدارة المسار والحفاظ

على سؤال يوجه حركته، لأن الشبكة تستطيع أن تمنحه سياقًا أوسع لكنها لا تمنحه بالضرورة بنية معرفية متماسكة.

ويتضح هنا فرق جوهري بين القارئ الشبكي والقارئ الهجين البسيط؛ ففي النمط الأولي ينتقل النص بين حوامل مختلفة بينما تظل حدود العمل واضحة نسبيًا، أما في النمط الشبكي فإن القارئ نفسه يبدأ في إعادة تشكيل حدود المادة التي يقرأها، لأن النص الأصلي يصبح محاطًا بمصادر وإحالات وتعليقات يمكن أن تدخل في تجربته. ومن هنا تتوسع وحدة القراءة من العمل إلى الشبكة المحيطة بالعمل، وهي نقلة ستصبح أكثر عمقًا عندما تدخل الخوارزمية لتقرر أي أجزاء هذه الشبكة ينبغي أن تظهر أولًا.

البحث المتزامن مع القراءة

يمثل البحث المتزامن مع القراءة مستوى أكثر تقدمًا من الشبكية، لأن القارئ لا يكتفي باتباع الروابط الموجودة سلفًا، بل يصنع بنفسه مسارات جديدة من خلال محرك البحث وقواعد البيانات والأرشيفات. ويغير ذلك طبيعة القراءة من استقبال بنية إحالية جاهزة إلى بناء سياق شخصي حول النص، حيث يستطيع القارئ التوقف عند أي لحظة لاستدعاء معلومة أو تاريخ أو تعريف أو مقارنة، ثم يعود إلى العمل وقد تغيرت المعرفة التي يحملها إليه.

وتكمن أهمية البحث المتزامن في أنه يجعل القراءة والبحث عمليتين متداخلتين بدل أن تكون إحداهما سابقة على الأخرى، وقد يصبح القارئ خلال جلسة واحدة متلقيًا للنص وباحثًا في خلفياته ومقيمًا للمصادر ومنظمًا للمواد التي يجدها. ومن هنا تظهر أول صورة واضحة لتوزيع العمل القرائي بين النص الأصلي وشبكة خارجية من المعلومات، حتى عندما يبقى الإنسان هو الذي يقوم بكل الاختيارات التأويلية.

غير أن محرك البحث يضيف إلى هذه الحرية مستوى خوارزميًا يجب ألا يغيب عن التحليل، لأن النتائج لا تظهر في فضاء محايد، بل ترتب وفق أنظمة تحدد الصلة والأهمية. وقد أبرز تارلتون غيليسبي أن الخوارزميات تؤدي دورًا متزايدًا

في تحديد المعلومات التي تعد ذات صلة بالمستخدمين وفي تنظيم الوصول إلى كميات ضخمة من البيانات [9]، وهو ما يعني أن القارئ الشبكي الذي يعتقد أنه يختار بحرية بين مصادر الشبكة يفعل ذلك، في كثير من الحالات، داخل ترتيب سابق لا يصنعه بنفسه .

ومن هنا يبدأ الانتقال من القارئ الشبكي إلى القارئ الخوارزمي؛ فالأول يتحرك في الشبكة، أما الثاني فتتحرك الشبكة أمامه وفق عمليات ترتيب وتوصية وتخصيص، وبينهما لا يوجد حد صارم بل تحول تدريجي في مصدر المبادرة. وكلما أصبحت نتائج البحث والتوصيات أكثر قدرة على استباق السؤال وتوقع الاهتمام، أصبح من الضروري أن يضيف القارئ إلى مهارة العثور على المعلومة مهارة أخرى هي معرفة أن ترتيب المعلومة ذاته جزء من الوساطة.

المبحث الثالث: القارئ الاجتماعي

التعليق والتقييم

يتجاوز القارئ الاجتماعي تصور القراءة باعتبارها علاقة فردية بين شخص ونص، لأن المنصات الرقمية تتيح له أن يترك أثر قراءته فورًا في صورة تعليق أو تقييم أو حاشية أو مراجعة، وبذلك تصبح استجابته جزءًا من البيئة التي سيواجه فيها قراء آخرون النص لاحقًا. وإذا كانت الهوامش والمناقشات حول الكتب موجودة منذ زمن طويل، فإن الجديد في القراءة الاجتماعية الرقمية يتمثل في سرعة تداول هذه الآثار واتساع جمهورها وإمكان تراكمها حول العمل نفسه بصورة تجعل التعليق جزءًا شبه دائم من حضوره الشبكي.

وقد خصص فيديريكو بيانزولا مشروعًا واسعًا للقراءة الاجتماعية الرقمية، موضحًا أن الوسائط الرقمية تسمح للقراء بالدخول في محادثات في الهوامش وبقراءة تعليقات غيرهم والرد عليها، وأن التحول لا يمس الوسيط وحده بل يمتد إلى سياق القراءة ومواقف القراء وممارساتهم [4]. ويعرض كتابه *Digital Social Reading* القراءة الاجتماعية بوصفها مجالًا تغير فيه التطبيقات الرقمية الطريقة التي يتفاعل بها القراء مع القصص ومع بعضهم بعضًا، وهو ما يتيح دراسة القراءة لا باعتبارها فعلًا فرديًا فقط، بل باعتبارها نشاطًا اجتماعيًا يمكن تتبع آثاره على نطاق واسع .

ويغير التقييم بدوره شروط دخول القارئ إلى النص، لأن الرقم أو عدد النجوم أو حجم التفاعل يمكن أن يصنع انطباعًا قبل القراءة، وبذلك يتحول أثر القراء السابقين إلى جزء من أفق انتظار القارئ اللاحق. ولا يكون هذا التأثير بالضرورة سلبيًا، لأن المراجعات قد تساعد على اكتشاف الكتب وتوسيع الحوار حولها، لكنه يثير سؤالًا حول مقدار استقلال الحكم الأولي عندما يصل العمل محاطًا بإشارات اجتماعية كثيفة.

ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما لا تعرض المنصة جميع التعليقات والمراجعات بالدرجة نفسها، لأن الترتيب الخوارزمي يدخل بين الجماعة والقارئ ويحدد أي أصواتها أكثر ظهوراً، وعندها ننتقل من مفهوم «الجماعة التأويلية» إلى صورة أكثر تركيباً يمكن تسميتها **الجماعة التأويلية المؤطرة خوارزمياً** .فالقارئ لا يواجه المجتمع القرائي في مجموعه، بل يواجه تمثيلاً مرتباً لهذا المجتمع، وقد تصبح بعض القراءات أكثر حضوراً لأنها حصلت على تفاعل أكبر أو لأن النظام قرر أنها أكثر صلة.

مجتمعات القراءة الافتراضية

لا تتحدد اجتماعية القراءة الرقمية بالتعليقات الفردية وحدها، بل تتشكل عبر مجتمعات افتراضية حول الأجناس الأدبية والمؤلفين والكتب والسلاسل، وقد تصبح المشاركة في هذه الجماعات عنصراً أساسياً في تجربة القراءة نفسها. فالقارئ يشارك توقعاته أثناء تقدم الرواية، ويناقش الشخصيات، ويرشح كتباً، ويتلقى اقتراحات، وقد ينشئ مواد مشتقة أو قوائم أو مراجعات طويلة، وبذلك تصبح القراءة جزءاً من هوية اجتماعية رقمية لا مجرد نشاط خاص.

وتكشف هذه المجتمعات أن الانتقال من القارئ الفردي إلى القارئ الاجتماعي لا يلغي الفهم الشخصي، لكنه يضيف إليه طبقة من التفاوض مع الآخرين، حيث يمكن للتفسير أن يتغير بعد الحوار أو يتصلب أمام رأي الجماعة، ويمكن للقراءة الجماعية أن توسع المجال التأويلي حين تجمع خبرات متنوعة، كما يمكنها أن تنتج أشكالاً من الضغط نحو المعاني الأكثر شعبية. وتكمن قيمة دراسة القارئ الاجتماعي في أنها تمنعنا من تصور الهجنة التقنية باعتبارها علاقة ثنائية بين الإنسان والجهاز فقط، لأن التقنية نفسها تربط الإنسان بفاعلين بشريين آخرين، وبذلك يكون جزء من «الهجين» اجتماعياً بقدر ما هو آلي.

ويحتل هذا النمط موقعاً وسيطاً في طيف الهجنة؛ فالقارئ الاجتماعي أكثر تعقيداً من القارئ الشبكي لأن البشر الآخرين يدخلون بصورة مباشرة في

تجربته، لكنه قد يظل غير هجين معرفيًا بالمعنى القوي إذا كانت الآلة لا تفعل أكثر من توفير البنية الاتصالية. غير أن المنصات الحديثة تجعل الفصل صعبًا، لأن المجتمع نفسه تحكمه التوصية والترتيب والتخصيص، وهنا تبدأ الهجنة الاجتماعية بالتقاطع مع الهجنة الخوارزمية.

ومن هذا التقاطع يظهر شكل من أشكال القراءة تكون فيه الذائقة نتيجة لعلاقة ثلاثية بين القارئ والجماعة والمنصة، إذ إن القراء ينتجون التقييمات والمراجعات، والخوارزمية ترتبها وتتعلم من السلوك، ثم يعود هذا الترتيب ليؤثر في الاختيارات المستقبلية. وقد حلل هالينان وتيد ستريبهاس أنظمة التوصية في سياق ما سمياه «الثقافة الخوارزمية»، حيث تدخل المعالجة الحسابية إلى تنظيم التفضيلات والمنتجات الثقافية [10]، وهو ما يجعل القارئ الاجتماعي المعاصر يعيش في جماعة لا تتشكل فقط بالعلاقات بين أفرادها، بل كذلك بالبنية التي توزع انتباههم .

المبحث الرابع: القارئ المعزز

الترجمة والتلخيص الآليان

يمثل القارئ المعزز نقلة نوعية في طيف الهجنة، لأن التقنية لا تكتفي عند هذا المستوى بتغيير الحامل أو تنظيم الروابط أو ربط القارئ بجماعة، بل تبدأ في أداء وظائف معرفية تساعده على الوصول إلى مضمون النص وفهمه .ويمكن للترجمة الآلية أن تفتح أمام القارئ نصوصاً بلغات لا يتقنها، بينما يسمح التلخيص الآلي باستعادة البنية الأساسية لمادة طويلة أو بناء تصور أولي عنها، وهو ما يجعل الأداة جزءاً مباشراً من عملية الوساطة بين النص والفهم.

ولا ينبغي النظر إلى الترجمة الآلية بوصفها مجرد استبدال للكلمات بكلمات، لأن الترجمة تتضمن إعادة بناء لغوي وسياقي يمكن أن يؤثر في ما يصل إلى القارئ. وقد درست شيلا كاستيليو وآنا غيربيروف أريناس فهم القراء لمخرجات الترجمة الآلية في تجربة أولية قارنت نماذج مختلفة من الترجمة، وهو ما يبين أن قابلية النص المترجم آلياً للقراءة والفهم موضوع تجريبي مستقل، لا افتراضاً تقنياً بسيطاً [5]. وتفيد هذه الدراسات مشروع القارئ الهجين لأنها تؤكد أن الأداة التي تسهل الوصول إلى نص أجنبي تدخل بالضرورة في سلسلة الوساطة التي يتلقى من خلالها القارئ ذلك النص .

ويحمل التلخيص مفارقة مماثلة، لأنه يمكن أن يكون شديد الفائدة حين يستخدم بوصفه أداة للاسترجاع أو الاستكشاف، لكنه يصبح خطراً على فعل القراءة إذا تحول إلى بديل عن النص. ومن هنا ينبغي التمييز بين قارئ يطلب ملخصاً بعد أن قرأ الفصل لكي يراجع بنيته، وقارئ يطلب الملخص بدل قراءته ثم يتعامل معه كما لو كان العمل نفسه، لأن الأول يستخدم التقنية لتعزيز ذاكرته بينما ينقل الثاني الوظيفة الأساسية للقراءة إلى النظام.

وتظهر هنا أهمية مفهوم القراءة المعززة الذي جرى تعريفه في الفصل السابق بوصفه قراءة بشرية تستفيد من أدوات توسع إمكانات الوصول والفهم والاسترجاع من دون أن تصل بالضرورة إلى مشاركة تأويلية عميقة مع الآلة. فالترجمة والتلخيص يدخلان إلى البنية المعرفية للقراءة، لكنهما لا يحولان القارئ تلقائيًا إلى قارئ توليدي، لأن النظام قد يظل يؤدي وظيفة محددة يطلبها المستخدم ثم يعود الأخير إلى النص ليواصل نشاطه بنفسه.

__البحث والمساعدة المعرفية__

يتسع التعزيز عندما تبدأ الأدوات في القيام بعمليات البحث داخل النصوص واستعادة المواضع والمفاهيم والمقارنة بين مصادر متعددة وتنظيم الملاحظات، وعندها يصبح القارئ أقل اعتمادًا على ذاكرته الداخلية في التفاصيل وأكثر قدرة على توظيف موارد خارجية بصورة منتظمة. ويجد هذا التحول خلفية فلسفية في أطروحة آندي كلارك وديفيد تشالمرز حول «العقل الممتد»، التي اقترحت أن بعض الموارد الخارجية يمكن، في شروط معينة، أن تدخل وظيفيًا في عمليات معرفية أوسع، مع التأكيد أن استثمار هذه الأطروحة في هذا الكتاب لا يعني أن كل تطبيق أو جهاز يصبح تلقائيًا جزءًا من عقل القارئ .[6]

ومن هذا المنظور يمكن فهم القارئ المعزز بوصفه قارئًا بدأ يوزع بعض العمل المعرفي، حيث يحتفظ هو بالسؤال والغاية والحكم بينما تقوم الأدوات بالاسترجاع أو التنظيم أو المعالجة الأولية. فالذاكرة الخارجية لا تلغي الذاكرة الداخلية، لكنها تعيد توزيع ما يحتاج القارئ إلى حفظه، ومحرك البحث لا يلغي المعرفة ولكنه يغير طريقة الوصول إليها، والمساعد المعرفي لا يلغي التحليل بالضرورة لكنه يستطيع أن يخفف بعض أعبائه الأولية.

غير أن هذا النمط يمثل كذلك المنطقة التي يصبح فيها الحد بين التعزيز والتبعية شديد الحساسية، لأن الوظيفة التي تبدأ مساعدة يمكن أن تتحول مع التكرار إلى بديل. فإذا أصبح القارئ لا يستطيع بناء ملخص بنفسه لأنه يطلبه دائمًا، أو لا يتحقق من أي مرجع لأن النظام يستعيده له، فإن التوزيع

الوظيفي يقترب من التفويض. ومن هنا يحتاج القارئ المعزز إلى اقتصاد في التدخل الآلي، بحيث لا يستعمل الأداة في كل وظيفة تستطيع القيام بها، وإنما يسأل ما إذا كانت ممارسة الوظيفة بنفسه جزءًا من الهدف القرائي أو التعليمي.

وتظهر هنا قاعدة مركزية في طيف الهجنة :كلما اقتربت الأداة من وظيفة معرفية مركزية، ازدادت ضرورة أن يعرف القارئ لماذا يستخدمها وما الذي يخسره إذا فوض إليها هذه الوظيفة .فالترجمة التي تفتح نصًا غير متاح قد توسع القراءة بصورة واضحة، بينما الترجمة التي تحل دائمًا محل تعلم الفروق اللغوية قد تنتج تبعية، والمقارنة الآلية التي توفر نقطة انطلاق قد تكون مفيدة، بينما المقارنة التي يعتمدها الباحث دون فحص قد تلغي جزءًا من عمله التحليلي.

المبحث الخامس: القارئ التوليدي

الحوار مع الذكاء الاصطناعي

يمثل القارئ التوليدي الدرجة التي تدخل عندها الهجنة إلى مجال أكثر حساسية، لأن التقنية لم تعد تكتفي بالبحث أو العرض أو الترجمة أو التلخيص، بل تصبح قادرة على توليد خطاب جديد استجابة لسؤال القارئ، وهو ما يحول العلاقة من استعمال أداة محددة الوظيفة إلى حوار تكراري يمكن أن يتغير فيه مسار القراءة بعد كل جواب. ويختلف هذا النمط عن القارئ المعزز في أن النظام لا يقدم موردًا جاهزًا فقط، بل ينتج صياغة مخصصة نسبيًا للمحفز الذي قدمه المستخدم، ولذلك يصبح السؤال نفسه جزءًا من الممارسة القرائية.

وقد قدم س. شيام سوندار إطار «الفاعلية الآلية» لفهم التفاعل البشري-الآلي في سياق الأنظمة التي أصبحت قادرة على اتخاذ أدوار أكثر فاعلية في تجربة المستخدم، مع ما يرافق ذلك من أسئلة حول الثقة والسيطرة والشفافية [7]. ويستفيد مفهوم القارئ التوليدي من هذا الإطار ليصف نظامًا لا ينتظر فقط أمرًا آليًا بسيطًا، بل يشارك وظيفيًا في دورة من السؤال والجواب يمكن أن تغير ما يفعله الإنسان بعد ذلك) .

ويمكن أن تبدأ الدورة بقراءة بشرية أولية، ثم بسؤال يوجهه القارئ إلى النظام، فيقدم النظام جوابًا أو احتمالًا، ثم يقارن القارئ هذا المخرج بالنص ويعترض عليه أو يطلب بديلًا، فيتغير الجواب ويتغير معه السؤال، وهكذا تتحول القراءة إلى مسار يمكن تمثيله في صورة :**نص → قراءة أولية → سؤال → اقتراح آلي → فحص بشري → عودة إلى النص → سؤال جديد → تأويل معدل** .ولا تكون أهمية هذه الدورة في أن الآلة أصبحت تمتلك تجربة القراءة ذاتها، بل في أن مخرجاتها صارت جزءًا من المواد التي يعمل عليها القارئ أثناء بناء فهمه.

ويظهر هنا معنى «الكفاية الحوارية الخوارزمية»، لأن جودة التفاعل تعتمد بدرجة كبيرة على قدرة القارئ على صياغة أسئلة لا تدفع النظام إلى الإغلاق السريع للمعنى. فالسؤال الذي يطلب «المعنى الصحيح» لنص أدبي غامض يشجع على جواب نهائي، بينما السؤال الذي يطلب فرضيات متعارضة وأدلة وحدودًا لكل فرضية يفتح مجالًا للمقارنة. ومن هنا لا يصبح القارئ التوليدي أكثر فاعلية لأنه يتلقى إجابات أكثر، بل لأنه يعرف كيف يستخدم الحوار لتوسيع السؤال ثم يعيد النتائج إلى النص.

ومع ذلك تظل ضرورة التمييز بين إنتاج اللغة والفهم الإنساني قائمة، لأن قدرة النموذج اللغوي على توليد خطاب متماسك لا تمنحه تجربة بشرية للمعنى. وقد نبهت إميلي بندر وتمنيت غبرو وأنجلينا ماكميلان-ماجور وشمارغريت شميتشل إلى جملة من المخاطر المرتبطة بالنماذج اللغوية الكبيرة وبياناتها وميل المستخدمين إلى إسناد معنى وفهم إلى مخرجاتها اللغوية بصورة قد تتجاوز ما تبرره آلية النظام [8]. ولهذا يتعامل هذا الكتاب مع الآلة في القارئ التوليدي بوصفها شريكًا تأويليًا وظيفيًا لا ذاتًا تأويلية مساوية للإنسان

- إعادة بناء النص وتأويله

تبلغ الهجنة التوليدية مستوى أكثر عمقًا عندما لا يستخدم القارئ النظام لفهم عنصر منفرد فقط، بل لإعادة بناء النص في أشكال أخرى، كأن يطلب مقارنة الشخصيات، أو إعادة تنظيم الحجة، أو استخراج شبكة المفاهيم، أو تقديم قراءة مضادة، أو تفسير العمل من منظور نظري معين. وفي هذه الحالات ينتج النظام نصًا ثانيًا عن النص الأول، ويصبح على القارئ أن يدرك أنه لم يعد يتعامل مباشرة مع الأصل، بل مع تمثيل مولد له يختار ويعيد ترتيب ويختصر ويبرز عناصر على حساب أخرى.

ومن هنا يصبح الفرق بين «النص» و«الخطاب التوليدي حول النص» من أهم الفروق التي يجب أن يحتفظ بها القارئ التوليدي، لأن اللغة المتماسكة للجواب قد تخلق وهمًا بأن الوسيط شفاف، بينما كل تلخيص أو تفسير أو

إعادة بناء تتضمن قرارات ضمنية بشأن ما هو مركزي وما هو هامشي. فإذا طلب القارئ من النظام شرح رواية في عشر نقاط، فإن هذه النقاط لا تكون الرواية في صورة مضغوطة، بل اختيارًا لمجموعة من عناصرها، وقد تختفي في العملية البنية الإيقاعية أو تعدد الأصوات أو الغموض أو التفاصيل التي تشكل جزءًا من التجربة الأدبية.

وتصبح المسألة أكثر حساسية في التأويل، لأن النظام يستطيع توليد أكثر من قراءة، وهو ما يمثل إمكانًا كبيرًا لتوسيع أفق القارئ إذا تعامل معها كفرضيات، لكنه يصبح مشكلة إذا تعامل معها كأحكام نهائية. ومن هنا يقترح الكتاب مفهوم **التأويل الهجين** للدلالة على عملية بناء للمعنى يظل فيها الإنسان الفاعل المسؤول، لكنه يستفيد من النظام في توليد فرضيات وسياقات ومقارنات قبل أن يخضعها للفحص ويعيد دمج المقبول منها في قراءته.

ويعمل القارئ التوليدي الناضج، وفق هذا التصور، في حركة مزدوجة لا يبتعد فيها عن النص مع كل جواب بل يعود إليه باستمرار، لأن قيمة المساعدة الاصطناعية تقاس بقدرتها على إعادة القارئ إلى النص بأسئلة أفضل لا بقدرتها على إعفائه منه. وإذا انقطعت العودة إلى الأصل وأصبح القارئ يتعامل فقط مع المخرجات التوليدية، فإن الهجنة تتحول من حوار تأويلي إلى «قراءة مستبدلة» يصبح فيها خطاب الآلة بديلًا عن العمل.

ومن هنا يمكن تلخيص علاقة القارئ التوليدي بالآلة في قاعدة ستتكرر في الفصول اللاحقة :الآلة تقترح، والقارئ يختبر، والنص يقاوم أو يؤيد، والسياق يراجع .وتسمح هذه الصيغة بالحفاظ على فائدة التفاعل من دون تحويله إلى مساواة بين الإنسان والنظام، كما تجعل المسؤولية التأويلية معيارًا أساسيًا للانتقال من القارئ التوليدي إلى النمط الأكثر تطورًا في هذا الفصل، أي القارئ الهجين النقدي.

المبحث السادس: القارئ الهجين النقدي

الوعي بتحيز الآلة

لا يكتمل مفهوم القارئ الهجين إذا توقف عند القدرة على استخدام الأدوات، لأن الاتساع المستمر لتدخل الخوارزميات يجعل الكفاية النقدية جزءًا من القراءة نفسها. فالقارئ الهجين النقدي هو الذي يدرك أن نتائج البحث والتوصيات والترتيب والتلخيص والتفسير لا تظهر من فراغ، وأن الأنظمة تتشكل من تصميمات وأهداف وبيانات واختيارات مؤسساتية يمكن أن تؤثر في ما يصبح ظاهرًا وفي ما يبقى غائبًا. ومن هنا ينتقل من السؤال «ماذا قدمت لي الخوارزمية؟» إلى سؤال أعمق هو «ما الشروط التي جعلتها تقدم لي هذا بدل غيره؟.»

وقد بين غيليسبي أن دراسة الخوارزميات يجب ألا تختزلها في إنجازات تقنية مجردة، بل أن تنظر إلى الاختيارات البشرية والمؤسساتية التي تحيط بها وإلى دورها في تحديد ما يعد ذا صلة وما يصل إلى الجمهور [9]، بينما تذهب تاينا بوخر إلى أن الخوارزميات، من خلال المعالجة والتصنيف والترتيب، تشارك في جعل العالم يظهر بطرق معينة بدل أخرى [11]. وتوفر هاتان المقاربتان أساسًا لفكرة أن القارئ النقدي لا يحتاج إلى معرفة الشفرة البرمجية كاملة لكي يدرك أن الترتيب نفسه فعل ذو آثار ثقافية ومعرفية) .

ويصبح الوعي الخوارزمي بذلك جزءًا من الكفاية القرائية، لأنه يسمح للقارئ بالتمييز بين النص الذي اختاره بعد بحث واسع والنص الذي ظهر بسبب توصية شخصية، وبين إجابة تستند إلى مصدر يمكن الرجوع إليه وصياغة توليدية تحتاج إلى تحقق، وبين قائمة تعكس جميع النتائج الممكنة وقائمة رتبتها المنصة وفق منطق لا يراه المستخدم بصورة كاملة. ولا يعني هذا الوعي أن القارئ يستطيع كشف كل عمليات النظام، بل يعني أنه يتخلى عن فرضية الشفافية ويعامل الوسيط بوصفه طرفًا يحتاج إلى السؤال.

وقد بحثت آن أودلف-هيرش وجيرمان نويباوم مفهوم الوعي الخوارزمي لدى مستخدمي وسائل التواصل، وربطت الدراسة بين معرفة المستخدمين بالخوارزميات واتجاهاتهم وسلوكهم تجاهها، وهو ما يدعم النظر إلى «محو الأمية الخوارزمية» باعتباره مجموعة من المعارف والمواقف والممارسات لا مجرد معرفة تقنية نظرية [12]. ويستفيد هذا الكتاب من هذه الأدبيات لتأسيس مفهوم أضيق مرتبط بالقراءة هو الكفاءة الخوارزمية النقدية، أي قدرة القارئ على التعرف إلى وجود الوساطة ومساءلة مخرجاتها ومقارنتها والتحقق منها .

ويتطلب الوعي بالتحيز كذلك إدراك أن الأنظمة التوليدية قد تعكس تفاوتًا في تمثيل اللغات والثقافات والأنواع النصية، وأن التعامل مع نص عربي أو تراثي أو شعري قد يحتاج إلى درجة أعلى من الحذر إذا كانت الإحالات الثقافية أو اللغوية غير ممثلة بالقدر نفسه في مصادر النظام. ومن هنا يصبح القارئ الهجين النقدي قادرًا على السؤال عن الغياب لا عن الخطأ فقط؛ فما الذي لم يظهر في التفسير؟ وما القراءة التي لم يقترحها النظام؟ وهل استدعى نموذجًا نظريًا مألوفًا وأهمل سياقًا محليًا؟ وهل قدم المرجعية الثقافية بوصفها حقيقة بينما كانت مجرد احتمال؟ وهكذا يصبح النقد الخوارزمي امتدادًا للنقد الثقافي لا مهارة تقنية مستقلة عنه.

مقاومة الهيمنة الخوارزمية

إذا كان الوعي شرطًا أوليًا، فإن القارئ الهجين النقدي يتجاوز المعرفة النظرية بالخوارزمية إلى تطوير ممارسات تحافظ على استقلاله أمام منطق التخصيص والتوصية والإجابة الفورية. ولا تعني المقاومة هنا رفض التكنولوجيا أو الانسحاب من المنصات، بل القدرة على استعمالها ضد ميلها المحتمل إلى تضييق المجال أو تثبيت العادات أو تحويل التوصيات إلى مسار وحيد. وقد تناولت جوليا فيلكوفا وآن كاون مفهوم «المقاومة الخوارزمية» من خلال ممارسات يحاول فيها المستخدمون التفاوض مع الأنظمة وإصلاح

العلاقات التي تفرضها الخوارزميات أو التحايل عليها، وهو ما يبين أن المستخدم ليس بالضرورة عنصرًا سلبيًا أمام القوة الخوارزمية .[13]

وتظهر المقاومة القرائية في صور مختلفة، فقد يقرر القارئ البحث خارج قائمة التوصيات الشخصية، أو استخدام ترتيب زمني بدل الترتيب المخصص حين يكون ذلك متاحًا، أو استكشاف كتب لا تتوافق مع تاريخه السابق، أو مقارنة محركات ومصادر مختلفة، أو طرح السؤال نفسه على أكثر من نظام، أو طلب قراءة مضادة للجواب الأول، أو الامتناع عمدًا عن استخدام الذكاء الاصطناعي في المرحلة الأولى من قراءة نص أدبي حتى يسمح لتأويله الشخصي بالتشكل. ويمكن جمع هذه الممارسات تحت مفهوم العصيان القرائي، الذي لا يقصد تمردًا تقنيًا مطلقًا، بل ممارسة واعية لكسر المسار الأكثر سهولة الذي تقترحه الخوارزمية عندما يحتاج القارئ إلى توسيع أفقه.

ويكتسب هذا العصيان أهمية خاصة أمام التخصيص، لأن أنظمة التوصية تستطيع أن تسهل اكتشاف ما يوافق الذائقة السابقة، لكنها تستطيع في الوقت نفسه أن تقلل احتمالات المصادفة الثقافية إذا ظل القارئ يتحرك داخل المجال نفسه. وقد حلل هالينان وستريبهاس دور أنظمة التوصية في إنتاج الثقافة الخوارزمية [10]، بينما تبين بوخر أن التصنيف والترتيب ليسا عمليتين محايدتين بالنسبة إلى كيفية ظهور العالم للمستخدم [11]، ومن هنا تصبح مقاومة التخصيص أحيانًا وسيلة لاستعادة ما يمكن تسميته حق القارئ في المفاجأة، أي حقه في أن يواجه نصوصًا لا يعرف النظام بعد أنه سيحبها .

ولا تقتصر المقاومة على اختيار النصوص، بل تمتد إلى مجال المعنى، لأن القارئ التوليدي قد يقع بسهولة تحت سلطة «الإجابة الأولى» التي ينتجها النظام، وخصوصًا عندما تكون مكتوبة بلغة واثقة ومتماسكة. ويصبح القارئ النقدي هو الذي يكسر هذه السلطة بطلب البديل والدليل والنقد المضاد، ثم يعود إلى النص ليتأكد مما إذا كانت الفرضية قابلة للدفاع

عنها. وهنا تتحول القراءة من استخدام الذكاء الاصطناعي إلى نقد استخدام الذكاء الاصطناعي أثناء حدوثه، وهي الحركة التي سيسميها الكتاب في باب لاحق «القراءة الميتا خوارزمية.«

ومن هذا المنظور يمثل القارئ الهجين النقدي أعلى درجات النضج داخل التصنيف الحالي، لا لأنه يستخدم التقنية أكثر من غيره، بل لأنه يستطيع استخدامها والابتعاد عنها، وقبول مخرجاتها ورفضها، والاستفادة من التخصيص والخروج منه، والطلب من النظام أن يساعده ثم إدراك اللحظة التي ينبغي فيها أن يتوقف عن المساعدة. فالنقد هنا قدرة على إدارة المسافة، بحيث لا تظل الآلة خارج القراءة تماماً ولا تندمج فيها إلى الحد الذي يصبح معه القارئ عاجزًا عن رؤية حدودها.

درجات الهجنة: من الوساطة المادية إلى الوعي النقدي

تسمح الأنماط السابقة ببناء تصور تدريجي للهجنة القرائية لا يعتمد على ثنائية «هجين/غير هجين»، بل على مقدار ونوع مشاركة التقنية داخل النشاط. ففي الدرجة الأولى نجد **الهجنة الوسائطية** التي يتنقل فيها القارئ بين الورق والشاشة من دون تدخل تقني عميق في الفهم، ثم تأتي **الهجنة الشبكية** حين يتوزع مسار القراءة بين النص والروابط والبحث، تليها **الهجنة الاجتماعية** عندما تصبح استجابات القراء الآخرين ومجتمعاتهم جزءًا من تجربة التلقي، ثم **الهجنة المعرفية المعززة** عندما تؤدي الأدوات وظائف في الترجمة والتلخيص والاسترجاع والمقارنة، وبعدها **الهجنة التوليدية التأويلية** التي يدخل فيها النظام إلى الحوار حول النص ويولد احتمالات للمعنى، وصولًا إلى **الهجنة النقدية** التي يضيف فيها القارئ إلى كل ذلك وعيًا بمنطق الوساطة وقدرة على مقاومتها ومراجعتها.

ولا تمثل هذه الدرجات مراحل تاريخية يجب أن يمر بها كل قارئ، لأن الفرد يستطيع أن يتحرك بينها في جلسة واحدة، كما لا تمثل طبقات متراكمة يجب الاحتفاظ بها جميعًا؛ فقد يختار قارئ نقدي واعٍ أن يمارس قراءة ورقية خالصة لنص معين، ثم يستخدم الذكاء الاصطناعي بكثافة في مهمة أخرى. ومن هنا ينبغي تعريف درجة الهجنة بحسب **الوضع القرائي المحدد** لا بحسب هوية الشخص بصورة مطلقة.

ويمكن تحديد الدرجة عبر ثلاثة مؤشرات مترابطة؛ يتعلق الأول **بعدد الوظائف** التي تشارك فيها التقنية، ويتعلق الثاني **بعمق هذه الوظائف** واقترابها من مجال المعنى، بينما يتعلق الثالث **بدرجة استقلال القارئ** في إدارة التدخل. وقد يكون القارئ عالي الهجنة من حيث العدد والعمق لكنه منخفض الاستقلال إذا اعتمد المخرجات مباشرة، في حين يمكن لقارئ يستخدم أدوات أقل أن يحقق مستوى أعلى من النضج النقدي. ولهذا ينبغي ألا يخلط البحث بين **كثافة الهجنة** و**جودة الهجنة**.

وتسمح هذه الثنائية بتطوير تصنيف أكثر دقة؛ فكثافة الهجنة تشير إلى مقدار تدخل التقنية، بينما تشير جودتها إلى طبيعة العلاقة النقدية التي يحتفظ بها الإنسان معها. وتصبح القراءة الهجينة الناضجة هي الحالة التي ترتفع فيها إمكانات التعزيز من دون أن تنهار السيادة التأويلية، بحيث يستطيع القارئ توسيع ذاكرته وسياقه ومقارناته والاستفادة من الاقتراح التوليدي، لكنه يظل قادرًا على التحقق والاستغناء والاعتراض والعودة إلى النص.

ومن هنا يصل الفصل إلى نتيجة تتجاوز مجرد وضع قائمة للأنماط، وهي أن تطور القارئ الهجين لا يسير بالضرورة نحو مزيد من الآلة، بل نحو مزيد من الوعي بطريقة توزيع الوظائف بين الإنسان والآلة .فالقارئ الهجين البسيط يتعلم الانتقال بين الحوامل، والشبكي يتعلم إدارة المسارات، والاجتماعي يتعلم التعامل مع أصوات الجماعة، والمعزز يتعلم توزيع بعض العمل المعرفي، والتوليدي يتعلم الحوار، أما النقدي فيتعلم قراءة كل هذه الوساطات ومقاومة اللحظة التي تبدأ فيها العمل بدلًا عنه.

خاتمة الفصل

يكشف تصنيف أنماط القارئ الهجين ودرجات الهجنة أن المفهوم لا يمكن اختزاله في نموذج واحد أو في علاقة ثابتة بين الإنسان والآلة، لأن الممارسة القرائية المعاصرة تتحرك داخل طيف يبدأ من أبسط أشكال التداخل الوسائطي وينتهي بأنظمة معقدة من التعاون المعرفي والتأويل التوليدي والنقد الخوارزمي. ومن هنا فإن القيمة النظرية لهذا التصنيف لا تتمثل في تسمية القراء بقدر ما تتمثل في تقديم لغة تسمح بوصف المكان الذي توجد فيه التقنية داخل عملية القراءة، وما الوظيفة التي تقوم بها، وما مقدار السلطة التي يحتفظ بها القارئ أثناء تدخلها.

وقد أظهر المبحث الأول أن القارئ الهجين البسيط يمثل درجة تمهيدية تقوم أساسًا على الجمع بين الحوامل والتنقل بينها، بحيث تكون الهجنة مادية ووسائطية أكثر منها معرفية، بينما كشف القارئ الشبكي أن انتقال النص إلى الشبكة غير بنية المسار نفسه وأدخل البحث والروابط في صلب الممارسة. ومع القارئ الاجتماعي اتسعت وحدة التلقي لتشمل الجماعات والمراجعات والتعليقات، لكن هذه الجماعة لم تعد تظهر للقارئ بصورة خام، إذ تتدخل أنظمة الترتيب والتوصية في تنظيم أصواتها. ثم جاء القارئ المعزز ليشكل نقطة التحول التي تبدأ فيها التقنية بأداء وظائف معرفية مباشرة مثل الترجمة والتلخيص والبحث والاسترجاع، وهو ما يجعل توزيع العمل بين الإنسان والأداة أكثر وضوحًا.

أما القارئ التوليدي فيمثل الانتقال من المساعدة إلى الحوار، لأن النظام يصبح قادرًا على إنتاج خطاب جديد حول النص والدخول في دورة تكرارية من السؤال والاقتراح والفحص وإعادة السؤال، وهو ما يسمح لأول مرة بالحديث عن مشاركة وظيفية للآلة في المجال التأويلي، مع ضرورة الإبقاء على التمييز الصارم بين القدرة على توليد التفسير وبين التجربة البشرية للمعنى. وعند هذه النقطة يصبح القارئ الهجين النقدي ضرورة لا مجرد نمط إضافي، لأن اتساع الفاعلية التقنية يفرض اتساعًا موازيا في قدرة القارئ على

فهم الوساطة والتحقق من المخرجات واكتشاف التحيزات ومقاومة مسارات التخصيص والإجابة الجاهزة.

وبذلك لا يمكن تمثيل درجات الهجنة بسؤال واحد من قبيل «كم تستخدم التقنية؟»، بل بمجموعة من الأسئلة المتصلة :**ما الذي تفعله التقنية داخل القراءة؟ وإلى أي عمق يصل تدخلها؟ وهل يستطيع القارئ معرفة هذا التدخل ومراجعته وإيقافه عند الضرورة؟** وعلى أساس هذه الأسئلة يصبح الفرق بين الهجنة الخلاقة والهجنة التابعة أكثر وضوحًا، لأن الأولى توسع وظائف القارئ مع إبقائه داخل دائرة الحكم، بينما تنقل الثانية الوظائف تدريجيًا إلى النظام حتى لا يبقى للإنسان سوى استهلاك النتائج.

ومن هنا يمكن صياغة المبدأ الجامع للفصل على النحو التالي :**ليست أعلى درجات الهجنة هي التي تفعل فيها الآلة أكثر، بل التي يعرف فيها القارئ بدقة ما الذي ينبغي أن تفعله الآلة وما الذي ينبغي أن يبقى من عمله هو .**
ويقود هذا الاستنتاج مباشرة إلى الفصل التالي، لأن القدرة على توزيع الوظائف بين الداخل والخارج تستدعي سؤالًا أعمق عن بنية العقل القارئ نفسه، وعن العلاقة بين الذاكرة البشرية والذاكرة الخارجية والإدراك الموزع والتفويض المعرفي، وهي القضايا التي ستشكل أساس الفصل السادس حول العقل الممتد والذات القارئة الموزعة.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Bolter, Jay David & Grusin, Richard. *Remediation: Understanding New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 1999.

يمثل مفهوم «إعادة الوساطة» أساسًا لفهم استمرار أشكال الوسائط القديمة داخل الجديدة، ويفيد في تفسير القارئ الهجين البسيط بوصفه قارئًا يعيش تداخلًا بين المطبوع والرقمي بدل انتقال نهائي من أحدهما إلى الآخر.
وتوضح MIT Press **أن الكتاب يعارض التصور الذي يفترض انفصال الوسائط الرقمية الكامل عن سابقاتها ويحلل عمليات إعادة تشكيل الوسائط بعضها لبعض**(MIT Press) .

[2] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.

يُستفاد منه في فهم التفاعل بين الممارسات المعرفية والوسائط المختلفة، وفي دعم المقاربة المقارنة بين المطبوع والرقمي، إضافة إلى مفهوم التكوين التقني الذي ينظر إلى البشر والتقنيات بوصفهما في علاقة تغير متبادل(Google Books) .

[3] Landow, George P. *Hypertext 3.0: Critical Theory and New Media in an Era of Globalization*. 3rd ed. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006.

مرجع مركزي في فهم النص التشعبي وتغير موقع القارئ داخل الشبكات، ولا سيما ما يتعلق بالروابط والتحكم في مسارات القراءة والوصول الفوري إلى مصادر متعددة(press.jhu.edu) .

[4] Pianzola, Federico. *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.

مرجع حديث في دراسة القراءة الاجتماعية الرقمية وتفاعل القراء داخل التطبيقات والمنصات وممارسات التعليق والحوار حول الأدب، ويؤكد أن التحول الرقمي يغير سياق القراءة ومواقف القراء لا الوسيط فقط (MIT Press) .

[5] Castilho, Sheila & Guerberof Arenas, Ana. "Reading Comprehension of Machine Translation Output: What Makes for a Better Read?" In *Proceedings of the 21st Annual Conference of the European Association for Machine Translation (EAMT)*, 2018.

يُستفاد من الدراسة في مناقشة الترجمة الآلية بوصفها وسيطًا في الوصول إلى النص وفهمه، وفي تأكيد أن قابلية المخرجات المترجمة آليًا للقراءة والفهم مسألة يمكن فحصها تجريبيًا(ACL Anthology) .

[6] Clark, Andy & Chalmers, David. "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.

مرجع تأسيسي لأطروحة العقل الممتد، ويُستفاد منه في هذا الفصل بوصفه خلفية لفهم إمكان دخول بعض الموارد الخارجية وظيفيًا في النشاط المعرفي، من دون افتراض أن كل استخدام تقني يحقق امتدادًا معرفيًا بالمعنى الفلسفي الصارم(OUP Academic) .

[7] Sundar, S. Shyam. "Rise of Machine Agency: A Framework for Studying the Psychology of Human–AI Interaction (HAII)." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 25, No. 1, 2020, pp. 74–88. DOI: 10.1093/jcmc/zmz026.

يوفر إطارًا لدراسة الفاعلية الآلية والتغير في علاقة المستخدم بالأنظمة القادرة على التخصيص والاستجابة والمبادرة، ويستفاد منه في تأسيس مفهوم القارئ التوليدي والتفاعل الحواري مع الأنظمة الذكية.

[8] Bender, Emily M.; Gebru, Timnit; McMillan-Major, Angelina & Shmitchell, Shmargaret. "On the Dangers of Stochastic Parrots: Can Language Models Be Too Big?" *Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (FAccT '21)*, 2021.

مرجع نقدي مهم في دراسة النماذج اللغوية الكبيرة ومخاطر بياناتها وتمثيلاتها، ويُستفاد منه في الحفاظ على التمييز بين القدرة على توليد خطاب لغوي وبين إسناد الفهم أو التجربة الإنسانية إلى النظام(ACM Digital Library) .

[9] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014, pp. 167–194.

يمثل مرجعًا أساسيًا في فهم دور الخوارزميات في تحديد الصلة وترتيب المعلومات وفي تحليل الخيارات والمؤسسات التي تقف وراء العمليات الحسابية التي تنظم ما يظهر للمستخدم(direct.mit.edu) .

[10] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.

مرجع مهم لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل الطريقة التي تدخل بها أنظمة التوصية في تنظيم التفضيلات والاختيارات الثقافية، وهو ما يفيد في دراسة القارئ الاجتماعي والقارئ الذي يعيش داخل بيئة مخصصة(Sage Journals) .

[11] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

تقدم بوخر تحليلًا للقوة الخوارزمية يبين أن عمليات المعالجة والتصنيف والترتيب تسهم في جعل بعض جوانب العالم أكثر ظهورًا من غيرها، وهو ما يشكل أساسًا مهمًا لفكرة الوعي النقدي بالوسيط ومقاومة التعامل معه بوصفه قناة محايدة(OUP Academic) .

[12] Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German. "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035.

تفيد الدراسة في تأسيس مفهوم الوعي أو محو الأمية الخوارزمية، وتوضح أن معرفة المستخدمين بالخوارزميات ترتبط كذلك بالمواقف والسلوكيات التي يتخذونها تجاهها، وهو ما يستثمره هذا الكتاب في بناء مفهوم القارئ الهجين النقدي(OUP Academic) .

[13] Velkova, Julia & Kaun, Anne. "Algorithmic Resistance: Media Practices and the Politics of Repair." *Information, Communication & Society*, Vol. 24, No. 4, 2021, pp. 523–540. DOI: 10.1080/1369118X.2019.1657162.

يمثل مرجعًا مهمًا لمفهوم المقاومة الخوارزمية ودراسة ممارسات المستخدمين في التفاوض مع الأنظمة الخوارزمية والتعامل النقدي مع سلطتها، ويُستفاد منه في هذا الفصل لتطوير مفهوم العصيان القرائي ومقاومة المسارات التي تفرضها التوصيات والتخصيص(Taylor & Francis Online) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم المرجعيات السابقة بحسب درجات الهجنة نفسها؛ إذ يسمح بولتر وغروسن وهايلز [1–2] بفهم الانتقال بين الوسائط بوصفه تداخلًا وإعادة تشكيل، ويقدم لاندو [3] الخلفية الأساسية للقارئ الشبكي والنص التشعبي، بينما يؤسس بيانزولا [4] لفهم القارئ الاجتماعي ومجتمعات القراءة الرقمية، وتساعد دراسات الترجمة والعقل الممتد [5–6] على بناء مفهوم القارئ المعزز وتوزيع بعض الوظائف المعرفية، في حين يوفر سوندار وبندر وزملاؤها [7–8] إطارًا لفهم الانتقال إلى القارئ التوليدي مع الحفاظ على التمييز بين الفاعلية الآلية والخبرة البشرية، وأخيرًا تسمح أعمال غيليسبي وهالينان وستريبهاس وبوخر وأودلف-هيرش ونويباوم وفيلكوفا وكاون [9–13] بتأسيس القارئ الهجين النقدي بوصفه قارئًا يضيف إلى استخدام الخوارزمية القدرة على رؤيتها ومساءلتها ومقاومة بعض آثارها.

وبهذا يتحول طيف الهجنة من مجرد تدرج تقني إلى تدرج في وعي القارئ بتوزيع الوظائف والسلطة داخل فعل القراءة، وهو ما يجعل الانتقال من القارئ الهجين البسيط إلى القارئ الهجين النقدي انتقالًا من استعمال الوسائط إلى امتلاك القدرة على إدارة الوساطة نفسها.

الفصل السادس

العقل الممتد والذات القارئة الموزعة

إذا كان الفصل السابق قد انتهى إلى أن القارئ الهجين لا ينبغي أن يُعرَّف بكثرة الأدوات التي يستخدمها، وإنما بطبيعة توزيع الوظائف بينه وبين بيئته التقنية وبقدرته على الاحتفاظ بالسيادة التأويلية، فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذه المرحلة يتعلق بالأساس المعرفي الذي يجعل هذا التوزيع ممكنًا أصلًا، لأن الحديث عن قارئ يستخدم محركات البحث والذاكرة السحابية والترجمة الآلية والمساعدات التوليدية لا يكفي ما لم نحدد ما إذا كانت هذه الأدوات تظل خارج فعل القراءة باعتبارها وسائل مساعدة منفصلة، أم أنها تستطيع، في بعض الشروط، أن تدخل في التنظيم الفعلي للعمليات المعرفية التي تقوم عليها القراءة. ومن هنا يصبح الانتقال إلى فلسفة العقل الممتد والإدراك الموزع والتفويض المعرفي ضروريًا، لا لكي نحول نظرية القراءة إلى فرع من علوم الإدراك، ولا لكي نعلن أن الحاسوب أو الهاتف قد أصبحا أجزاء حرفية من عقل القارئ، وإنما لكي نعيد التفكير في الحدود التقليدية التي تفصل ما يحدث «داخل» القارئ عما يحدث «خارجه»، ونسأل عن الكيفية التي أصبحت بها البيئة التقنية تشارك في الحفظ والاسترجاع والتنظيم والبحث والمقارنة والتوجيه، وهي وظائف كانت تنسب في نماذج كثيرة إلى الفرد بوصفه الوحدة الأساسية للفعل المعرفي.

يكتسب هذا السؤال أهميته من أن تاريخ القراءة نفسه، كما أوضحت الفصول السابقة، كان تاريخًا مستمرًا للاستعانة بوسائط خارجية؛ فالكتابة منذ ظهورها مثلت شكلًا من إخراج المعرفة من الذاكرة الفردية إلى العلامة المادية، والمخطوط والكتاب المطبوع والمكتبة والفهرس والهامش والبطاقة الببليوغرافية كلها أدوات جعلت الإنسان قادرًا على بناء معرفة تفوق ما يستطيع الاحتفاظ به داخل ذاكرته البيولوجية في لحظة واحدة. غير أن التحول الرقمي رفع هذه العلاقة إلى درجة جديدة، لأن الوسيط

الخارجي لم يعد مجرد مخزن ينتظر أن يعود إليه القارئ، بل أصبح قادرًا على الاسترجاع السريع والترتيب الآلي والتخصيص والربط، ثم أضاف الذكاء الاصطناعي التوليدي قدرة على إعادة الصياغة والتلخيص والمقارنة واقتراح الإجابات، وهو ما يجعل الحدود بين «ما يعرفه القارئ» و«ما يستطيع الوصول إليه» و«ما يستطيع النظام أن يبنيه له عند الطلب» أكثر تعقيدًا مما كانت عليه في الثقافة المطبوعة.

ولهذا يقترح الفصل مفهوم »الذات القارئة الموزعة «بوصفه مفهومًا إجرائيًا يساعد على فهم القارئ الذي لا ينحصر نشاطه داخل الذاكرة الفردية، بل ينجز بعض وظائف القراءة بواسطة شبكة من الموارد الداخلية والخارجية، من دون أن يعني ذلك أن الذات قد تفتت أو أن المسؤولية أصبحت موزعة بصورة متساوية بين الإنسان والآلة. فالتوزيع الذي يهم هذا الكتاب توزيع وظيفي، أما المسؤولية التأويلية فتبقى مرتبطة بالقارئ البشري الذي يحدد غاية القراءة، ويقرر متى يستخدم الأداة، ويقيم صحة ما تسترجعه أو تولده، ويختار ما سيدخله في فهمه. ومن هنا يصبح الفصل محاولة لبناء توازن بين فكرتين ينبغي ألا تلغي إحداهما الأخرى: الأولى أن العقل القارئ ليس معزولًا عن أدواته وبيئته، والثانية أن الاعتراف بهذا الارتباط لا يبرر نقل سلطة الحكم من الإنسان إلى النظام.

المبحث الأول: مفهوم العقل الممتد

حدود العقل البيولوجي

طرح آندي كلارك وديفيد تشالمرز في مقالتهما الشهيرة «العقل الممتد» سؤالًا أصبح من أكثر الأسئلة تأثيرًا في فلسفة العقل المعاصرة: أين ينتهي العقل وأين يبدأ العالم؟ وقد رفضا الاقتصار على الافتراض الذي يجعل حدود الجلد والجمجمة حدودًا تلقائية لكل العمليات المعرفية، واقترحا بدل ذلك صورة لما أسمياه «الخارجية النشطة»، حيث تستطيع عناصر من البيئة أن تؤدي، في شروط معينة، دورًا سببيًا ووظيفيًا داخل نظام معرفي أوسع [1]**. وتوضح الصياغة الأصلية للمقال أن الفكرة لا تتعلق بمجرد تأثير البيئة في العقل من الخارج، لأن كل معرفة بشرية تتأثر بالبيئة بهذا المعنى العام، وإنما تتعلق بإمكان أن تدخل بعض العناصر الخارجية نفسها في الحلقة التي تنجز الوظيفة المعرفية، بحيث يصبح من التعسف أحيانًا تفسير النشاط بالنظر إلى الدماغ وحده .**

ولا تعني هذه الأطروحة أن كل شيء نستعمله يتحول إلى جزء من العقل، كما لا تعني أن وجود كتاب على الرف يجعل محتواه جزءًا من ذاكرة صاحبه، لأن مفهوم الامتداد يحتاج إلى علاقة وظيفية واستقرار واعتماد يمكن بسببهما للأداة أن تدخل بصورة منتظمة في سير النشاط. وقد أثارت أطروحة كلارك وتشالمرز نقاشًا واسعًا حول شروط الامتداد وحدوده والتمييز بين ما هو جزء من النظام المعرفي وما هو مجرد مورد يستعين به الفرد، وهو النقاش الذي جمع ريتشارد ميناري عددًا من اتجاهاته في كتاب *The Extended Mind* [2]. **وتؤكد الأدبيات الناتجة عن هذا الجدل أن قوة الأطروحة لا تكمن في محو الفرق بين الداخل والخارج بصورة اعتباطية، بل في إجبار النظرية المعرفية على تبرير السبب الذي يجعل العملية المنجزة بمساعدة مورد خارجي أقل «معرفية» لمجرد أن جزءًا منها يقع خارج الجمجمة .**

وتكتسب هذه المسألة أهمية مباشرة بالنسبة إلى القراءة، لأن القارئ لم يكن تاريخيًا كائنًا مكتفيًا بذاكرته الداخلية، بل ظل يعتمد على النص نفسه بوصفه مخزنًا خارجيًا يمكن الرجوع إليه، وعلى الهوامش والفهارس والملاحظات والمعاجم بوصفها أجهزة مساندة للفهم والاسترجاع، غير أن البيئة الرقمية رفعت سرعة التكامل بين القارئ وهذه الموارد إلى مستوى يجعل العودة إلى الخارج جزءًا شبه لحظي من سير التفكير. فإذا واجه القارئ اسمًا نسيه، لم يعد مضطرًا إلى الاحتفاظ بالسؤال حتى يصل إلى مكتبة أو موسوعة، بل يستطيع استرجاعه في ثوان، وإذا أراد مقارنة فقرتين في كتابين مختلفين يمكنه استدعاؤهما في نافذتين متجاورتين، وإذا احتاج إلى تنظيم عشرات الملاحظات يستطيع البحث فيها بعبارة واحدة. ومن هنا يصبح من المشروع السؤال عما إذا كانت القراءة الرقمية المتقدمة لا تغير حجم المعلومات المتاحة فقط، بل تغير كذلك الموقع الذي تؤدى فيه بعض الوظائف المعرفية.

وقد دفع كلارك نفسه أطروحة الامتداد إلى صياغة أكثر تفصيلًا في *Supersizing the Mind*، حيث دافع عن تصور للعقل يرى أن التفكير البشري يمكن أن يتشكل من حلقات تتقاطع فيها عمليات الدماغ والجسد والعالم، وأن الموارد الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية تستطيع أن تعمل بوصفها «سقالات» معرفية توسع قدرات الفرد [3]. ويكتسب مفهوم السقالة أهمية خاصة في هذا الكتاب، لأنه يتيح تجنب القول إن الأداة «تفكر» مثل الإنسان، وفي الوقت نفسه يسمح بالاعتراف بأن بعض أنماط التفكير لا يمكن وصفها وصفًا كاملًا إذا حذفنا الأداة التي يعتمد عليها الفاعل بصورة منظمة. وتقدم Oxford University Press كتاب كلارك باعتباره دفاعًا عن مقاربة للعقل تتجاوز الرؤية «المحبوسة في الدماغ» وتعترف بأهمية الجسد والفعل والبيئة والوسائط التقنية في تنظيم النشاط المعرفي .[3]

ومن هذه الزاوية يمكن صياغة السؤال الخاص بالقراءة على النحو الآتي: هل القارئ الذي يبني حجته مستعينًا بذاكرته الشخصية وقاعدة بيانات للملاحظات ومحرك بحث ونظام استرجاع ذكي يقوم بالفعل المعرفي نفسه

الذي يقوم به قارئ يعتمد على ذاكرته الداخلية وحدها؟ الجواب لا ينبغي أن يكون أن الأول فقد فاعليته لمجرد الاستعانة بالخارج، كما لا ينبغي أن يكون أن جميع العناصر أصبحت عقلًا واحدًا بالمعنى الحرفي، بل يمكن القول إننا أمام نظام قراءة موسع وظيفيًا، حيث تتوزع بعض العمليات على موارد متعددة بينما يظل القارئ هو الطرف الذي يحدد الغرض ويراجع النتائج.

وهذا التمييز مهم لأنه يسمح بتأسيس مفهوم القارئ الهجين على أرضية معرفية أكثر دقة؛ فالهجنة لا تبدأ عند وجود الجهاز قرب القارئ، وإنما عندما تدخل الأداة في دورة متكررة من الفعل والاستجابة وتصبح جزءًا من استراتيجية إنجاز المهمة. وإذا احتاج القارئ إلى البحث مرة استثنائية عن معلومة لا يعرفها، فقد يكون الأمر استعانة خارجية بسيطة، أما إذا كانت طريقته المعتادة في التفكير تقوم على كتابة الملاحظات في نظام رقمي قابل للبحث، وربطها بالنصوص، واستدعاء أدوات تحليلية أثناء القراءة، فإن البنية المعرفية للممارسة نفسها تصبح أكثر توزيعًا.

الأدوات بوصفها امتدادًا للإدراك

تكشف الأدوات المعرفية أن الإنسان لم يتطور ثقافيًا عن طريق زيادة قدرته الداخلية وحدها، بل عن طريق ابتكار بيئات وأجسام تسمح له بتقليل بعض الأعباء وتكبير بعض الإمكانات، فالقلم والورقة يسمحان بالحساب خارج الذاكرة العاملة، والخريطة تحول فضاءً جغرافيًا معقدًا إلى تمثيل يمكن النظر إليه، والفهرس يجعل آلاف الكتب قابلة للتنظيم، والمذكرة الخارجية تحول نية مستقبلية إلى علامة في العالم. ومن ثم لا تكون الأداة مجرد قناة لتنفيذ قرار اتخذ مسبقًا في الرأس، بل تستطيع أن تغير نوع المشكلة نفسها وتجعل عمليات لم تكن ممكنة أو كانت شديدة الصعوبة قابلة للتنفيذ.

وينطبق ذلك على القراءة بصورة واضحة، لأن وضع خط تحت فقرة أو كتابة هامش ليس فعلًا يقع بعد الفهم فقط، بل يمكن أن يدخل في تشكيله؛ فالقارئ حين يكتب سؤالًا بجوار النص يخرج جزءًا من عملية التفكير إلى

الصفحة، ويستطيع بعد ذلك أن يعامل السؤال المكتوب باعتباره موضوعًا جديدًا للتأمل، كما أن ترتيب الاقتباسات في بطاقات أو ملفات يسمح برؤية علاقات لم تكن ظاهرة وهي موزعة بين مئات الصفحات. ومن هنا يتضح أن الأدوات لا تحفظ النتائج وحدها، بل تستطيع أن تشارك في إنتاج شروط ظهور النتائج.

ويقدم كلارك في *Supersizing the Mind* أمثلة على استخدام الرموز والملاحظات والأدوات الخارجية بوصفها أجزاء من حلقات التفكير، مؤكدًا أن بعض العمليات الإنسانية المتقدمة تتشكل من تغذية راجعة مستمرة بين النشاط العصبي والمواد الموجودة في العالم [3]. ولا نحتاج في نظرية القراءة إلى تبني جميع النتائج الميتافيزيقية لهذه الأطروحة، لكن يمكن الاستفادة من مبدئها الوظيفي: عندما يكون الوسيط الخارجي جزءًا ثابتًا من الطريقة التي ينظم بها القارئ المشكلة ويعيد تمثيلها ويستخرج العلاقات منها، فإن تجاهله يترك وصفًا ناقصًا لفعل القراءة

غير أن الانتقال من الأدوات التقليدية إلى الأدوات الخوارزمية يضيف فرقًا نوعيًا، لأن الورقة لا تعيد ترتيب ما كتب عليها من تلقاء نفسها، بينما يستطيع النظام الرقمي البحث والتصنيف والاقتراح، كما أن دفتر الملاحظات لا يولد جوابًا جديدًا، بينما يستطيع النظام التوليدي أن ينتج ملخصًا أو مقارنة أو فرضية. ولذلك فإننا ننتقل من أدوات يمكن وصفها بأنها امتدادات ساكنة نسبيًا للإدراك إلى أدوات فاعلة وظيفيًا تستطيع معالجة المواد والاستجابة للمستخدم. وهذا التحول لا يجعلها ذواتًا واعية، لكنه يزيد مقدار تأثيرها في سير العملية المعرفية ويضاعف الحاجة إلى تحديد موقع القرار البشري.

ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال من الامتداد داخل القراءة: امتداد تخزيني تحفظ فيه الأداة ما لا يريد القارئ حمله في ذاكرته، وامتداد تشغيلي تساعد فيه الأداة على البحث والترتيب والمقارنة، وامتداد اقتراحي تولد فيه الأداة فرضيات أو تلخيصات أو علاقات جديدة يمكن أن تؤثر في

الفهم. وكل انتقال من المستوى الأول إلى الثالث يقرب الأداة أكثر من قلب العملية التأويلية، لكنه في الوقت نفسه يجعل ضرورة التحقق والنقد أكثر إلحاحًا.

ولا ينبغي أن يقودنا الحديث عن الامتداد إلى الاعتقاد بأن قيمة الأداة تكمن في تخفيف كل جهد، لأن بعض أوجه الجهد نفسها جزء من التعلم. فإذا كان الهدف من القراءة بناء ذاكرة للمفاهيم، فإن جعل النظام يسترجعها دائمًا قد يحرم القارئ من ممارسة الاسترجاع، وإذا كان الهدف تعلم بناء الحجة فإن تفويض تلخيصها وتحليلها إلى الآلة قد ينتج نتيجة جيدة خارجيًا لكنه لا يضمن تشكل الكفاءة داخليًا. ومن هنا يصبح السؤال التربوي والنقدي هو تحديد أي الجهود قابلة للتخفيف وأيها ينبغي الاحتفاظ بها لأنها هي النشاط الذي نريد تنميته.

المبحث الثاني: الإدراك الموزع

توزيع العمليات المعرفية

إذا كان مفهوم العقل الممتد يبدأ من سؤال حدود العقل الفردي، فإن نظرية الإدراك الموزع تنقل الاهتمام إلى مستوى أوسع هو مستوى النظام الذي تنجز داخله المهمة، وقد قدم إدوين هاتشنز في *Cognition in the Wild* أحد أكثر النماذج تأثيرًا لهذا الاتجاه من خلال دراسته لعمليات الملاحة على السفن، حيث أظهر أن الإنجاز المعرفي لا يمكن فهمه بالتركيز على عقل فرد واحد، لأنه يتوزع بين أفراد ذوي أدوار مختلفة وأدوات وتمثيلات وإجراءات اجتماعية تشكل مجتمعة نظامًا قادرًا على إنجاز المهمة [4]. ولا يعني ذلك أن «الجماعة» تمتلك عقلًا بالمعنى الحرفي نفسه الذي يمتلكه الفرد، بل إن مستوى النظام يكشف خصائص وعمليات لا تظهر إذا عزلنا كل عنصر عن بقية العناصر .

وتكتسب هذه الرؤية قيمة خاصة في دراسة القراءة الهجينة، لأن فعل القراءة الذي يبدو فرديًا يمكن، عند تفكيكه، أن يتبين أنه يعتمد على توزيع مستمر للوظائف: فالقارئ يحتفظ بجزء من السياق في ذاكرته، والنص يحمل جزءًا آخر، ونظام الملاحظات يسجل علاقات سابقة، ومحرك البحث يسترجع مرجعًا، والمنصة ترتب المواد، وقد يولد النظام الذكي تفسيرًا أوليًا، ثم يعود الإنسان لدمج هذه العناصر داخل موقفه. ومن هنا لا تصبح وحدة التحليل المناسبة دائمًا «العقل الذي يقرأ» بمعزل عن العالم، بل قد تصبح منظومة قراءة تتكون من القارئ والنص والواجهة والأداة والذاكرة الخارجية والخوارزمية والسياق.

ويتيح هذا النموذج تفسير بعض الاختلافات بين القارئ التقليدي والقارئ الهجين بصورة أكثر دقة، لأن الفرق لا يكمن في أن الأول يستخدم العقل والثاني يستخدم الآلة، فالاثنان يستخدمان أدوات وبيئات خارجية بدرجات متفاوتة، وإنما يكمن في مقدار التنظيم الذي أصبح ينتقل من الإنسان إلى البيئة التقنية. فحين يستخدم القارئ فهرسًا مطبوعًا يظل هو الذي يربط بين

الكلمات والمرجع، أما محرك البحث فينفذ عملية واسعة من الفهرسة والترتيب قبل أن يعرض النتائج، وحين يضع الشخص بطاقات اقتباس فهو الذي يرتبها، أما برنامج إدارة المعرفة فيستطيع أن يبحث فيها آليًا ويربط بينها، وحين يسأل مساعدًا توليديًا قد يحصل على مقارنة كاملة بين مفاهيم لم يجمعها يدويًا من قبل. وهكذا يتسع التوزيع من التخزين إلى المعالجة.

لكن مفهوم الإدراك الموزع يحذر في الوقت نفسه من خطأ اختزال نجاح النظام في أداة واحدة، لأن الأداء لا يعتمد على التقنية فقط بل على تنظيم العلاقة بين العناصر. فإذا كان النظام يقدم معلومات كثيرة لكن القارئ لا يستطيع تقييمها، فإن التوزيع لا ينتج بالضرورة معرفة أفضل، وإذا كانت الأداة قوية لكن صياغة السؤال ضعيفة، فقد يكون المخرج محدودًا، وإذا كانت المصادر غير مناسبة فإن سرعة المعالجة لن تصلح المشكلة. ومن هنا ينبغي أن ندرس القارئ الهجين بوصفه منسقًا لنظام معرفي أكثر من كونه مستخدمًا سلبيًا لآلة ذكية.

ويترتب على هذا التحول مفهوم مهم هو «هندسة البيئة القرائية»، لأن القارئ لا يكتفي باختيار النص، بل يمكنه أن يختار كذلك الأدوات التي تحيط به وطريقة توزيع الوظائف بينها، فيحدد ما الذي سيحتفظ به في الملاحظات، وما الذي سيستدعيه من قاعدة بيانات، وما المهمة التي سيطلبها من الذكاء الاصطناعي، وما المرحلة التي سيقرأ فيها دون مساعدة. ومن هنا تصبح الكفاءة في البيئة الهجينة مرتبطة بقدرة الفرد على تصميم النظام الذي يقرأ من خلاله، بحيث لا يكون توزيع الوظائف عشوائيًا أو مفروضًا بالكامل من المنصة.

الإنسان والبيئة التقنية

لا توجد العمليات المعرفية البشرية خارج بيئة ثقافية وتقنية، لأن الأدوات والرموز والمؤسسات لا تأتي بعد العقل بوصفها إضافات محايدة، بل تشكل جزءًا من العالم الذي يتعلم الإنسان داخله التفكير. وقد وسعت ن. كاثرين

هايلز هذا المنظور من خلال مفهوم «التكوين التقني المعاصر»، الذي يركز على التطور المتبادل بين الإنسان والتقنيات، ويؤكد أن التفكير يحدث «من خلال الوسائط ومعها وإلى جانبها» [8]. ومن هنا لا يكون السؤال فقط ماذا تفعل التقنية بعقل موجود مسبقًا، بل كذلك ما العادات والكفايات وأنماط الانتباه والذاكرة التي تتشكل عندما يعيش الفرد طويلًا داخل بيئة تقنية معينة

ويظهر هذا بوضوح في القراءة الرقمية؛ فالقارئ الذي اعتاد البحث داخل النص يطور استراتيجية مختلفة عن قارئ يعتمد على التذكر المكاني للصفحة، والذي يستخدم الملاحظات السحابية يتعلم أن جزءًا من ذاكرته القرائية قابل للاستدعاء من أي جهاز، والذي يعتمد على الروابط يستطيع أن يبني مسارًا بين مصادر متباعدة، بينما يتعلم القارئ التوليدي أن بعض الأسئلة يمكن تحويلها فورًا إلى حوار مع نظام. ولا تبقى هذه الممارسات خارجية تمامًا، لأنها مع التكرار تصبح عادات في تنظيم المشكلة نفسها.

لكن البيئة التقنية ليست تحت سيطرة القارئ بالكامل، لأن الأدوات تأتي بتصميمات وافتراضات وأولويات تحدد ما هو سهل وما هو صعب، وقد تجعل بعض أشكال السلوك افتراضية. فالمنصة التي تضع البحث في الواجهة تشجع نمطًا معينًا من الاسترجاع، والتي تعرض التوصيات باستمرار تجعل الاكتشاف المخصص جزءًا من القراءة، والنظام الذي يقدم ملخصًا بنقرة واحدة يقلل الاحتكاك الذي كان يفصل القارئ عن عملية التلخيص. ومن هنا لا يقتصر الإدراك الموزع على أن الإنسان يمد عقله إلى البيئة، بل يجب أن نعترف كذلك بأن البيئة تعيد تشكيل المسارات التي يتحرك فيها العقل.

وهذا ما يجعل مفهوم الذات القارئة الموزعة بحاجة إلى بعد نقدي؛ فالتوزيع ليس قرارًا حرًا دائمًا، بل قد يُفرض جزئيًا من تصميم النظام، وقد يصبح المستخدم مع مرور الوقت معتمدًا على وظائف لم يختر أصلًا أن تكون مركزية في ممارسته. ولذلك ينبغي للقارئ الهجين أن يستطيع التمييز بين

التوزيع الذي يديره والتوزيع الذي تديره المنصة نيابة عنه، لأن الأول يمكن أن يمثل توسعًا في الفاعلية، بينما قد يتحول الثاني إلى شكل من أشكال التوجيه غير المرئي.

المبحث الثالث: الذاكرة الخارجية

محركات البحث بوصفها ذاكرة

تمثل الذاكرة الخارجية واحدة من أقدم صور امتداد المعرفة البشرية، لأن الكتابة نفسها تحفظ ما يتجاوز قدرة الفرد على التذكر، غير أن محركات البحث أحدثت تحولًا مهمًا في طبيعة هذا الامتداد عندما جعلت الوصول إلى المخزون الخارجي سريعًا إلى درجة تسمح له بالدخول مباشرة في سير التفكير. وقد أظهرت دراسة بيتسي سبارو وجيني ليو ودانييل فيغنر سنة 2011 أن توقع إمكان الوصول المستقبلي إلى المعلومات يمكن أن يرتبط بانخفاض تذكر المعلومات نفسها وارتفاع تذكر المكان الذي يمكن العثور عليها فيه، وهو ما دفع الباحثين إلى وصف الإنترنت بوصفه شكلًا من الذاكرة الخارجية أو «التبادلية» [6]. ولا تعني هذه النتيجة أن محركات البحث تدمر الذاكرة أو أن الإنسان توقف عن التذكر، بل تكشف تحولًا في استراتيجية التذكر، حيث يصبح السؤال أحيانًا «أين توجد المعلومة؟» بدل «ما المعلومة نفسها؟ .«

وترتبط هذه الفكرة بمفهوم «الذاكرة التبادلية» الذي طوره دانييل فيغنر في سياق دراسة الجماعات، حيث تستطيع مجموعة من الأفراد أن تبني نظامًا معرفيًا يعتمد كل عضو فيه على معرفة من يعرف ماذا، وبذلك لا يحتاج الجميع إلى الاحتفاظ بالمعلومات نفسها ما دام النظام الجماعي يسمح باستعادتها عند الحاجة [5]. وقد صيغ هذا المفهوم قبل الإنترنت بسنوات طويلة، لكنه أصبح مرجعًا مناسبًا لفهم جزء من علاقتنا بمحركات البحث، لأن المستخدم قد لا يحتفظ بالمعلومة ذاتها لكنه يحتفظ ضمنيًا بمعرفة أن الشبكة تستطيع استعادتها .

ويذهب أدريان وورد إلى أن العلاقة بالإنترنت قد تتجاوز الاستعانة العرضية إلى نمط يجعل الشبكة موردًا معرفيًا حاضرًا باستمرار في تشكيل ما نحاول تذكره وكيف نحل المشكلات، وهو ما يزيد أهمية التمييز بين الذاكرة الداخلية والذاكرة المتاحة خارجيًا [7]. ولا ينبغي فهم هذه العلاقة

بطريقة صفرية تفترض أن زيادة أحد الطرفين تساوي نقص الآخر دائمًا، لأن الذاكرة الخارجية تستطيع تحرير موارد بشرية للتركيب والتحليل إذا كان القارئ يملك بنية داخلية كافية لتقييم ما يسترجعه، لكنها تستطيع في المقابل أن تنتج اعتمادًا هشًا إذا أصبحت المعرفة الشخصية لا تتجاوز معرفة المسار إلى المعلومة .

ويظهر هذا الفرق بوضوح في القراءة البحثية؛ فالباحث لا يحتاج إلى حفظ كل أرقام الصفحات والمراجع، ويمكن لنظام خارجي أن يقوم بهذه الوظيفة بكفاءة أكبر، لكن عليه أن يمتلك داخل ذاكرته طويلة المدى خريطة مفهومية للمجال تسمح له بفهم لماذا هذا المرجع مهم وكيف يرتبط بغيره. ومن هنا يمكن القول إن البيئة الرقمية تعيد توزيع الذاكرة على مستويين :ذاكرة للتفاصيل يمكن نقل جزء كبير منها إلى الخارج، وذاكرة للبنية والمفاهيم ينبغي أن تبقى قوية داخل القارئ حتى يستطيع استخدام التفاصيل الخارجية استخدامًا ذا معنى.

وتصبح المشكلة أكثر تعقيدًا مع الذكاء الاصطناعي التوليدي، لأن القارئ لم يعد يستدعي المعلومة من مخزن فقط، بل قد يطلب من النظام أن يعيد تركيب عدد من المعلومات في جواب جديد، وعندها ينتقل الاعتماد من «الذاكرة الخارجية» إلى ما يمكن تسميته الذاكرة الخارجية المولدة، حيث لا يسترجع المستخدم شيئًا محفوظًا بالصيغة نفسها، بل يحصل على بناء جديد استنادًا إلى معالجة النظام. وهذه النقلة تزيد الفائدة المحتملة، لكنها تجعل التحقق أكثر ضرورة، لأن استرجاع الصفحة الأصلية يسمح للقارئ بمراجعة المصدر، بينما الجواب المركب قد يخفي الحدود بين المعلومة والاستنتاج.

السحابة والمحفوظات الرقمية

أحدث التخزين السحابي تحولًا آخر في معنى الذاكرة الخارجية، لأن الملاحظات والصور والوثائق والكتب لم تعد مرتبطة بجهاز أو مكان واحد، بل أصبحت قابلة للاستدعاء من بيئات مختلفة، وهو ما يجعل الذاكرة

الشخصية نفسها أكثر انفصالًا عن الجسم المادي الذي كانت تحفظ فيه. وقد درست خوسيه فان دايك التحول من وسائل الذاكرة التناظرية إلى الرقمية من زاوية العلاقة بين التكنولوجيا والذاكرة الشخصية والهوية، مبينة أن أدوات الوساطة تدخل في الطريقة التي نحفظ بها الماضي ونستعيده ونمنحه معنى [8]. وينطبق المبدأ نفسه على القراءة، لأن سجل الاقتباسات والتعليقات والكتب والملاحظات الرقمية لا يمثل مجرد أرشيف خام، بل يصبح جزءًا من الطريقة التي يعيد القارئ من خلالها تركيب تاريخه القرائي .

ويتميز الأرشيف الرقمي عن دفتر الملاحظات التقليدي بقدرات البحث والنسخ والترتيب والربط، ولذلك لا يعمل فقط بوصفه مخزنًا بل بوصفه بنية قابلة للحوسبة .يستطيع القارئ أن يبحث في عشر سنوات من الملاحظات بعبارة واحدة، وأن يجمع كل ما كتبه حول مفهوم معين، وأن يربط الكتاب بملخصاته ومراجعاته ومصادره، وهو ما يجعل الذاكرة الخارجية أكثر قابلية للدخول في لحظة التفكير. وفي هذا المعنى لا يكون الأرشيف امتدادًا كميًا للذاكرة فقط، بل تغيرًا في كيفية استرجاع الماضي القرائي.

غير أن سهولة التخزين تنتج مشكلة مقابلة هي تضخم المحفوظات؛ فحين يصبح حفظ كل شيء رخيصًا، تنتقل المشكلة من عدم القدرة على الاحتفاظ إلى عدم القدرة على معرفة ما يستحق العودة إليه، ولذلك تظهر أنظمة التصنيف والبحث والترشيح باعتبارها وسائط داخل الذاكرة نفسها. وهنا تدخل الخوارزمية مرة أخرى، لأن القارئ قد لا يتذكر ما حفظه إلا حين يقترحه النظام أو يعثر عليه عبر بحث، وبذلك تصبح علاقته بماضيه المعرفي جزئيًا علاقة موسطة بأدوات تنظيم لا يسيطر على جميع منطقها.

ومن هنا يمكن التمييز بين ذاكرة خارجية تحت إدارة القارئ، مثل نظام ملاحظات يبنيه هو ويحدد تصنيفاته، وذاكرة خارجية تحت إدارة المنصة، حيث تحدد الأداة كيفية الترتيب والاسترجاع وربما ما يظهر تلقائيًا. وتزداد

السيادة المعرفية كلما كان القارئ قادرًا على فهم بنية أرشيفه والبحث فيه ونقل مواده والتحقق من أصولها، بينما تضعف عندما يصبح تاريخ القراءة محبوسًا في نظام مغلق لا يستطيع الفرد رؤية منطقه أو الوصول إليه خارج واجهته.

وتطرح هذه المسألة سؤالًا آخر يتعلق بالنسيان، لأن الذاكرة البشرية لا تقوم على الحفظ الكامل، بل على عمليات من الانتقاء وإعادة التنظيم، بينما تستطيع البيئة الرقمية أن تحتفظ بتفاصيل لم يعد الإنسان يتذكرها. ولا يعني ذلك أن الحفظ المستمر سيئ، لكنه يجعل إدارة المحفوظات جزءًا من الكفاءة؛ فالقارئ يحتاج أحيانًا إلى حذف المواد المتكررة وإعادة تصنيفها وتحديد ما هو مركزي، وإلا تحول الأرشيف من امتداد للذاكرة إلى كتلة من البيانات التي لا تضيف معرفة. ومن هنا يصبح التنظيم والنسيان الانتقائي جزءًا من هندسة الذات القارئة الموزعة.

المبحث الرابع: التفويض المعرفي

تفويض الاسترجاع للآلة

يختلف التفويض المعرفي عن مجرد استخدام الأداة في أن القارئ ينقل إليها وظيفة كان يمكن، من حيث المبدأ، أن يقوم بها بنفسه، ويعتمد على نتيجتها لتقليل العبء المعرفي. وقد قدم إيفان ريسكو وسام غيلبرت مفهوم «التفريغ المعرفي» أو *cognitive offloading* بوصفه استخدام فعل أو مورد خارجي لتغيير متطلبات معالجة المهمة وتقليل العبء الداخلي، وأظهرا أن الميل إلى هذا السلوك لا يعتمد فقط على صعوبة المهمة بل كذلك على تقييم الفرد لقدراته المعرفية [9]. وتكتسب هذه الفكرة أهمية كبيرة في القراءة الهجينة لأن الهاتف ومحرك البحث والتذكير الرقمي والآلة الحاسبة والمساعد التوليدي كلها تستطيع أن تصبح وسائل لتفريغ جزء من العمل إلى الخارج .

ولا يحمل التفويض قيمة سلبية في ذاته؛ فالعقل البشري محدود ، ومن غير المعقول مطالبة القارئ بحفظ جميع التواريخ والأسماء والمراجع التي يستطيع استرجاعها بسهولة، بل إن نقل بعض الأعباء الروتينية إلى الخارج قد يتيح موارد أكبر للتحليل، كما أن الباحث المتمرس لا يقاس بقدرته على حفظ كل صفحة بل بقدرته على معرفة أي مرجع يحتاج إليه وكيف يضعه داخل الحجة. ولذلك فإن الاسترجاع الآلي يمكن أن يمثل تفويضًا منتجًا عندما يخفف وظيفة منخفضة القيمة بالنسبة إلى الهدف ويترك للإنسان المهمة العليا.

لكن التفويض يصبح أكثر إشكالًا عندما ينتقل من التفاصيل إلى البنية، لأن القارئ الذي يفوض كل عمليات التذكر قد يفقد تدريجيًا المادة الداخلية التي يحتاج إليها للحكم على ما يسترجعه. فإذا بحث شخص عن كل معلومة منفردة دون أن يبني إطارًا معرفيًا مستقرًا ، فقد يصبح قادرًا على الوصول إلى الأجوبة وغير قادر على رؤية تناقضاتها. ومن هنا يمكن القول

إن التفويض الصحي يحتاج إلى حد أدنى من المعرفة الداخلية يراقب المعرفة الخارجية.

ويظهر هذا الشرط بصورة خاصة في استخدام الذكاء الاصطناعي، لأن سهولة طرح السؤال والحصول على جواب قد تغري القارئ بتفويض الاسترجاع حتى في المواضع التي تكون فيها محاولة التذكر نفسها جزءًا من التعلم. ومن هنا يصبح «متى أبحث؟» سؤالًا تربويًا لا يقل أهمية عن «كيف أبحث؟»، لأن الاستدعاء السريع مفيد بعد أن يكون المفهوم قد بُني، لكنه قد يعيق بناءه إذا حل دائمًا محل محاولة الاسترجاع الداخلية.

ويعتمد القارئ الهجين الناضج، لذلك، مبدأ **التفويض الانتقائي**، حيث لا يحدد ما ينقله إلى الآلة بحسب قدرتها على القيام بالمهمة فقط، بل بحسب قيمة المهمة في بناء كفايته. فإذا كانت الوظيفة روتينية أو تتعلق بتفصيل يمكن التحقق منه بسهولة، قد يكون التفويض عقلانيًا، أما إذا كانت الوظيفة هي جوهر المهارة التي يريد القارئ تنميتها، فإن الاحتفاظ بها في الجانب البشري يصبح ضروريًا.

<u>تفويض التلخيص والتحليل</u>

يمثل تفويض التلخيص والتحليل مستوى أكثر حساسية من تفويض الاسترجاع، لأن القارئ لم يعد ينقل إلى الأداة مهمة العثور على معلومة، بل ينقل جزءًا من عملية تحديد ما هو مهم وبناء العلاقات بين العناصر، وهي وظائف تدخل مباشرة في إنتاج الفهم. فالتلخيص ليس مجرد تقليل عدد الكلمات، بل يتطلب تمييز المركزي من الثانوي وربط الحجج وتحديد الهيكل، والتحليل لا يقوم على استخراج وحدات منفصلة فقط بل على بناء علاقات واستنتاجات، ولذلك فإن نقل هذه الوظائف إلى النظام يقترب أكثر من نقل جزء من العمل التأويلي.

ولا يعني ذلك أن التلخيص الآلي ينبغي رفضه، لأن فائدته قد تكون كبيرة في الاستكشاف الأولي أو استعادة مادة سبق للقارئ دراستها أو فرز

مجموعة كبيرة من النصوص قبل اختيار ما يحتاج إلى قراءة عميقة، لكن موقعه داخل الدورة القرائية هو الذي يحدد قيمته. فإذا استخدم القارئ الملخص قبل النص وبديلاً عنه بصورة دائمة، فإنه قد يحصل على معرفة بالخطوط العامة دون المرور بعملية بناء الفهم، أما إذا استخدمه بعد القراءة لمقارنة ما فهمه أو اكتشاف عناصر أغفلها، فإن الأداة تصبح جزءًا من حلقة مراجعة قد تعزز نشاطه.

وينطبق الشيء نفسه على التحليل؛ فطلب النظام استخراج الحجج المضادة يمكن أن يوسع مجال التفكير إذا كان القارئ يمتلك موقفًا أوليًا يقارن به النتائج، أما طلب تحليل كامل لنص لم يقرأه ثم تبني الناتج فيحوله إلى مستهلك لممارسة كان يفترض أن يقوم بها. ومن هنا يصبح الفرق بين المساعدة المعرفية والإحلال المعرفي فرقًا في ترتيب العلاقة: هل تأتي الآلة داخل نشاط بشري قائم، أم يأتي الإنسان بعد أن أكملت الآلة النشاط نيابة عنه؟

ويمكن أن نصوغ هنا ما نسميه عتبة التفويض، وهي النقطة التي ينتقل عندها تدخل التقنية من تخفيف عبء جانبي إلى نقل وظيفة مركزية من وظائف الفهم إلى النظام. ولا يمكن تحديد هذه العتبة بصورة واحدة لجميع المهمات، لأن وظيفة تعد جانبية في سياق قد تكون جوهرية في سياق آخر؛ فتلخيص وثيقة سبق للباحث قراءتها ليس كتلخيص رواية يدّعي بعدها أنه درس أسلوبها، واستخراج قائمة بالأسماء ليس كاستخراج الحجة التي يفترض أن يتعلم الطالب بنفسه إعادة بنائها. ولذلك فإن عتبة التفويض مرتبطة بغاية القراءة.

وتكشف هذه المسألة أن الخطر الأكبر للذكاء الاصطناعي في القراءة لا يتمثل فقط في احتمال الخطأ، بل في أن يكون الجواب صحيحًا ونافعًا إلى درجة تجعل القارئ لا يمارس المهارة التي كان ينبغي أن يبنيها. فالخطأ يمكن اكتشافه وتصحيحه، أما النجاح الاستبدالي فقد يكون أكثر خفاء، لأن المستخدم يحصل على النتيجة المطلوبة بينما لا تتكون داخله

الكفاية التي أنتجتها. ومن هنا تصبح نظرية القارئ الهجين مطالبة بتقييم ليس فقط جودة المخرج، بل أثر طريقة الوصول إليه في تكوين القارئ نفسه.

المبحث الخامس: الذات القارئة الموزعة

- تداخل البشري والتقني

يتيح الجمع بين العقل الممتد والإدراك الموزع والذاكرة الخارجية والتفويض المعرفي صياغة مفهوم «الذات القارئة الموزعة» الذي يقترحه هذا الكتاب بوصفه وصفًا وظيفيًا للقارئ الذي لا تنجز جميع عملياته داخل حدود الذاكرة الفردية، بل يعمل داخل شبكة من الموارد البشرية والتقنية. ولا يعني هذا المفهوم أن الذات تنقسم إلى أجزاء مستقلة أو أن التقنية تكتسب نصيبًا من الهوية الشخصية بصورة مباشرة، بل يشير إلى أن وحدة إنجاز القراءة يمكن أن تكون أوسع من الفرد حين تدخل الأدوات بصورة منظمة في البحث والاسترجاع والحفظ والمقارنة والتفسير.

فالذات القارئة في البيئة الهجينة قد تحفظ النص في جهاز، وتخزن الملاحظات في السحابة، وتعتمد على محرك بحث في الاسترجاع، وعلى قاموس آلي في الترجمة، وعلى نظام توليدي في اختبار فرضية تأويلية، ثم تعود إلى حكمها الداخلي لتقرر ما تقبله وما ترفضه. وإذا حذفنا هذه الموارد من الوصف سنحصل على صورة ناقصة للممارسة، لكن إذا ساويناها جميعًا بالذات سنفقد الفروق الضرورية بين الفاعل البشري والوسائط. ومن هنا يكون وصف الذات بـ«الموزعة» محاولة للحفاظ على طرفي المعادلة :اتساع النظام ووحدة المسؤولية.

ويتقاطع هذا التصور مع هايلز في التفكير في الإنسان والتقنية بوصفهما داخل علاقة تطور متبادل [8]، ومع هاتشنز في النظر إلى النشاط المعرفي داخل نظام أوسع [4]، ومع كلارك وتشالمرز في نقد الحدود الصلبة للعقل [1]، لكنه يختلف عنها في أن وحدة الدراسة هنا محددة بفعل القراءة وبالأسئلة النقدية المتعلقة بالتأويل. ومن ثم فإن «الذات القارئة الموزعة» ليست ادعاءً عامًا عن طبيعة الوعي الإنساني، بل مفهوم تحليلي يصف الطريقة التي أصبح بها القارئ قادرًا على توزيع بعض وظائفه مع الاحتفاظ بموقعه كفاعل مسؤول.

ويظهر التداخل البشري ـ التقني في القراءة على مستويات متفاوتة؛ ففي المستوى الأدنى يحفظ القارئ موضعه وملاحظاته خارج ذاكرته، وفي المستوى المتوسط تستعيد الأدوات المعلومات وتنظمها، وفي المستوى المتقدم تدخل الأنظمة إلى المقارنة والتلخيص والتفسير. وكلما ارتفع المستوى أصبحت الحدود الوظيفية أكثر قابلية للتفاوض، لأن السؤال لا يعود «هل استخدم القارئ تقنية؟» بل «أي جزء من الفعل أنجزه الإنسان وأي جزء أنجزه النظام وكيف انتقلت النتيجة من أحدهما إلى الآخر؟.«

ومن هنا يمكن تمثيل الذات القارئة الموزعة في صيغة تتكون من خمس دوائر متفاعلة :الذاكرة البشرية التي تحمل اللغة والخبرة والمعرفة السابقة، والنص الذي يقدم المادة ويقاوم التأويلات غير المسندة، والذاكرة الخارجية التي تحفظ وتسترجع، والوسيط الخوارزمي الذي يرتب ويقترح ويعالج، والسياق الثقافي والاجتماعي الذي يمنح القراءة معاييرها وأسئلتها. ولا يعمل أي من هذه العناصر في فراغ، لكن مركز المسؤولية يظل في الطرف البشري الذي يدخل في العلاقة.

ويمكن هنا الحديث عن ذات موزعة وظيفياً وغير موزعة أخلاقياً، وهي صيغة أساسية في نظرية القارئ الهجين، لأن القول بتوزيع الإدراك قد يساء فهمه باعتباره توزيعاً للمساءلة. فإذا أدخل باحث تفسيراً خاطئاً ولده نظام ذكاء اصطناعي في دراسة أكاديمية، لا يستطيع أن يتنصل من المسؤولية لأن «النظام قال ذلك»، وإذا اعتمد قارئ ترجمة آلية دون مراجعة ثم بنى عليها حكماً، فإن الوساطة تفسر الخطأ لكنها لا تلغي مسؤوليته عن اعتماده. ومن هنا يصبح الفرق بين الوظيفة والمسؤولية أحد الحدود الأساسية للهجنة.

ـ إعادة تعريف استقلال القارئ

يحتاج مفهوم الاستقلال في ضوء الذات الموزعة إلى إعادة بناء، لأن الاستقلال لا يمكن أن يعني أن القارئ يقوم بكل شيء وحده، فهذا التصور لم يكن واقعياً حتى في الثقافة المطبوعة التي اعتمدت على المعاجم

والمكتبات والنقاد والمحررين والهوامش، ويصبح أقل واقعية في بيئة رقمية لا يمكن فيها التعامل مع الوفرة الهائلة من النصوص من دون أدوات بحث وتنظيم. ولذلك يقترح هذا الكتاب الانتقال من مفهوم الاستقلال بوصفه غياب المساعدة إلى مفهوم الاستقلال بوصفه القدرة على إدارة المساعدة.

ويصبح القارئ مستقلًا، وفق هذا التصور، حين يعرف الوظائف التي فوّضها، ويستطيع تقييم نتائجها، ويملك إمكانية العودة إلى المصدر، ويستطيع تغيير الأداة أو الاستغناء عنها في المراحل التي تحتاج إلى عمله المباشر، ولا يخلط بين رأيه والمخرج الذي اقترحه النظام. ومن ثم فإن الاعتماد على أداة لا يناقض الاستقلال بالضرورة، تمامًا كما أن استخدام المعجم لا يجعل القارئ فاقدًا لاستقلاله، لكن الاعتماد يصبح تبعية عندما يفقد المستخدم القدرة على تقييم الوظيفة أو تصور بديل لها.

ومن هنا يمكن تعريف الاستقلال الهجين بأنه قدرة القارئ على العمل داخل نظام معرفي موزع مع الاحتفاظ بالسيطرة على توزيع الوظائف وبالحكم على نتائجها. وهذا التعريف يجعل الاستقلال قدرة تنظيمية وميتامعرفية أكثر منه عزلة، لأن القارئ يحتاج إلى أن يعرف ليس فقط ما يفهمه، بل كيف وصل إلى هذا الفهم ومن أين جاءت عناصره.

ويصبح هذا الوعي أكثر أهمية مع النظم التوليدية لأن الحدود بين كلام القارئ وكلام الأداة يمكن أن تصبح أقل وضوحًا بعد حوار طويل، وقد يتذكر الفرد فكرة دون أن يتذكر هل استنتجها بنفسه أم قرأها في جواب مولد، وهو ما يطرح مسألة «مصدر المعرفة» داخل الذات الموزعة. ولهذا ينبغي للقارئ الهجين، ولا سيما في البحث الأكاديمي، أن يحتفظ بأثر للمصادر والأسئلة والمخرجات، لا لكي يسجل كل حركة آليًا، بل لكي يستطيع إعادة بناء الطريق الذي وصل من خلاله إلى النتيجة.

كما يتطلب الاستقلال القدرة على تحمل الاحتكاك المعرفي وعدم تفويض المهمة فور ظهور الصعوبة، لأن الاستقلال لا يختبر في الوظائف السهلة بل في اللحظة التي تعرض فيها الأداة أن تنجز مكان القارئ ما يحتاج

إلى جهد. وإذا كانت القراءة العميقة تتطلب التردد وإعادة المحاولة، فإن القارئ المستقل يحتاج أحيانًا إلى مقاومة الراحة التي تقدمها الآلة حتى تتكون لديه فرضية أولى، ثم يستطيع بعد ذلك استعمال الأداة في المقارنة والنقد. ومن هنا تصبح القدرة على تأجيل المساعدة جزءًا من الاستقلال بقدر القدرة على استدعائها.

ويؤدي هذا المنظور إلى إعادة تعريف السيادة التأويلية بصورة أكثر دقة؛ فهي ليست احتكار الإنسان لكل خطوة، بل حقه في أن يكون صاحب القرار الأخير حول معنى ما يقرأ، وأن يستطيع تفسير الطريق الذي قاده إليه، وأن يعرف حدود الأدوات التي شاركت في بناء هذا الطريق. وعليه فإن الذات القارئة الموزعة لا تعني نهاية استقلال القارئ، بل انتقال استقلاله من الاعتماد على الذات وحدها إلى إدارة الاعتماد المتبادل.

المبحث السادس: كفايات القارئ الهجين

ـ الكفاية الرقمية والخوارزمية

إذا كانت القراءة الهجينة تقوم على توزيع بعض الوظائف بين القارئ وبيئته التقنية، فإنها تحتاج إلى كفايات تتجاوز القدرة التقليدية على فك النص وفهمه، لأن المستخدم أصبح مطالبًا بمعرفة خصائص الأدوات التي تدخل في نشاطه وكيفية اختيارها وضبطها والتحقق من حدودها. ولا ينبغي اختزال هذه الكفاية في مهارات التشغيل، لأن معرفة فتح تطبيق أو كتابة سؤال لا تعني فهم طبيعة النظام الذي يقدم الجواب، ولذلك ينبغي التمييز بين الكفاية الرقمية الإجرائية والكفاية الخوارزمية النقدية.

تشمل الكفاية الرقمية القدرة على الوصول إلى النصوص وتنظيم الملفات واستخدام البحث وحماية البيانات وتمييز الصيغ وإدارة الملاحظات والمصادر، وهي مهارات ضرورية لكنها تمثل المستوى الأول فقط. أما الكفاية الخوارزمية فتبدأ عندما يدرك القارئ أن نتائج البحث والتوصيات والترتيب والمخرجات التوليدية ليست انعكاسًا محايدًا للعالم، بل نتائج عمليات تصميم ومعالجة وترشيح. وقد أظهرت أبحاث آن أودلف-هيرش وجيرمان نويباوم أن «الوعي الخوارزمي» متعدد الأبعاد، ويرتبط بالمعرفة والمواقف والسلوك، وأن وعي المستخدمين بعمليات التصفية يمكن أن يرتبط بممارسات تهدف إلى التعامل مع آثارها أو مقاومتها.[12]

ويضاف إلى ذلك ما يسمى «محو الأمية في الذكاء الاصطناعي»، وقد اقترح دوري لونغ وبرايان ماغيركو إطارًا للكفايات التي يحتاج إليها الأفراد للتفاعل الفعال مع أنظمة الذكاء الاصطناعي وتقييمها نقديًا، مؤكدين أن الثقافة المرتبطة بالذكاء الاصطناعي لا تقتصر على المعرفة التقنية المتخصصة، بل تشمل فهم ما تستطيع هذه الأنظمة فعله وما لا تستطيع، وكيف ينبغي التفاعل معها وتقييم مخرجاتها [11]. ويستفيد هذا الكتاب من هذا الاتجاه لتطوير صيغة خاصة بالقراءة، حيث لا يحتاج القارئ إلى أن يصبح مهندس تعلم آلي، لكنه يحتاج إلى معرفة أن النظام قد يخطئ، وأن

صياغة السؤال تؤثر في المخرج، وأن التوليد لا يساوي الاسترجاع من مصدر، وأن الثقة اللغوية في الصياغة لا تضمن صحة المحتوى .

ومن هنا يمكن تحديد مجموعة من مكونات **الكفاية الرقمية والخوارزمية للقارئ الهجين**، تبدأ بمعرفة نوع الأداة ووظيفتها، ثم القدرة على اختيار الأداة المناسبة بدل استعمال نظام واحد لكل المهمات، والتمييز بين البحث الذي يقود إلى مصادر والتوليد الذي يقدم تركيباً، وفهم أثر التخصيص في ما يظهر، ومعرفة أن المخرجات قابلة للاختلاف بتغير صياغة السؤال، ثم القدرة على تتبع المصدر حين تكون المعلومة قابلة للتحقق. ولا ينبغي التعامل مع هذه المكونات باعتبارها قائمة تقنية منفصلة عن القراءة، لأنها أصبحت جزءاً من شروطها حين يدخل الوسيط إلى المجال المعرفي.

وتشمل هذه الكفاية كذلك **إدارة الذاكرة الخارجية**؛ فالقارئ الهجين ينبغي أن يعرف ما الذي يخزنه وأين، وكيف يستعيده، وكيف يتجنب أن يتحول الأرشيف إلى مستودع لا يعرف ما فيه، وأن يميز بين حفظ مادة للرجوع إليها وبين تحويل عملية الفهم نفسها إلى بحث دائم. ومن هنا يصبح تنظيم الملاحظات والفهارس الشخصية والروابط والمراجع جزءاً من بناء الذات الموزعة، لأن قوة الذاكرة الخارجية لا تقاس بحجمها بل بإمكان دمجها في التفكير.

كما تتطلب الكفاية القدرة على **إدارة التفويض**؛ أي تحديد ما الذي يمكن أن يقوم به النظام دون خسارة معرفية كبيرة، وما المهمة التي ينبغي أن يبقى أداؤها بشرياً لأنها جوهر التعلم أو التأويل. وإذا كانت الأداة تستطيع تلخيص كل شيء، فإن الكفاءة لا تتمثل في استعمالها دائماً، بل في معرفة الحالات التي يكون فيها بناء الملخص بنفسك هو النشاط الذي تحتاج إليه، وإذا كان النظام يستطيع تقديم تحليل أدبي كامل، فإن القارئ يحتاج إلى معرفة أن أفضل استخدام له قد يكون بعد بناء قراءته الأولية لا قبلها.

- الكفاية النقدية والتأويلية

لا تكتمل كفايات القارئ الهجين بالكفاءة الرقمية والخوارزمية، لأن القراءة تظل في أساسها فعلًا يتعلق بالمعنى، ولذلك يحتاج القارئ إلى كفاية نقدية وتأويلية تسمح له بتقييم ما تقدمه الأدوات داخل بنية النص والسياق. فالنظام يستطيع أن ينتج تفسيرًا مقنعًا أسلوبيًا، لكن القارئ هو الذي ينبغي أن يسأل عن الدليل، وأن يقارن بين الفرضية والنص، وأن يميز بين إمكان تأويلي مشروع وإسقاط لا يسنده العمل. ومن هنا تصبح الخبرة الأدبية والنقدية أكثر أهمية في البيئة الهجينة بدل أن تصبح أقل أهمية.

وتبدأ هذه الكفاية بالقدرة على بناء قراءة أولية مستقلة قبل استدعاء الوسيط في المهام التي يكون فيها ذلك ممكنًا، لأن القارئ يحتاج إلى موقف يقارن به ما سيقدمه النظام، وإلا تحولت الإجابة الأولى إلى إطار يحدد جميع الأسئلة اللاحقة. ولا يعني ذلك منع استخدام الذكاء الاصطناعي قبل القراءة في كل الأحوال، فقد يحتاج القارئ إلى ترجمة أو تعريف يسمح له أصلًا بالدخول إلى النص، لكن المبدأ هو أن يحتفظ بمساحة يستطيع داخلها التفكير قبل أن يتلقى التأويل الجاهز.

وتتضمن الكفاية النقدية كذلك القدرة على توليد البدائل، لأن أفضل وسيلة لمقاومة سلطة الجواب الواحد هي مطالبة النظام أو الذات بإنتاج قراءات متعارضة ثم مقارنتها. فإذا قدم المساعد تفسيرًا نفسيًا، يمكن للقارئ أن يطلب قراءة تاريخية أو شكلانية أو مضادة، ثم يبحث في النص عن العناصر التي تدعم كل احتمال، وبذلك يتحول الذكاء الاصطناعي من سلطة تحدد المعنى إلى أداة تساعد على توسيع المجال الذي يمارس داخله الإنسان حكمه.

ويضاف إلى ذلك التحقق النصي، وهو مبدأ لا يمكن الاستغناء عنه في الأدب والدراسات الإنسانية، لأن كل تفسير ينبغي أن يعود في النهاية إلى ما يسمح به العمل، حتى عندما يكون المعنى متعددًا. ويعني ذلك أن القارئ لا يقبل الاستشهاد أو الإحالة التي يقدمها النظام دون الرجوع إلى أصلها، ولا

يكتفي بعبارة «يرمز هذا إلى كذا» ما لم يجد في البنية النصية ما يجعل الرمز قابلًا للدفاع. ومن هنا تصبح الحركة الأساسية للقراءة الهجينة الناضجة هي :**اقتراح خوارزمي → فحص بشري → تحقق نصي → مراجعة سياقية → حكم تأويلي.**

وتتصل الكفاية التأويلية أخيرًا بالقدرة على الحفاظ على الغموض عندما يكون الغموض جزءًا من العمل، لأن الأنظمة التوليدية تميل بحكم وظيفتها الحوارية إلى إنتاج جواب، بينما لا تحتاج القراءة الجيدة دائمًا إلى إغلاق السؤال. ومن هنا يستطيع القارئ الهجين أن يستخدم الآلة للحصول على احتمالات، ثم يقرر أن النص يظل مفتوحًا بينها، وأن عدم الحسم أكثر أمانة للعمل من اختيار جواب واحد. وتصبح القدرة على القول «لا أعرف بعد» علامة كفاءة لا نقصًا في عصر أصبحت فيه الإجابة متاحة فورًا.

ومن مجموع هذه القدرات يتشكل ما يمكن تسميته **الكفاءة الهجينة المركبة**، التي تتكون من بعد رقمي يسمح باستخدام الأدوات، وبعد خوارزمي يسمح بفهم الوساطة، وبعد ميتامعرفي يسمح بإدارة التفويض، وبعد نقدي يسمح بالتحقق، وبعد تأويلي يسمح ببناء المعنى، وهي كفاءة لا يمكن اختزالها في مهارة تقنية واحدة. وكلما ارتفعت هذه الكفاءة استطاع القارئ أن يستفيد من توسع النظام المعرفي من دون أن يتحول إلى تابع له.

<u>من العقل الممتد إلى السيادة التأويلية</u>

يسمح المسار الذي تتبعناه في هذا الفصل بإعادة صياغة العلاقة بين الامتداد والاستقلال، لأن الأدوات الخارجية لا تمثل بالضرورة تهديدًا للذات، كما أن الاحتفاظ بكل الوظائف داخلها لا يمثل بالضرورة الشكل الأعلى من الاستقلال. فالقوة البشرية نفسها قامت تاريخيًا على بناء نظم خارجية للذاكرة والحساب والكتابة، ولذلك فإن القارئ الذي يستخدم التقنية يمكن أن يصبح أكثر قدرة على المقارنة والوصول إلى سياقات لم تكن في متناوله، غير أن توسع الإمكان لا يضمن توسع الحكم، وهنا يكمن التحدي الأساسي.

يمكن للذاكرة الخارجية أن تحرر القارئ من حفظ التفاصيل لكنها لا تستطيع أن تختار وحدها ما ينبغي أن يعنيه النص، ويمكن لمحرك البحث أن يعثر على ألف مصدر لكنه لا يستطيع أن يعفي الباحث من تقييمها، ويمكن للنظام التوليدي أن يقدم خمس قراءات لكنه لا يتحمل مسؤولية تبني السادسة أو رفض الخمس كلها. ومن هنا يصبح العقل الممتد مفيدًا لفهم كيف تتوسع القدرة، بينما يصبح مفهوم السيادة التأويلية ضروريًا لفهم أين ينبغي أن تتوقف سلطة الوسيط.

ويتيح هذا الجمع اقتراح مبدأ يمكن تسميته **التكامل المعرفي غير المتماثل**، حيث تتكامل قدرات الإنسان والآلة دون أن تكون متطابقة أو متساوية. فالآلة تمتلك سرعة في البحث والمعالجة والربط لا يستطيع الفرد مجاراتها، بينما يمتلك الإنسان تجربة وسياقًا ومسؤولية وقدرة على جعل المعنى جزءًا من حياته وموقفه. وتكون أفضل أشكال الهجنة هي التي تستثمر عدم التماثل بدل محاولة محوه؛ أي تستخدم النظام حيث تكون قدراته مناسبة، وتحافظ على الإنسان حيث تكون الخبرة والحكم والتأويل هي الوظيفة الأساسية.

ومن هنا لا ينبغي أن يطمح القارئ الهجين إلى جعل التقنية غير مرئية تمامًا، لأن الاندماج الكامل الذي يفقد معه المستخدم وعيه بالوساطة قد يقلل قدرته على نقدها. وكلما أصبحت الأدوات أكثر اندماجًا في بيئة القراءة ازدادت الحاجة إلى مستوى من الوعي الميتا خوارزمي يسمح برؤية الوظائف الموزعة وإعادة توزيعها عند الضرورة. وهذا هو السبب الذي يجعل الذات القارئة الموزعة لا تجد اكتمالها في الاعتماد على التقنية، بل في الوعي بالتوزيع نفسه.

خاتمة الفصل

أظهر هذا الفصل أن مفهوم القارئ الهجين لا يمكن تأسيسه على وصف الاستخدام الظاهري للأدوات وحده، لأنه يرتبط بتحول أعمق في الطريقة التي تتوزع بها بعض وظائف القراءة بين الإنسان وبيئته. وقد سمحت أطروحة العقل الممتد بإعادة طرح سؤال حدود الفعل المعرفي، لا بهدف إعلان أن كل أداة جزء من العقل، بل لإظهار أن بعض الموارد الخارجية تستطيع، في شروط من الاعتماد والاستقرار والتكامل، أن تدخل بصورة وظيفية في العمليات التي ينجز بها الإنسان مهامه [1][2][3]. كما أتاح الإدراك الموزع عند هاتشنز توسيع وحدة التحليل من الفرد إلى النظام الذي تتفاعل داخله الأشخاص والأدوات والتمثيلات [4]، وهو ما يوفر أساسًا لفهم القراءة الهجينة باعتبارها أحيانًا نشاطًا لا ينجز داخل رأس القارئ وحده، بل داخل بيئة معرفية مركبة.

وقد كشف تحليل الذاكرة الخارجية أن التحول الرقمي لا يزيد مقدار ما يستطيع القارئ الوصول إليه فقط، بل يعيد تنظيم العلاقة بين التذكر والوصول، بحيث يمكن للفرد أن يحتفظ بمسار استعادة المعلومة بدل تفاصيلها، وهو ما تدعمه بحوث الذاكرة التبادلية وتأثير توقع الوصول إلى المعلومات عبر الإنترنت [5][6][7]. ومع السحابة والمحفوظات الرقمية يصبح تاريخ القراءة نفسه قابلًا للتخزين والبحث وإعادة الترتيب، وهو ما يجعل الأرشيف الشخصي جزءًا من الذات القارئة الموزعة، لكنه يخلق في الوقت نفسه حاجة إلى تنظيم هذه الذاكرة الخارجية وإدراك من يتحكم في منطق استرجاعها.[8]

أما التفويض المعرفي فقد أظهر أن نقل الوظائف إلى البيئة ليس ظاهرة استثنائية أو سلبية بالضرورة، وأن الإنسان يستخدم أدوات خارجية باستمرار لتقليل العبء، لكن ريسكو وغيلبرت يبينان أن قرارات التفريغ ترتبط كذلك بتقييم الفرد لقدراته وبطبيعة المهمة [9]، وهو ما يجعل إدارة التفويض جزءًا من الكفاءة الهجينة. ومن هنا جرى التمييز بين تفويض منتج

يخفف وظائف هامشية ويترك الموارد البشرية للمهمات العليا، وتفويض استبدالي ينتقل إلى صميم المهارة التي يفترض أن يبنيها القارئ، وبينهما تقع «عتبة التفويض» التي تختلف باختلاف غاية القراءة.

وعلى أساس هذه العناصر اقترح الفصل مفهوم **الذات القارئة الموزعة** باعتباره مفهومًا وظيفيًا لا وجوديًا، فالقارئ يستطيع أن ينجز القراءة بواسطة منظومة تضم ذاكرته الداخلية ونصوصه وملاحظاته ومحركات البحث والأرشيفات الرقمية والخوارزميات والأنظمة التوليدية، لكنه يظل الطرف الذي ينبغي أن يتحمل مسؤولية الحكم. ومن هنا جاءت الصيغة التي يمكن اعتبارها إحدى القواعد الأساسية لهذا الكتاب :**الذات القارئة موزعة في وظائفها، لكنها لا ينبغي أن تكون موزعة في مسؤوليتها التأويلية.**

وقد أدى ذلك إلى إعادة تعريف استقلال القارئ، فلم يعد الاستقلال يعني أداء جميع العمليات دون مساعدة، وإنما يعني القدرة على معرفة ما جرى تفويضه، والتحكم في توقيته، وتقييم المخرجات، والعودة إلى المصادر، والاحتفاظ بالقدرة على الاعتراض أو الاستغناء. وبذلك يصبح الاستقلال في البيئة الهجينة **استقلالًا داخل الاعتماد**، أو بصورة أدق قدرة على إدارة الاعتماد بدل وهم التخلص منه.

وتظهر أهمية هذا التصور بوضوح في كفايات القارئ الهجين، لأن القراءة في البيئة الجديدة تحتاج إلى مهارات رقمية وخوارزمية وذكاء اصطناعي، لكنها تحتاج بالقدر نفسه إلى معرفة نقدية وتأويلية وميتامعرفية [11][12]. فالقارئ الجيد لا يعرف فقط كيف يطرح السؤال على النظام، بل يعرف لماذا يطرحه، وما الذي ينبغي أن يتحقق منه، ومتى تكون الإجابة مفيدة، ومتى تكون محاولة بناء الإجابة بنفسه جزءًا من عملية التعلم. ومن هنا لا تكون الكفاءة الأعلى هي الحصول على نتائج أسرع، **بل القدرة على اختيار التوزيع المعرفي المناسب للمهمة.**

وبذلك يصل الفصل إلى مفارقة تشكل إحدى النتائج النظرية المركزية للكتاب :**كلما أصبح العقل القارئ أكثر امتدادًا في الأدوات، ازدادت حاجته**

إلى وعي أكثر تمركزًا بالمسؤولية .فالانتشار الوظيفي لا ينبغي أن يؤدي إلى تشتت الحكم، والذاكرة الخارجية لا ينبغي أن تلغي البنية المعرفية الداخلية، والذكاء الاصطناعي لا ينبغي أن يحول القارئ من مدير للعملية إلى مستهلك لمخرجاتها. ومن هنا يمكن اعتبار «السيادة التأويلية» الوجه المقابل للعقل الممتد؛ فالأول يفسر اتساع النظام الذي تحدث فيه القراءة، والثاني يحدد الطرف الذي ينبغي أن يبقى مسؤولًا عن معنى ما ينتجه هذا النظام.

وتمهد هذه النتيجة للانتقال إلى الباب التالي من الكتاب، لأن الذات القارئة الموزعة لا تعمل داخل فضاء تقني محايد، بل تتحرك داخل منصات ومحركات بحث وأنظمة توصية تملك سلطة ترتيب ما يظهر وما يختفي، ولذلك يصبح السؤال التالي متعلقًا بالخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص، وبالانتقال التاريخي من المكتبة التي يختار القارئ داخلها إلى المنصة التي تشارك في تشكيل مجال اختياره، وهو ما سيقود إلى دراسة أنظمة التوصية والبحث والملف الخوارزمي وفقاعات الترشيح وسلطة الوسيط داخل القراءة في البيئة الخوارزمية.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Clark, Andy & Chalmers, David.** "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.

يمثل المرجع المؤسس لأطروحة العقل الممتد و«الخارجية النشطة»، ويُستفاد منه في هذا الفصل لإعادة طرح حدود النشاط المعرفي وإمكان دخول بعض العناصر البيئية في أداء وظائف معرفية، مع تجنب تحويل الأطروحة إلى ادعاء بأن كل أداة خارجية جزء من العقل. وتثبت بيانات Oxford Academic صدور المقال في المجلد 58، العدد الأول، سنة 1998، الصفحات 7–19 (DOI) .

[2] **Menary, Richard (ed.).** *The Extended Mind*. Cambridge, MA: MIT Press, 2010.

مجموعة مرجعية تجمع النقاشات الفلسفية التي تطورت حول أطروحة العقل الممتد، وتفيد في هذا البحث لتأكيد أن مفهوم الامتداد ليس نظرية محسومة بلا حدود، وإنما مجال جدل يتعلق بشروط دخول الموارد الخارجية في النظام المعرفي والتمييز بين الامتداد الحقيقي والمساعدة العرضية .
(OUP Academic)

[3] **Clark, Andy.** *Supersizing the Mind: Embodiment, Action, and Cognitive Extension*. New York: Oxford University Press, 2008.

يطور كلارك في هذا الكتاب أطروحة الإدراك الممتد من خلال التركيز على تفاعل الدماغ والجسد والعالم وعلى السقالات الاجتماعية والثقافية والتقنية التي تدخل في التفكير، ويُستفاد منه في هذا الفصل لفهم الأدوات القرائية بوصفها موارد قد تشارك وظيفياً في تنظيم النشاط المعرفي .
(OUP Academic)

[4] **Hutchins, Edwin.** *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

مرجع تأسيسي في نظرية الإدراك الموزع، ويحلل هاتشنز النشاط المعرفي داخل أنظمة تتفاعل فيها الأفراد والأدوات والتمثيلات والممارسات الثقافية،

وهو ما يوفر خلفية مباشرة لمفهوم «الذات القارئة الموزعة» المقترح في هذا الكتاب(MIT Press) .

[5] Wegner, Daniel M. "Transactive Memory: A Contemporary Analysis of the Group Mind." In Brian Mullen & George R. Goethals (eds.), *Theories of Group Behavior*. New York: Springer, 1987, pp. 185–208. DOI: 10.1007/978-1-4612-4634-3_9.
يقدم الأساس النظري لمفهوم الذاكرة التبادلية، حيث يمكن توزيع حفظ المعرفة واسترجاعها داخل نظام اجتماعي يعتمد فيه الأفراد على معرفة من يحتفظ بالمعلومة، ويُستفاد منه في فهم الخلفية السابقة لتحول الإنترنت إلى مورد للذاكرة الخارجية(cir.nii.ac.jp) .

[6] Sparrow, Betsy; Liu, Jenny & Wegner, Daniel M. "Google Effects on Memory: Cognitive Consequences of Having Information at Our Fingertips." *Science*, Vol. 333, No. 6043, 2011, pp. 776–778. DOI: 10.1126/science.1207745.
دراسة تجريبية مهمة أظهرت أن توقع إمكان الوصول لاحقًا إلى المعلومات يمكن أن يرتبط بانخفاض تذكر المحتوى نفسه وتحسن تذكر مكان الوصول إليه، ويُستفاد منها في مناقشة محركات البحث بوصفها شكلًا من أشكال الذاكرة الخارجية أو التبادلية(PubMed) .

[7] Ward, Adrian F. "Supernormal: How the Internet Is Changing Our Memories and Our Minds." *Psychological Inquiry*, Vol. 24, No. 4, 2013, pp. 341–348. DOI: 10.1080/1047840X.2013.850148.
يفيد في توسيع النقاش حول العلاقة بين الإنترنت والذاكرة والعمليات المعرفية، وفي التفكير في الشبكة بوصفها موردًا معرفيًا شديد الحضور يمكن أن يؤثر في كيفية تذكر الأفراد للمعلومات واعتمادهم على الخارج(Taylor & Francis Online) .

[8] van Dijck, José. *Mediated Memories in the Digital Age*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2007.
يعالج الكتاب العلاقة بين أدوات الوساطة الرقمية والذاكرة الشخصية وكيف تغير التكنولوجيا ممارسات الحفظ والاستعادة وبناء الماضي،

ويُستفاد منه في هذا الفصل عند تحليل المحفوظات الرقمية والسحابة بوصفها جزءًا من بيئة الذاكرة المعاصرة(Sup) .

[9] **Risko, Evan F. & Gilbert, Sam J.** “Cognitive Offloading.” *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 20, No. 9, 2016, pp. 676–688. DOI: 10.1016/j.tics.2016.07.002.
مرجع مركزي لمفهوم التفريغ أو التفويض المعرفي، الذي يصف استخدام أفعال وموارد خارجية لتقليل متطلبات المعالجة الداخلية، كما يناقش العوامل الميتامعرفية التي تؤثر في قرارات الأفراد بشأن متى يعتمدون على الخارج(DOI) .

[10] **Hayles, N. Katherine.** *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.
يُستفاد منه في تحليل العلاقة المتبادلة بين الإنسان والتقنيات وفي النظر إلى التفكير بوصفه ممارسة تحدث من خلال الوسائط ومعها وإلى جانبها، وهو ما يساعد على وضع الذات القارئة الموزعة داخل إطار ثقافي ووسائطي أوسع من فلسفة العقل وحدها(University of Chicago Press) .

[11] **Long, Duri & Magerko, Brian.** “What is AI Literacy? Competencies and Design Considerations.” In *Proceedings of the 2020 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems (CHI ’20)*. New York: Association for Computing Machinery, 2020, pp. 1–16. DOI: 10.1145/3313831.3376727.
يقدم العمل إطارًا لكفايات محو الأمية في الذكاء الاصطناعي، ولا سيما القدرات اللازمة للتفاعل الفعال مع أنظمة الذكاء الاصطناعي وتقييمها نقديًا، ويُستفاد منه في بناء الكفاية الرقمية والخوارزمية للقارئ الهجين . (DOI)

[12] **Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German.** “Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users.” *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035. DOI: 10.1093/jcmc/zmad035.

تفيد الدراسة في تأصيل مفهوم الوعي الخوارزمي بوصفه بناءً يتداخل فيه العلم بالخوارزميات مع المواقف والسلوك، وتدعم انتقال مفهوم الكفاية الرقمية من معرفة تشغيل التقنية إلى القدرة على فهم آثار الترشيح والتخصيص واتخاذ سلوك نقدي تجاهها(OUP Academic) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مراجع الفصل في أربعة محاور مترابطة؛ إذ تقدم أعمال كلارك وتشالمرز وميناري وكلارك [1–3] الأساس الفلسفي لمساءلة حدود العقل ودور الأدوات والسقالات الخارجية، بينما يتيح هاتشنز [4] الانتقال من امتداد عقل الفرد إلى تحليل الإدراك بوصفه عملية موزعة على نظام من الأشخاص والوسائط والتمثيلات. وتوفر أعمال فيغنر وسبارو وليو ووارد وفان دايك [5–8] الخلفية اللازمة لدراسة الذاكرة التبادلية والذاكرة الخارجية والمحفوظات الرقمية والتحول من تذكر المحتوى إلى تذكر سبل الوصول إليه، في حين يقدم ريسكو وغيلبرت [9] الأساس التجريبي والنظري لمفهوم التفويض المعرفي وما يرتبط به من قرارات ميتامعرفية. وأخيرًا تسمح أعمال هايلز ولونغ وماغيركو وأودلف-هيرش ونويباوم [10–12] بربط توزيع المعرفة بالوسائط الرقمية وكفايات التعامل النقدي مع الذكاء الاصطناعي والخوارزميات.

ومن تقاطع هذه المسارات يتأسس مفهوم »الذات القارئة الموزعة« بوصفه امتدادًا نظريًا لمفهوم القارئ الهجين، لا باعتباره ذاتًا ذابت في التقنية، وإنما قارئًا يعمل داخل نظام معرفي تتوزع فيه بعض وظائف الاسترجاع والتنظيم والحفظ والتحليل بين الإنسان والأداة، بينما يبقى الحكم على المعرفة والمعنى فعلًا بشريًا مسؤولًا. ولذلك يمكن تلخيص النتيجة النظرية للفصل في الصيغة التالية :العقل القارئ يستطيع أن يمتد، والذاكرة تستطيع أن تتوزع، والوظائف تستطيع أن تفوِّض، لكن المسؤولية التأويلية لا ينبغي أن تغادر القارئ.

الفصل السابع

الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص

لقد انتهت الفصول السابقة إلى أن القارئ الهجين يعمل داخل نظام معرفي موزع لا تقتصر عناصره على النص والذاكرة البشرية، بل تمتد إلى الواجهة ومحرك البحث والذاكرة الخارجية والمنصة والأدوات الذكية، فإن الانتقال إلى دراسة البيئة الخوارزمية يفرض تعديل نقطة البداية التي اعتادت نظريات القراءة الانطلاق منها؛ ذلك أن فعل القراءة لا يبدأ دائمًا في اللحظة التي يفتح فيها القارئ الكتاب أو تظهر أمامه الصفحة الأولى، بل قد يبدأ قبل ذلك بكثير، في اللحظة التي تقرر فيها منصة ما أن تعرض نصًا بعينه، أو يضع محرك البحث نتيجة في مقدمة القائمة، أو يقترح نظام توصية رواية اعتمادًا على سجل سابق من الاختيارات والتقييمات. وهنا تصبح مسألة الوصول إلى النص جزءًا من نظرية التلقي نفسها، لأن السؤال لم يعد متعلقًا فقط بما يفعله القارئ بالعمل بعد وصوله إليه، وإنما أصبح متعلقًا كذلك بالشروط التقنية والثقافية التي جعلت هذا العمل، دون غيره، حاضرًا في مجال رؤيته.

لقد كان الوصول إلى الكتب تاريخيًا عملية موسطة بمؤسسات وأشخاص وآليات تصنيف مختلفة؛ فالمكتبة ترتب مجموعاتها، والناشر يقرر ما ينشره، والمكتبي يقترح، والناقد يرشح، والصحافة الثقافية تمنح بعض الأعمال حضورًا أكبر من غيرها، ولذلك لا ينبغي الوقوع في وهم وجود عصر سابق كان فيه القارئ يختار داخل فضاء نقي لا يخضع لأي وساطة. غير أن التحول الخوارزمي يغير طبيعة هذه الوساطة من حيث الحجم والسرعة والتخصيص والقدرة على التعلم من السلوك، إذ تستطيع المنصة أن تنظم ملايين المواد بصورة مختلفة لمستخدمين مختلفين، وأن تعدل توصياتها باستمرار اعتمادًا على بيانات جديدة، وأن تجعل ترتيب المحتوى متحركًا بدل أن يظل فهرسًا ثابتًا نسبيًا. وقد بين خوسيه فان ديك وتوماس بول ومارتين دي وال أن المنصات لم تعد مجرد خدمات تقنية منفصلة، بل أصبحت بنى تحتية

تتوسط قطاعات واسعة من الحياة الاجتماعية والثقافية وتعمل وفق آليات من بينها تحويل النشاط إلى بيانات، وانتقاء المحتوى وترتيبه، وتكوين علاقات اقتصادية ومؤسساتية جديدة .[1]

ومن هنا يقترح هذا الفصل النظر إلى الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص، لا لأنها تقف دائمًا بصورة حرفية بين القارئ والعمل، بل لأنها أصبحت في عدد متزايد من البيئات تشارك في تحديد ما يمكن اكتشافه، وما يظهر أولًا، وما يتكرر عرضه، وما يُربط بتاريخ المستخدم، وما يبقى في أعماق القوائم أو خارج مجال الانتباه. ولا تعني البوابة منع الحرية أو إلغاء إرادة القارئ، بل تعني أن الحرية تمارس داخل مجال سبق أن جرى تنظيمه، وأن دراسة الاختيار تظل ناقصة إذا ركزت على قرار المستخدم وتجاهلت البنية التي صاغت الخيارات المتاحة أمامه.

ويكتسب هذا التحول أهمية إضافية داخل مشروع «القارئ الهجين»، لأن الخوارزمية تمثل المرحلة التي تنتقل فيها التقنية من خدمة ينشطها القارئ عند الحاجة إلى وسيط يستطيع المبادرة بالاقتراح قبل أن يطلب الإنسان شيئًا محددًا. فمحرك البحث يستجيب إلى سؤال، بينما نظام التوصية قد يعرض كتابًا لم يبحث عنه القارئ أصلًا، والمنصة قد تدفع إلى الواجهة مراجعة أو اقتباسًا أو قائمة قراءة لم يطلبها، وهو ما يجعل المبادرة القرائية موزعة جزئيًا بين الإنسان والنظام. ومن هنا سننتقل في هذا الفصل من المكتبة إلى المنصة، ثم إلى أنظمة التوصية ومحركات البحث، قبل تحليل الملف الخوارزمي للقارئ وفقاعات الترشيح، وصولًا إلى السؤال الأوسع المتعلق بسلطة الوسيط وما تقتضيه من شفافية ومساءلة ووعي نقدي.

المبحث الأول: من المكتبة إلى المنصة

ـ التحول في طرق اكتشاف الكتب

كان اكتشاف الكتاب في الثقافة المطبوعة يحدث من خلال شبكة من الوسطاء؛ فقد يعثر القارئ على العمل فوق رف مكتبة، أو يقرأ عنه في ملحق ثقافي، أو يسمع توصية من أستاذ أو صديق، أو يذهب إلى متجر بحثًا عن مؤلف محدد ، كما قد تصنع الجائزة الأدبية أو المؤسسة التعليمية أو قائمة المبيعات مسارًا يؤدي به إلى الكتاب. ولم تكن هذه الشبكة محايدة، لأن تنظيم المكتبة والتسويق والنقد والتوزيع كلها تمارس أشكالًا من الاختيار، غير أن القارئ كان يستطيع، في كثير من الحالات، رؤية بعض آثار الوساطة ومعرفة المؤسسة التي تقترح عليه العمل؛ فاسم الناقد ظاهر، وتصنيف المكتبة معروف، وواجهة المتجر المادية محدودة يمكن التجول داخلها وملاحظة ما يحيط بالكتاب.

أما المنصة الرقمية فقد نقلت الاكتشاف إلى بيئة تختلف في طبيعتها عن الرف والفهرس التقليديين، لأنها لا تعرض المواد داخل مساحة ثابتة يستطيع كل الزوار مشاهدتها بالطريقة نفسها ، بل تستطيع أن تغير ترتيبها وتوصياتها بحسب الوقت والسجل والموقع ونوع الحساب وأنماط الاستخدام وغيرها من الإشارات التي يعتمد عليها النظام. ومن ثم يصبح «رف الكتب» نفسه ديناميكيًا ، ويصبح من الممكن أن يدخل قارئان إلى المنصة ذاتها في اللحظة نفسها فلا يريا البيئة الثقافية نفسها ، وهو تحول يغير معنى الفضاء المشترك للاكتشاف.

ولا ينبغي أن نفهم الانتقال من المكتبة إلى المنصة باعتباره اختفاءً للمكتبة أو للوساطة البشرية، لأن المكتبات والمؤسسات الثقافية ما تزال تؤدي أدوارها ، كما أن المنصات نفسها تضم مراجعات بشرية وقوائم محررين وتوصيات اجتماعية، وإنما المقصود هو صعود شكل إضافي من الوساطة يستطيع تنظيم هذه العناصر على نطاق ضخم وبسرعة لا تستطيع المؤسسات التقليدية تحقيقها. وتصبح المنصة بهذا المعنى مكتبة وواجهة ومتجرًا

ومجتمعًا ونظام بيانات في الوقت نفسه، وهو تركيب يجعل من الصعب فصل وظيفة الإتاحة عن وظيفة الترتيب وعن المصالح الاقتصادية التي تحدد تصميم البيئة.

وقد تناولت *The Platform Society* المنصات باعتبارها منظومات تكنولوجية واقتصادية واجتماعية تتوسط تفاعلات المستخدمين وتعيد تنظيم قطاعات عامة وثقافية، وهو ما يسمح بفهم اكتشاف الكتاب داخلها بوصفه حدثًا لا يقع خارج منطق المنصة، بل داخل سلسلة من عمليات البيانات والاختيار والاتصال .[1] ومن هنا لا يكفي أن نقول إن المنصة «تحتوي» الكتب، لأنها كذلك تحدد كيف تصبح الكتب قابلة للرؤية، وما المسارات التي تؤدي إليها، وأي مؤشرات اجتماعية أو تجارية تظهر حولها، وبأي ترتيب.

ويؤدي هذا التحول إلى إعادة تعريف مفهوم المصادفة في القراءة. ففي المكتبة المادية قد يذهب القارئ إلى رف بحثًا عن كتاب فيرى بجواره عنوانًا لم يكن يعرفه، فتحدث عملية اكتشاف لا تقوم على سجل شخصي سابق، بينما تستطيع المنصة أن تحول «المصادفة» نفسها إلى اقتراح محسوب مبني على التشابه أو الشعبية أو سلوك المستخدمين. ولا يعني ذلك أن المصادفة تختفي من البيئة الرقمية، فالقارئ يستطيع أن يعثر على أشياء غير متوقعة، لكن جزءًا من الاكتشاف ينتقل من مصادفة المكان إلى احتمال صممته الخوارزمية، وهو ما سيفرض لاحقًا التمييز بين الاكتشاف المخصص والاكتشاف الذي يخرج عمدًا عن منطق التخصيص.

ومن زاوية نظرية التلقي، ينبغي أن تدفعنا هذه النقلة إلى إعادة التفكير في اللحظة التي يبدأ فيها «أفق الانتظار». فقد كان ياوس يربط هذا الأفق بالخبرة الأدبية والتاريخية للجمهور، أما القارئ المعاصر فقد يدخل إلى النص بعد أن شاهد وصفًا وتقييمًا وصورة غلاف وقائمة «كتب قد تعجبك» ومراجعات منتقاة، وهي عناصر يمكن أن تشكل طبقة إضافية من التوقع قبل أن يقرأ السطر الأول. ومن هنا يصبح مفهوم »أفق الانتظار الخوارزمي «

الذي يقترحه هذا الكتاب مفيداً لتسمية تلك الطبقة من الاستعدادات التي تتشكل بفعل ترتيب المنصة وتوصياتها، مع التأكيد أن هذا الأفق لا يحل محل الأفق الثقافي والتاريخي، بل يتراكب معه.

ـ *المنصة وسيطًا ثقافيًا*

يصبح النظر إلى المنصة بوصفها وسيطًا ثقافيًا ضروريًا عندما ندرك أن الثقافة الرقمية لا تمر عبر البنية التقنية كما يمر الماء عبر أنبوب محايد، لأن التصميم والترتيب والتصنيف والقياس كلها تحدد ما الذي يصبح أكثر حضوراً وما الذي يتراجع. وقد صاغ تارلتون غيليسبي هذه المسألة بصورة مؤثرة حين دعا إلى دراسة الخوارزميات بوصفها عناصر أساسية في البنية المعلوماتية، وخصوصًا حين تتولى أنظمة البحث والتوصية وقواعد البيانات تحديد ما يعتبر «ذا صلة» بالمستخدم [2]. ولا يرى غيليسبي الخوارزميات بوصفها معادلات تقنية منفصلة عن المجتمع، بل يلفت الانتباه إلى الاختيارات البشرية والمؤسساتية التي تدخل في بنائها وإلى الطريقة التي تصبح بها عمليات الترتيب جزءًا من الممارسات الثقافية والمعرفية .[2]

ومن هنا تكون المنصة وسيطًا ثقافيًا لأنها لا تسهل الوصول إلى الثقافة فقط، بل تشارك في توزيع الانتباه الثقافي، وتستطيع أن تجعل كتابًا حاضرًا باستمرار في الواجهة بينما يظل آلاف الكتب الأخرى متاحة تقنيًا لكنها ضعيفة الظهور. وهذه النقطة تسمح بالتمييز بين الإتاحة والقابلية للاكتشاف؛ فقد يكون النص موجوداً داخل قاعدة البيانات، لكنه لا يتمتع بفرصة حقيقية للوصول إلى القارئ إذا كان ظهوره ضعيفًا ولا يدخل ضمن مسارات البحث أو التوصية أو القوائم. ومن ثم تصبح سلطة المنصة مرتبطة ليس فقط بامتلاك المحتوى أو استضافته، بل بالقدرة على جعل بعض المحتوى قابلًا للاكتشاف بدرجة أكبر من غيره.

ويؤثر هذا في المؤسسات الثقافية نفسها، لأن الناشرين والمؤلفين والقراء قد يبدؤون في تكييف سلوكهم مع المعايير التي تمنح الظهور؛ فالغلاف والعنوان والكلمات المفتاحية والتقييمات والاشتراك والتفاعل يمكن أن

تصبح عناصر في المنافسة على الانتباه، وعندها لا تعود الخوارزمية مجرد مصفاة تمر عبرها الثقافة، بل تصبح توقعاتها جزءًا من البيئة التي يتصرف فيها المنتجون والمستهلكون. وقد وصف غيليسبي هذا التشابك من خلال فكرة أن الأفراد والمؤسسات يتعلمون كيف يجعلون أنفسهم «قابلين للتعرف الخوارزمي»، وهو ما يعني أن سلطة النظام تؤثر في السلوك حتى قبل أن يصدر القرار الحسابي النهائي.[2]

ويكشف هذا المنظور أن انتقال الثقافة من المكتبة إلى المنصة ليس مجرد انتقال من مؤسسة عمومية أو تجارية إلى مؤسسة رقمية، بل انتقال من تنظيم مرئي نسبيًا إلى تنظيم تصبح بعض مستوياته غير ظاهرة للمستخدم. فالقارئ يستطيع أن يرى أن كتابًا موضوع في واجهة مكتبة ورقية، وقد يسأل البائع لماذا وضع هناك، أما القائمة الخوارزمية فتبدو في كثير من الأحيان نتيجة طبيعية لعمل النظام ولا تظهر معها بسهولة سلسلة القرارات التي أنتجتها. ومن هنا تبدأ سلطة الوسيط الخوارزمي من النقطة التي تبدو فيها الوساطة وكأنها غائبة.

ـ المبحث الثاني: أنظمة التوصية

ـ منطق الاقتراح

ظهرت أنظمة التوصية بوصفها استجابة تقنية لمشكلة جوهرية في الثقافة الرقمية هي وفرة الخيارات، إذ لا يستطيع المستخدم التعامل يدويًا مع ملايين الكتب والأفلام والأغاني والمقالات، ولذلك تعمل هذه الأنظمة على اقتراح عناصر يُحتمل أن تكون ذات فائدة أو اهتمام بالنسبة إليه. ويعرّف فرانشيسكو ريتشي وليور روكاش وبراخا شابيرا أنظمة التوصية بأنها أدوات وتقنيات برمجية تقدم اقتراحات لعناصر يُرجح أن تهم مستخدمًا معينًا، وتساعده في عمليات اتخاذ القرار داخل بيئات تعاني من فائض المعلومات .[3]

ويعتمد منطق التوصية على طرق متعددة لا ينبغي اختزالها في خوارزمية واحدة؛ فقد يستند الاقتراح إلى تشابه خصائص العناصر، أو إلى اختيارات مستخدمين متقاربين، أو إلى السياق، أو إلى بيانات ضمنية مستخرجة من السلوك، كما تستطيع الأنظمة الحديثة الجمع بين أكثر من طريقة. ولا يحتاج هذا الكتاب إلى الدخول في البناء الرياضي لكل تقنية، لأن اهتمامه ينصب على الأثر القرائي، غير أن التمييز بين أنماط التوصية ضروري لفهم أن عبارة «مقترح لك» تخفي وراءها عمليات مختلفة في تعريف التشابه والملاءمة والتفضيل.

ويكمن التحول الثقافي الأساسي في أن التوصية تنقل القارئ من منطق يبدأ بالسؤال إلى منطق يبدأ بالاقتراح؛ فمحرك البحث يحتاج إلى عبارة يدخلها المستخدم، بينما تقول المنصة: «قد ترغب في قراءة هذا» قبل أن يصوغ حاجة صريحة. وهذا التحول يجعل الخوارزمية تشارك في اقتراح موضوع الرغبة القرائية بدل أن تكتفي بالاستجابة إليها، وهو ما يفرض تعديل فهمنا للمبادرة. فالاختيار النهائي يظل للقارئ، لكنه يحدث بعد أن بادر النظام إلى تشكيل قائمة من الاحتمالات.

وقد حلل بليك هالينان وتيد ستريبهاس هذا التحول من خلال مفهوم «الثقافة الخوارزمية» ودراسة أنظمة التوصية بوصفها عمليات لا تقوم فقط بتوقع التفضيلات، بل تدخل في إعادة تعريف الثقافة من خلال تحويل الذوق والتصنيف والقيمة إلى بيانات قابلة للمعالجة [4]. ومن هنا لا تكون التوصية مجرد مساعدة للمستخدم على العثور على ما يحب، بل جزءًا من نظام يحول «الحب» و«التشابه» و«الذوق» إلى متغيرات يمكن حسابها ومقارنتها، وهو تحول مهم لأن ما يمكن قياسه يصبح أكثر قابلية للدخول في منطق المنصة من الجوانب التي لا تستطيع البيانات الإمساك بها بسهولة .

ولا ينبغي مع ذلك التعامل مع نظام التوصية بوصفه قوة خارجية تفرض اختياراتها على قارئ سلبي، لأن العملية دورية؛ فالمستخدم ينقر ويقرأ ويقيم ويتجاهل، والنظام يستعمل هذه الإشارات لتعديل اقتراحاته، ثم تؤثر الاقتراحات الجديدة في السلوك اللاحق. ولذلك يمكن صياغة الدورة في صورة :اختيار سابق ← بيانات ← نموذج تفضيل ← توصية ← اختيار جديد ← بيانات جديدة .وتكمن أهمية هذه الدورة في أنها تجعل الذوق نفسه علاقة تفاعلية؛ فالنظام يتعلم من القارئ، لكنه في الوقت ذاته يعيد إليه مجالًا منظمًا يمكن أن يؤثر في ما سيحبه لاحقًا.

ومن هنا ينبغي أن نتجنب السؤال الثنائي: هل الخوارزمية «تكتشف» ذوق القارئ أم «تصنعه»؟ فالأدق أنها تدخل في علاقة تغذية راجعة يستطيع فيها الاختيار البشري أن يشكل النموذج الخوارزمي، بينما يستطيع النموذج أن يعيد تشكيل مجال الاختيارات الممكنة. ولا تكون هذه العلاقة متساوية تمامًا، لأن المنصة تملك قدرة حسابية ورؤية واسعة لبيانات مجموعات كبيرة، لكن المستخدم يظل قادرًا على تجاهل الاقتراح أو البحث خارجه، وهو ما سيجعل مسألة المقاومة والمصادفة ذات أهمية خاصة لاحقًا.

ـ التخصيص الشخصي للقراءة

يمثل التخصيص الوجه الذي تصبح فيه الوساطة الخوارزمية أكثر التصاقًا بالفرد، لأن المنصة لا تكتفي بترتيب الكتب بحسب الشعبية العامة، بل تستطيع أن تبني اقتراحاتها على ما تعتقد أنه مناسب لهذا المستخدم تحديدًا. ويقوم التخصيص في جوهره على تحويل آثار الاستخدام إلى إشارات يمكن الاستفادة منها في تقدير الاهتمامات، وهو ما يجعل التاريخ القرائي مادة خامًا لإنتاج المستقبل القرائي.

ولا يقتصر التخصيص على التقييم الصريح الذي يقول فيه المستخدم إنه أحب كتابًا أو لم يحبه، لأن الأنظمة تستطيع الاستفادة من بيانات ضمنية مثل النقر والمشاهدة والبحث والشراء والحفظ، وفق ما يتيحه تصميم الخدمة وقواعدها، ولذلك يصبح الفرق بين ما يقوله القارئ عن نفسه وما يستنتجه النظام من سلوكه مهمًا لفهم الملف الخوارزمي. ويبين *Recommender Systems Handbook* أن أنظمة التوصية تتعامل مع أشكال متعددة من التفضيلات والسياقات والتغذية الراجعة من أجل دعم الاقتراح الشخصي [3].

ويحمل التخصيص وعدًا حقيقيًا في مواجهة فائض المعلومات؛ فالقارئ المتخصص في الأدب الرقمي، مثلًا، لا يحتاج إلى رؤية كل الإصدارات الموجودة في قاعدة ضخمة، ويمكن لنظام جيد أن يقلل كلفة البحث ويكشف له أعمالًا ذات صلة باهتمامه. لكن المنفعة نفسها تحتوي على خطر بنيوي، لأن النظام إذا استند دائمًا إلى الماضي فقد يعيد إنتاجه، فيصبح تاريخ القراءة قيدًا على مستقبلها، ويجد القارئ نفسه أمام مزيد مما يشبه ما قرأه من قبل بدل أن يتعرض لمسارات غير متوقعة.

ومن هنا يظهر التوتر بين الملاءمة والتنوع؛ فزيادة دقة التنبؤ بما يحتمل أن يعجب المستخدم قد تقلل أحيانًا من المسافة بين المعروف والجديد، بينما تقوم قيمة القراءة الثقافية في بعض الحالات على مواجهة ما لم يكن القارئ يعرف أنه يحتاج إليه. ولذلك لا ينبغي قياس جودة التوصية فقط

بعدد المرات التي ينقر فيها المستخدم على المقترح، بل ينبغي من منظور ثقافي أن نسأل كذلك عن قدرتها على توسيع أفقه وإدخال التنوع والمفاجأة إلى تجربته.

ويؤثر التخصيص أيضًا في أفق الانتظار، لأن القارئ الذي يرى عبارة مثل «استنادًا إلى قراءاتك السابقة» يدخل إلى العمل وهو يعرف أنه اختير له بسبب تشابه ما، وقد يبدأ في البحث عن هذا التشابه أثناء القراءة. ومن هنا تعمل التوصية بوصفها عتبة تأويلية لا مجرد أداة اكتشاف، لأنها تقدم للنص إطارًا مسبقًا يمكن أن يوجه الانتباه، وهو ما يبرر إدخالها في دراسة التلقي لا تركها حصرًا لعلوم الحاسوب والتسويق.

ـ المبحث الثالث: محركات البحث

ـ ترتيب النتائج

تمثل محركات البحث إحدى أكثر البوابات تأثيرًا في الثقافة الرقمية، لأنها تحول الويب من كتلة يصعب التعامل معها إلى قائمة مرتبة تبدو قابلة للإدارة، وقد كان عمل سيرغي برين ولاري بيج المبكر حول محرك بحث واسع النطاق مثالًا تأسيسيًا على استخدام بنية الروابط التشعبية وغيرها من الإشارات لإنتاج نتائج يُفترض أن تكون أكثر صلة بالاستعلام [5]. ويبين وصفهما الأصلي أن المشكلة لم تكن مجرد العثور على صفحات تحتوي الكلمات نفسها، بل بناء نظام يستطيع ترتيب مجموعات هائلة من المواد وتقديم نتائج أكثر نفعًا للمستخدم .[5]

وتكمن السلطة الأساسية لمحرك البحث في أن القارئ لا يرى «الويب»، بل يرى تمثيلًا مرتبًا للويب، وهذا التمثيل ليس نسخة مصغرة محايدة من كل ما هو موجود، وإنما نتيجة لنظام يحدد الصلة والأهمية وفق مجموعة من العوامل. ومن ثم فإن البحث عملية اختيار مزدوجة؛ يحدد المستخدم الكلمات، بينما يحدد النظام ترتيب المواد التي يرى أنها تستجيب إليها، وبين السؤال والنتيجة تقع طبقة من المعالجة يمكن أن تؤثر في مسار المعرفة.

ويصبح الترتيب مهمًا لأن المستخدم لا يتعامل عمليًا مع جميع النتائج بالدرجة نفسها. فالصدارة تمنح النتيجة فرصة أكبر للرؤية والنقر، ولهذا لا يكون الانتقال من الموضع الأول إلى الموضع العشرين فرقًا مكانيًا فحسب، بل فرقًا في الاحتمال الفعلي للدخول إلى وعي القارئ. وقد أظهرت دراسة ثورستن يواكيمز وزملائه حول بيانات النقر واستخدام تتبع العين أن النقرات توفر إشارات مفيدة عن التفضيل، لكنها متحيزة بالموقع والعرض، أي إن المستخدم لا ينقر فقط لأن النتيجة أفضل، بل لأن ترتيبها يؤثر في ما يراه [6].

وتخلق هذه الحقيقة حلقة مهمة؛ فالترتيب يؤثر في النقر، والنقر يمكن أن يصبح بدوره إشارة تستفيد منها أنظمة التعلم أو التقييم، ولذلك يصبح ما هو ظاهر أكثر قدرة على إنتاج بيانات تؤكد أهميته. ولا يعني هذا أن كل محرك يعمل بالطريقة نفسها أو أن النقر يستخدم دائمًا بالصورة ذاتها، لكن المبدأ العام يكشف أن الرؤية والسلوك ليسا مستقلين تمامًا، وأن ترتيب المعلومات يستطيع أن يدخل في دورة تعيد إنتاج بعض أنماط الانتباه.

ومن منظور القارئ الهجين، ينبغي أن تتحول معرفة هذا الترتيب إلى جزء من الكفاية البحثية. فالقارئ الذي يتوقف عند النتيجة الأولى يفوض إلى النظام جزءًا كبيرًا من قرار الاختيار، بينما القارئ الذي يقارن مواضع متعددة ويغير صياغة السؤال ويبحث في قواعد متخصصة يمارس سيطرة أكبر على مسار الوصول. ومن هنا لا تعني الكفاءة في محركات البحث القدرة على «إيجاد شيء» فقط، بل القدرة على إدراك أن القائمة نفسها تفسير خوارزمي للسؤال.

- السلطة المعرفية للصدارة الرقمية

تنبع السلطة المعرفية للصدارة الرقمية من قابلية الترتيب لأن يتحول في وعي المستخدم من ترتيب تقني إلى ترتيب في المصداقية أو الأهمية، بحيث يبدو ما يأتي أولًا أكثر سلطة حتى عندما لا يكون الموضع مرادفًا للحقيقة. وهنا يحدث انتقال دقيق من ترتيب النتائج إلى ترتيب الثقة، وهو انتقال لا يصنعه النظام وحده، بل ينتج من الطريقة التي يتعلم بها المستخدمون التعامل مع الواجهة.

وقد حذر غيليسبي من «وعد الموضوعية الخوارزمية»، أي الميل إلى التعامل مع الاختيار الحسابي كما لو كان أقل ذاتية من الاختيار البشري، مع أن تصميم أنظمة الصلة نفسه يتضمن قرارات حول ما ينبغي أن يقاس وكيف ينبغي أن يرتب [2]. كما قدمت صفية أوموجا نوبل في

Algorithms of Oppression نقدًا واسعًا لفكرة أن محركات البحث أرض محايدة لجميع الأفكار والهويات، وأظهرت من خلال دراستها أن نتائج البحث يمكن أن تعكس تحيزات ثقافية واقتصادية واجتماعية وأن «قابلية الاكتشاف» نفسها ليست موزعة بلا آثار قيمية .[11]

ولا يعني الاعتراف بهذه السلطة أن كل نتيجة متقدمة منحازة أو غير موثوقة، كما لا يعني أن البحث الخوارزمي أقل قيمة من الفهرسة التقليدية، بل يعني أن موقع النتيجة لا ينبغي أن يُعامل بوصفه دليلًا معرفيًا كافيًا. وتصبح مهمة القارئ النقدي أن يفصل بين الصدارة الحسابية والصدارة المعرفية، وأن يسأل عن المصدر والمؤلف والمؤسسة والتاريخ والدليل بدل الاكتفاء بالموضع.

وتزداد أهمية هذا التمييز في البحث الأكاديمي، لأن سهولة الوصول إلى نتيجة قد تجعل بعض المواد أكثر حضورًا في الدراسات لا لأنها الأهم نظريًا، بل لأنها الأكثر قابلية للاكتشاف أو المتاحة رقميًا أو المهيأة لمحركات البحث. ومن هنا يمكن أن تنشأ لا مساواة في الحضور المرجعي بين المعرفة التي تتوافر لها بنية رقمية قوية والمعرفة الموجودة في أرشيفات أو لغات أقل قابلية للفهرسة، وهو أمر ذو أهمية خاصة عند دراسة النصوص العربية والمغاربية والتراثية.

وبهذا تتحول مسألة البحث من مهارة تقنية إلى مسألة إبستمولوجية؛ فالمستخدم لا يحتاج فقط إلى معرفة ما إذا وجد معلومة، بل إلى أن يسأل عن المعرفة التي لم تظهر في الصفحة الأولى، وما اللغات والمصادر التي يحتمل أن تكون ضعيفة التمثيل، وما إذا كانت الصدارة ناتجة عن سلطة علمية أو عن توافق مع معايير النظام. ويصبح الانتقال إلى الصفحة الثانية أو قاعدة أخرى أو فهرس متخصص نوعًا من المقاومة البحثية التي تمنع الواجهة الأولى من أن تصبح حدود المعرفة الممكنة.

ـ المبحث الرابع: الملف الخوارزمي للقارئ

ـ *جمع البيانات السلوكية*

يقترح هذا الكتاب مفهوم »الملف الخوارزمي للقارئ «بوصفه تعبيرًا إجرائيًا عن التمثيل الحسابي المتغير الذي يمكن أن تبنيه المنصات أو أنظمة التوصية اعتمادًا على ما يتوافر لها من بيانات وإشارات حول المستخدم، ولا يُقصد به ملف واحد ثابت موجود بالطريقة ذاتها في جميع الأنظمة، بل مجموعة من التقديرات والتصنيفات والتمثيلات التي تسمح للنظام بالتنبؤ بما قد يكون ذا صلة بالشخص. ومن المهم التشديد على الطبيعة الإجرائية للمفهوم حتى لا نضفي على الأنظمة معرفة كاملة بالقارئ؛ فالملف الخوارزمي لا يعرف الإنسان كما يعرف ذاته أو كما يعرفه شخص آخر، بل يحوله إلى أنماط قابلة للمعالجة ضمن ما تستطيع المنصة قياسه.

ويجد هذا التحول خلفية في مفهوم «التبيين بالبيانات» أو *datafication* **الذي ناقشته خوسيه فان ديك، حيث تتحول جوانب متزايدة من النشاط الإنساني إلى بيانات قابلة للجمع والتحليل، ويصاحب ذلك خطاب يمنح هذه البيانات سلطة كبيرة في تمثيل السلوك والمعرفة** [8]**. ومن هذا المنظور تصبح القراءة، التي بدت طويلًا نشاطًا داخليًا وخاصًا، قابلة جزئيًا للتحول إلى آثار رقمية؛ فالبحث والنقر والتقييم والحفظ والشراء والتفاعل يمكن أن تصبح، بحسب النظام، عناصر في بناء تمثيل للسلوك** .[8]

ولا ينبغي مساواة هذا التمثيل بالقارئ نفسه، لأن النظام لا يرى الصمت أو التردد أو الانفعال أو السبب الكامل وراء ترك كتاب أو اختيار آخر، كما أن السلوك الواحد يمكن أن يحمل معاني مختلفة؛ فقد يبحث الشخص عن كتاب لأنه يحبه أو لأنه ينتقده، وقد يفتح مادة لأنه يدرسها لا لأنها تمثل ذوقه، وقد يتوقف عن القراءة لأن النص صعب أو لأن ظرفًا خارجيًا قطعه. ومن هنا يكون الملف الخوارزمي اختزالًا وظيفيًا لا صورة كاملة للذات.

لكن هذا الاختزال يمكن أن يكون فعالًا من منظور التنبؤ حتى عندما يكون ناقصًا من منظور الفهم الإنساني، لأن النظام لا يحتاج إلى معرفة لماذا يحب القارئ نوعًا أدبيًا إذا كان يستطيع اكتشاف نمط يساعده على تقديم توصية تحقق تفاعلًا مرتفعًا. وهنا يظهر فرق جوهري بين تفسير الإنسان والتنبؤ بالسلوك؛ فالمنصة قد تنجح في توقع الاختيار من دون امتلاك نظرية حقيقية عن التجربة الثقافية التي تقف وراءه.

ويعيد هذا التمييزنا إلى قاعدة الكتاب الأساسية التي ظهرت عند الحديث عن الذكاء الاصطناعي: لا تحتاج الآلة إلى أن تفهم القارئ بالطريقة التي يفهم بها الإنسان نفسه لكي تؤثر في ما يراه ويقرأه. ومن هنا تصبح معالجة البيانات جزءًا من بنية التلقي حتى عندما تظل دوافع القارئ الداخلية خارج متناول النظام.

- التنبؤ بالاختيارات

يمثل التنبؤ جوهرًا أساسيًا من وظائف التوصية، لأن النظام يسعى إلى تقدير احتمال اهتمام المستخدم بعنصر لم يتعامل معه بعد اعتمادًا على الإشارات المتاحة. وقد تطورت تقنيات التوصية حول مشكلة تقديم عناصر يحتمل أن تكون مفيدة للمستخدم، سواء بالاعتماد على التشابه بين العناصر أو المستخدمين أو السياق أو التغذية الراجعة الضمنية وغيرها من الأساليب [3].

ويغير التنبؤ طبيعة العلاقة بين القارئ والمنصة، لأن النظام لا ينتظر السلوك فقط بل يحاول استباقه، وهو ما يجعل المستقبل القرائي موضوعًا للحساب. فإذا كان الفهرس التقليدي يقول «هذه الكتب موجودة»، فإن نظام التوصية يقول ضمنيًا «هذه الكتب قد تكون الأقرب إليك»، وبذلك ينتقل الوسيط من تنظيم المخزون إلى بناء احتمالات حول الذات.

ولا تكون هذه الاحتمالات بلا آثار، لأن التنبؤ عندما يتحول إلى توصية يدخل إلى البيئة ويستطيع أن يغير السلوك الذي كان يحاول توقعه. فإذا توقع النظام أن قارئًا يحب نوعًا معينًا وعرضه عليه باستمرار، فقد يزداد

استهلاكه لهذا النوع، فتأتي البيانات الجديدة لتقوي النموذج الأول، وتتشكل حلقة يمكن تسميتها الدورة التنبؤية للذائقة :توقع → عرض → اختيار → بيانات → توقع أقوى. ولا تعني هذه الحلقة أن القارئ يفقد حريته، لكنها تكشف كيف يمكن للتنبؤ أن يصبح جزئيًا منتجًا للشروط التي تجعل نفسه يبدو صحيحًا.

ومن هنا يظهر خطر اختزال القارئ إلى ماضيه، لأن النموذج الجيد تجاريًا قد يكون هو الذي يتنبأ بما سيفعله المستخدم بناءً على ما فعله من قبل، بينما القراءة بوصفها تجربة ثقافية تستطيع أن تقوم على التحول وكسر العادات واكتشاف اهتمام لم يكن موجودًا. ولذلك يحتاج تصميم التوصية، من منظور ثقافي، إلى التوازن بين الاستغلال لما نعرفه عن التفضيلات والاستكشاف الذي يقدم شيئًا جديدًا، كما يحتاج القارئ نفسه إلى إدراك أنه يستطيع كسر النمط الذي يبنيه النظام عنه.

ومن هنا يصبح مفهوم «الملف الخوارزمي» مهمًا كذلك لفهم الهوية القرائية؛ فالقارئ لديه تصور عن نفسه، بينما تبني المنصة تصورًا وظيفيًا عنه، وقد يتفق التصوران أو يختلفان. ويمكن أن يفاجأ الإنسان بتوصية تكشف نمطًا لم ينتبه إليه، كما يمكن أن يشعر أن النظام حبسه داخل هوية قديمة لم تعد تمثله. وهذه المسافة بين الذات التي يرويها القارئ عن نفسه والذات التي تتنبأ بها الخوارزمية ستكون مجالًا أساسيًا للقارئ الميتا خوارزمي الذي يقرأ ليس النصوص فقط، بل الصورة التي يبنيها النظام عنه.

ـ المبحث الخامس: فقاعات الترشيح

ـ تضييق أفق القراءة

ارتبط مفهوم «فقاعة الترشيح» على نطاق واسع بإيلي باريزر الذي استخدمه لوصف بيئة معلوماتية تتشكل من خلال التخصيص، بحيث يمكن للمستخدم أن يجد نفسه محاطًا بصورة متزايدة بما ينسجم مع اهتماماته وسلوكه السابق من دون أن يختار جميع عمليات الاستبعاد التي أدت إلى ذلك [9]. وقد جعل هذا المفهوم مشكلة التخصيص موضوعًا عامًا للنقاش، لأنه نبه إلى أن الراحة التي توفرها الخوارزمية قد تأتي أحيانًا على حساب التنوع والتعرض لغير المتوقع

غير أن البحث الأكاديمي اللاحق يقتضي التعامل مع مفهوم الفقاعة بحذر، لأن الأدلة لا تدعم دائمًا صورة المستخدم المحبوس بصورة كاملة داخل عالم مغلق صنعته الخوارزمية. فقد درس سيث فلاكسمان وشاراد غويل وجاستن راو أنماط استهلاك الأخبار لدى نحو خمسين ألف مستخدم في الولايات المتحدة، ووجدوا صورة مركبة؛ إذ ارتبط البحث ووسائل التواصل بقدر من الفصل الأيديولوجي، لكنهما ارتبطا كذلك بزيادة التعرض لبعض الآراء المخالفة، كما كان الحجم العام لبعض التأثيرات أكثر تواضعًا من التصورات القصوى حول الفقاعات المغلقة [10]. ومن ثم فإن استخدام مفهوم فقاعات الترشيح في هذا الكتاب ينبغي أن يكون بوصفه إمكانًا أو آلية للتضييق لا قانونًا حتميًا لكل تخصيص .

ويكتسب هذا الاحتراز أهمية خاصة عند نقل المفهوم من الأخبار والسياسة إلى القراءة الأدبية والثقافية، لأن طبيعة الاستهلاك مختلفة ولا يمكن افتراض النتائج نفسها دون دراسة. ومع ذلك يظل السؤال صالحًا: هل يمكن لتوصيات الكتب التي تستند بقوة إلى التشابه أن تقلل من تعرض القارئ إلى أجناس ولغات ومدارس وأفكار مختلفة؟ وإذا كان الجواب ممكنًا ، فإننا نستطيع الحديث بصورة إجرائية عن فقاعة قراءة أو تضييق خوارزمي لأفق

القراءة، مع إبقاء الحاجة إلى البحث التجريبي مفتوحة بدل تقديمه كحقيقة محسومة.

ويعمل هذا التضييق على أكثر من مستوى؛ فقد يكون موضوعيًا حين يرى القارئ كتبًا من المجال نفسه، أو لغويًا حين تهيمن لغة على الاقتراحات، أو جغرافيًا حين تبقى الأعمال الصادرة عن مراكز نشر معينة أكثر ظهورًا، أو ذوقيًا حين تتكرر الأنماط التي سبق أن حصلت على تقييم إيجابي. كما يمكن أن يحدث تضييق تأويلي عندما تقدم المنصات أو الأنظمة الذكية باستمرار القراءات الأكثر تداولًا، فتقل فرصة الوصول إلى قراءات هامشية أو معارضة.

ومن هنا يمكن توسيع مفهوم الفقاعة من «فقاعة المحتوى» إلى فقاعة التأويل، وهي حالة افتراضية يصبح فيها القارئ معرضًا على نحو متكرر إلى مجموعة محدودة من طرق فهم النصوص، سواء بسبب الشعبية أو الترتيب أو طبيعة البيانات التي تتعلم منها الأنظمة. ولا يعني ذلك أن الخوارزمية تمنع المعاني الأخرى، بل أن تكلفة اكتشافها تصبح أعلى لأنها ليست في المسار الافتراضي.

وتصبح خطورة هذا التضييق أكبر حين لا يكون القارئ واعيًا به، لأن المستخدم الذي يعرف أن القائمة شخصية يستطيع أن يبحث خارجها، أما من يعتقد أن ما يراه يمثل ببساطة «أفضل الكتب» أو «أهم النتائج» فقد يحول تخصيصًا خاصًا إلى حكم عام على الثقافة. ومن هنا فإن الوعي بحدود القائمة شرط أول لمقاومة الفقاعة.

- المصادفة والاكتشاف خارج الاقتراحات

تكتسب المصادفة الثقافية قيمة خاصة في البيئة الخوارزمية لأن القراءة لا تتطور فقط من خلال ما يشبه اهتماماتنا، بل كذلك من خلال ما يصدمها ويغيرها. فجزء من تكوين الذائقة يأتي من الكتاب الذي لم نكن نبحث عنه، أو من الكاتب الذي لا ينتمي إلى الدائرة التي نعرفها، أو من الكتاب

القديم الذي لا يملك مؤشرات التفاعل التي تدفعه إلى واجهة المنصة. ومن هنا لا ينبغي أن يكون معيار جودة البيئة القرائية قدرتها على توقع القارئ فقط، بل قدرتها أيضًا على إتاحة ما يفلت من التوقع.

ولا تعني المصادفة غياب كل تنظيم، لأن المكتبات نفسها تصنف والناشرون يختارون، لكنها تعني وجود مساحات لا تختزل بالكامل في التخصيص الشخصي. ويمكن للمنصات نفسها أن تصمم إمكانات للاكتشاف العشوائي أو للتنوع، كما يستطيع المستخدم أن يبني ممارسات مضادة، كاختيار كتب من قوائم لا تستند إلى تاريخه، أو البحث في مكتبات وفهارس مختلفة، أو قراءة أعمال من لغات وأقاليم ومدارس لا يعرفها.

ومن هنا اقترح الكتاب سابقًا مفهوم »العصيان القرائي« بوصفه ممارسة لا تهدف إلى معاداة الخوارزمية، بل إلى كسر المسار الأكثر توقعًا عندما يحتاج القارئ إلى توسيع أفقه. ويتحقق هذا العصيان حين يقرر المستخدم تجاهل القائمة المخصصة، أو يطلب من النظام أن يقترح نقيض ذوقه، أو يبحث عن أصوات لا تحظى بالانتشار، أو يبدأ من فهرس أبجدي بدل توصية، أو يدخل إلى رف افتراضي أو مادي لا يعرف مسبقًا ما سيجده فيه.

وتساعد هذه الممارسة على إعادة تعريف استقلال القارئ داخل البيئة الخوارزمية. فالاستقلال لا يعني أن يرفض كل توصية، لأن ذلك سيكون إنكارًا لفائدة واضحة يمكن أن توفرها الأنظمة في مواجهة الوفرة، بل يعني أن يعرف أن التوصية اقتراح وليست قدرًا، وأن يمتلك استراتيجيات للخروج منها. ومن هنا يمكن القول إن القارئ المستقل لا يثبت حريته برفض الخوارزمية، بل بقدرته على الانتقال بين استخدام مسارها ومغادرته.

ويصبح الاكتشاف خارج الاقتراحات مهمًا كذلك لحماية القراءة من «التطابق مع الذات»، لأن الثقافة ليست مرآة فقط، بل فضاء لتغيير الإنسان. فإذا كانت الخوارزمية ممتازة في إعادة ما يشبه تاريخنا، فإن القارئ يحتاج إلى آليات تعيده أحيانًا إلى ما لا يشبهه، وهذه المسافة بين المتوقع والمختلف

هي واحدة من الشروط التي تجعل القراءة تجربة لتوسيع الذات بدل أن تصبح مجرد تأكيد رقمي لها.

ـ المبحث السادس: سلطة الوسيط الخوارزمي

ـ *المرئي والمخفي*

تتمثل سلطة الوسيط الخوارزمي في جانب أساسي منها في القدرة على تنظيم العلاقة بين المرئي والمخفي، لأن الخوارزمية لا تحتاج إلى حظر نص لكي تؤثر في فرص قراءته، بل يكفي أحيانًا أن تضعه في موضع ضعيف الظهور أو ألا تدخله في دوائر التوصية. ومن هنا تختلف السلطة الخوارزمية عن الرقابة المباشرة؛ فهي قد تعمل من خلال الترتيب والتخفيض والتكرار والإهمال، وهي عمليات تبدو أقل دراماية من الحذف لكنها تستطيع أن تنتج آثارًا ثقافية عميقة على المدى الطويل.

وقد وضع غيليسبي «الإدراج والاستبعاد والتخفيض» ضمن العناصر التي ينبغي دراستها لفهم خوارزميات الصلة، لأن ما لا يظهر أو ما يتراجع داخل الترتيب جزء من عمل النظام بقدر ما يظهر في المقدمة .[2] وتذهب بوخر إلى تحليل القوة الخوارزمية بوصفها علاقة تتجاوز فكرة أن الخوارزمية «تفعل» شيئًا بالمستخدم بصورة خطية، إذ تتشكل هذه القوة من العلاقات بين التصميم والتوقعات والممارسات وردود الفعل التي يعيشها الناس داخل المنصات [7 .]

ويهم مشروع القارئ الهجين أن يضيف إلى مفهوم «النص المقروء» مفهوم النص الممكن رؤيته، لأن تاريخ الأدب نفسه يمكن أن يتأثر بمنطق القابلية للاكتشاف. فإذا بقيت أعمال معينة في دوائر الظهور لأنها تملك بيانات تفاعل قوية، بينما تظل أعمال أخرى خارجها لأنها جديدة أو نادرة أو تنتمي إلى لغات ومؤسسات أقل حضورًا، فإن الخوارزمية تشارك بصورة غير مباشرة في إعادة توزيع الرأسمال الثقافي.

وهنا يظهر البعد السياسي والثقافي للنقد الذي قدمته صفية نوبل لمحركات البحث، إذ تبين دراستها أن الوصول إلى المعلومات وترتيبها يمكن أن يعكس علاقات القوة والتحيزات الموجودة في الثقافة والمؤسسات والاقتصاد، ومن ثم لا ينبغي فصل نظام البحث عن العالم الذي أنتجه .[11] ولا يعني نقل هذه

الفكرة إلى القراءة الأدبية افتراض نوع واحد من التحيز، بل يعني طرح أسئلة عن تمثيل اللغات والثقافات ودور النشر والأنواع الأدبية، وعن الأسباب التي تجعل نصًا مرئيًا والآخر غائبًا.

ومن هنا يمكن تعريف سلطة الإظهار والإخفاء بأنها قدرة الوسيط على إعادة توزيع احتمالات اللقاء بين القارئ والنص دون أن يحتاج إلى التحكم النهائي في قرار القراءة. وهذه السلطة لا تسلب القارئ حريته، لكنها تعيد تشكيل الحقل الذي تمارس فيه تلك الحرية، وهو ما يجعلها موضوعًا مشروعًا للنقد الأدبي والثقافي، لا مسألة تقنية خارج مجال النظرية.

ويترتب على ذلك أن القراءة الميتا خوارزمية، التي سيخصص لها الكتاب فصلًا لاحقًا، تبدأ من سؤال يبدو بسيطًا :**ما الذي لا أراه؟** فهذا السؤال ينقل القارئ من التعامل مع الواجهة باعتبارها العالم إلى إدراك أنها تمثيل جزئي للعالم، ويجعله قادرًا على البحث عن المسارات المحذوفة أو الضعيفة الظهور أو غير المخصصة له.

- شفافية الخوارزمية ومساءلتها

إذا كانت الخوارزمية تشارك في ترتيب ما يراه القارئ، فمن الطبيعي أن تظهر المطالبة بالشفافية بوصفها وسيلة لفهم الوسيط واستعادة جزء من السيطرة عليه. غير أن الشفافية نفسها مفهوم أكثر تعقيدًا مما يبدو، لأن معرفة الشفرة أو إعلان بعض عوامل الترتيب لا يضمنان وحدهما فهم النظام في الواقع، خصوصًا عندما تكون المنصات أنظمة اجتماعية وتقنية ضخمة تتغير باستمرار. وقد ناقش مايك أناني وكيت كروفورد حدود «مثال الشفافية» في مساءلة الأنظمة الخوارزمية، وأكدا أن رؤية النظام لا تعني بالضرورة معرفة كيفية عمله أو امتلاك القدرة على محاسبته، وأن المساءلة تحتاج إلى مقاربات أوسع من مجرد فتح «الصندوق الأسود.[12] «

وتكتسب هذه الملاحظة أهمية كبيرة بالنسبة إلى القارئ، لأنه ليس مطلوبًا منه أن يصبح مبرمجًا قادرًا على تحليل ملايين الأسطر من الشفرة،

كما أن هذا النوع من المعرفة قد لا يكون ممكنًا أصلًا في الأنظمة التجارية المغلقة، ولذلك يجب أن تكون الشفافية التي يحتاج إليها القارئ شفافية وظيفية قابلة للاستعمال .فهو يحتاج إلى معرفة ما إذا كان المحتوى مخصصًا، وما أنواع البيانات التي تؤثر فيه بصورة عامة، وما إذا كان يمكن تعديل التوصيات أو إيقافها، وكيف يمكن رؤية خيارات غير مخصصة، وما الفرق بين نتيجة عضوية وإعلان، وما الحدود التي تعلنها المنصة عن النظام.

ومن هنا لا تعني المساءلة كشف كل سر تقني، بل بناء شروط تسمح للمستخدم والباحث والمؤسسة بفحص آثار النظام. ويمكن أن تشمل المقارنة بين حسابات مختلفة، أو تغيير الأسئلة، أو اختبار ثبات النتائج، أو تحليل ما يظهر وما يغيب، أو الاعتماد على بحوث تدقيق مستقلة، وهي ممارسات تجعل النقد ممكنًا حتى عندما لا تكون البنية الداخلية كاملة الشفافية.

ويظهر هنا مفهوم الوعي الخوارزمي بوصفه حلقة أساسية بين الشفافية المؤسسية وقدرة الفرد على التصرف. فقد بينت أبحاث أودلف-هيرش ونويباوم أن الوعي بالخوارزميات يرتبط ليس بالمعرفة فقط، بل كذلك بالمواقف والسلوك الذي يتخذه المستخدم تجاه المنصات [13]، وهو ما يسمح بتطوير مفهوم الكفاءة الخوارزمية النقدية داخل نظرية القارئ الهجين؛ فالمطلوب ليس معرفة أن خوارزمية موجودة فقط، بل تحويل هذه المعرفة إلى ممارسة مثل المقارنة وتوسيع البحث والتحقق والخروج من التخصيص عندما يكون ذلك ضروريًا .

وتقودنا هذه المسألة إلى تمييز بين شفافية النظام وشفافية القارئ تجاه نفسه .فحتى لو قدمت المنصة معلومات عن طريقة التوصية، يحتاج المستخدم إلى أن يسأل عن سلوكه هو: لماذا أنقر دائمًا على النتائج الأولى؟ لماذا أقبل المقترحات المتشابهة؟ هل أصبحت أتجنب البحث المفتوح لأن التوصية أسهل؟ ما الوظائف التي سلمتها للمنصة دون أن أنتبه؟ ومن هنا تصبح المساءلة عملية مزدوجة تستهدف الوسيط وعادات القارئ في آن واحد.

وتتصل هذه العملية مباشرة بمفهوم السيادة التأويلية الذي طوره الكتاب في الفصول السابقة؛ فالسيادة لا يمكن أن تتحقق إذا كان القارئ لا يعرف البوابة التي يمر عبرها إلى النص، كما لا تتحقق لمجرد معرفة وجودها، بل تحتاج إلى قدرة على تعديل العلاقة معها. ومن هنا يكون القارئ الميتا خوارزمي هو الذي يستطيع أن يقول: أعرف أن هذه القائمة مخصصة، وأستطيع استخدامها لأنها مفيدة، لكنني أستطيع كذلك أن أغادرها وأبني مسارًا آخر.

الخوارزمية ومرحلة ما قبل القراءة

يتيح مجموع المباحث السابقة استخلاص نتيجة نظرية مهمة تتمثل في ضرورة الاعتراف بما يمكن تسميته »**مرحلة ما قبل القراءة الخوارزمية**«، وهي المرحلة التي تسبق المواجهة المباشرة مع النص، لكن تجري فيها عمليات قد تؤثر في اختياره وتوقعه وتأطيره. وتشمل هذه المرحلة نتائج البحث والتوصيات والتقييمات والتصنيفات والملف الشخصي والواجهة والقوائم وغيرها من العناصر التي تعمل بوصفها عتبات رقمية وخوارزمية.

ولا تمثل هذه المرحلة اكتشافًا بأن للكتاب عتبات، فقد عرفت الدراسات الأدبية منذ زمن أهمية الغلاف والعنوان والمقدمة والناشر والنقد، لكن البيئة الخوارزمية تجعل العتبة ديناميكية وشخصية وقابلة لإعادة الترتيب باستمرار .فالعتبة المطبوعة ثابتة نسبيًا لكل القراء، بينما قد تتغير العتبة الرقمية من مستخدم إلى آخر، وبذلك يصبح من الممكن الحديث عن عتبات خوارزمية شخصية تدخل في تكوين استقبال العمل.

ومن هنا ينبغي إعادة بناء دورة التلقي بحيث لا تبدأ بالنص، بل تبدأ من المجال الذي يجعل النص ممكن الوصول. ويمكن تمثيلها في الصيغة التالية :**بيانات وتفضيلات سابقة → ترتيب أو توصية → ظهور النص → تكوين توقع → اختيار القارئ → القراءة → تفاعل جديد → بيانات جديدة** .وتكشف هذه الدورة أن التلقي الخوارزمي ليس حدثًا يحدث مرة واحدة، بل نظام تغذية راجعة يعيد إنتاج شروط القراءة في كل دورة.

وهذا هو الفرق الجوهري بين الوسيط التقليدي والوسيط الخوارزمي؛ فالمكتبي قد يعرف القارئ ويقترح عليه كتاباً، لكن النظام يستطيع القيام بذلك لملايين الأفراد باستمرار ووفق بيانات متراكمة، كما يستطيع تعديل اقتراحه لحظة بلحظة. ولا يجعل الحجم الحسابي الوساطة أكثر «إنسانية» أو أكثر فهماً، لكنه يجعلها أكثر قابلية للاندماج في الحياة اليومية وأقل ظهوراً بوصفها فعل اختيار صادراً عن وسيط.

ومن هنا يكتسب مفهوم التلقي الخوارزمي تعريفه الأكثر دقة: إنه عملية استقبال النصوص داخل بيئة تتدخل فيها الخوارزميات في الاختيار والترتيب والإظهار والتوصية والتخصيص، بحيث تصبح شروط وصول النص إلى القارئ جزءاً من البنية التي ينبغي لنظرية القراءة أن تدرسها. ولا يعني المفهوم أن الخوارزمية تحل محل التلقي البشري، بل أن التلقي البشري أصبح في بعض الحالات مؤطراً خوارزمياً قبل أن يبدأ الفهم النصي المباشر.

من بوابة النص إلى بوابة المعنى

تكشف دراسة الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص عن نقطة تحول تمهد للفصول التالية من هذا الكتاب، لأن النظام الذي يقرر بدرجات مختلفة ما يصل إلى القارئ يستطيع أن يتحرك تدريجياً من تنظيم الوصول إلى تنظيم الانتباه ثم إلى التأثير في الذائقة، قبل أن يدخل، مع الذكاء الاصطناعي التوليدي، إلى مجال الشرح والتأويل. ومن هنا لا ينبغي التعامل مع التوصية والبحث والذكاء الاصطناعي بوصفها ظواهر منفصلة، بل مراحل في تاريخ متصل للوساطة الخوارزمية.

في المرحلة الأولى كانت التقنية تساعد على العثور على النص، وفي الثانية بدأت تساعد على اختيار النص، ثم أصبحت قادرة على توقع النص الذي قد يهم القارئ، أما المرحلة التوليدية فتجعلها قادرة على إنتاج كلام حول ما قد يعنيه النص .وهكذا تنتقل الخوارزمية من بوابة النص إلى بوابة المعنى، وهو الانتقال الذي سيجعل الفصول المتعلقة بالذائقة والذكاء الاصطناعي والتأويل ضرورة منطقية في بناء النظرية.

ويظهر في هذا التسلسل أن الخطر لا يتمثل في مرحلة واحدة، بل في تراكم الوساطة؛ فقد يصل القارئ إلى كتاب لأن النظام أوصى به، ثم يرى حوله مراجعات رتبت خوارزمياً، ثم يستخدم محرك البحث الذي يرتب الشروح، ثم يسأل نظاماً توليدياً أن يفسر النص، وعندها تمر تجربته عبر طبقات من الوساطة يمكن أن تكون كل واحدة مفيدة في ذاتها، لكن اجتماعها يحتاج إلى وعي أكبر بكيفية تشكل المسار. ومن هنا يصبح أحد أهداف القارئ الهجين النقدي هو القدرة على تفكيك هذا التراكم ومعرفة أين دخل كل وسيط وما الذي أضافه.

ويمكن تسمية هذه القدرة إدارة الوساطة القرائية، أي معرفة متى يبدأ النظام في تشكيل مجال الاختيار، ومتى يدخل إلى الفهم، ومتى ينبغي الرجوع إلى نص أو مصدر خارج الدائرة. ولا يعني ذلك السعي إلى قراءة «نقية» خالية من الوسائط، لأن مثل هذه القراءة لم توجد تاريخياً، وإنما السعي إلى قراءة تعرف وسائطها بدل أن تنكرها.

خاتمة الفصل

أظهر هذا الفصل أن الخوارزمية أصبحت بوابة أساسية إلى النص في عدد متزايد من البيئات الرقمية، لا بمعنى أنها تمنع القارئ من الوصول إلى الثقافة أو تجرده من اختياراته، بل بمعنى أن الاكتشاف والترتيب والتوصية والتخصيص لم تعد تقع خارج فعل التلقي، وإنما أصبحت جزءًا من الشروط التي تشكل مجال ما يمكن أن يقرأه الفرد. ومن هنا فإن الانتقال من المكتبة إلى المنصة يمثل تحولًا من فضاء تكون فيه الوساطة أكثر ثباتًا ووضوحًا إلى فضاء ديناميكي تستطيع فيه القوائم والواجهات أن تتغير وفق البيانات والسياق، وهو ما يجعل المنصة وسيطًا ثقافيًا يشارك في توزيع الانتباه وليس مخزنًا محايدًا للمحتوى [1].[2][

وقد بيّن تحليل أنظمة التوصية أن منطق الاقتراح يقوم على مساعدة المستخدم في مواجهة وفرة الخيارات، لكنه يحول في الوقت نفسه التفضيلات إلى بيانات قابلة للتوقع، ويخلق دورة يتفاعل فيها السلوك السابق مع الاقتراحات اللاحقة [3][4]. ومن هنا لا ينبغي النظر إلى الذائقة بوصفها مادة مستقرة تكتشفها الخوارزمية فقط، ولا إلى النظام بوصفه قوة تصنع الذوق من الخارج، بل إلى العلاقة بوصفها حلقة من التغذية الراجعة التي يؤثر فيها القارئ في النموذج ويؤثر النموذج في مجال اختيارات القارئ.

كما كشف تحليل محركات البحث أن ترتيب النتائج ليس إجراءً بريئًا من الناحية المعرفية، لأن الموضع يؤثر في الرؤية والنقر، وتستطيع الصدارة الرقمية أن تتحول في وعي المستخدم إلى مؤشر ضمني على الصدقية أو الأهمية، وهو ما يفرض على القارئ التمييز بين ترتيب النظام والقيمة المعرفية للمصدر [5][6][11]. ومن هنا تصبح الكفاية البحثية أوسع من القدرة على كتابة الكلمات المفتاحية، لأنها تتطلب التعامل مع النتيجة الأولى بوصفها اقتراحًا مرتبًا لا حقيقة أولى.

أما مفهوم «الملف الخوارزمي للقارئ» فقد سمح بإظهار أن القراءة أصبحت قابلة جزئيًا للتحول إلى بيانات، وأن المنصات تستطيع استخدام آثار السلوك لبناء

تمثيلات وظيفية تساعد على التنبؤ بالاختيارات، غير أن هذه التمثيلات لا ينبغي أن تخلط بالذات الإنسانية نفسها، لأنها تلتقط ما يمكن قياسه ولا تستوعب بالضرورة دوافع التجربة أو تعقيدها [8]. ومن هنا يظهر توتر أساسي بين قدرة الخوارزمية على التنبؤ وبين محدودية فهمها للمعنى الإنساني لهذا السلوك.

وقد فرضت فقاعات الترشيح بدورها درجة من الاحتراز النظري؛ ففكرة التضييق الناتج عن التخصيص مفيدة في وصف خطر حقيقي محتمل، لكنها لا ينبغي أن تتحول إلى قانون عام يفترض أن كل مستخدم محاصر داخل فقاعة مغلقة، لأن الدراسات التجريبية قدمت نتائج أكثر تركيبًا تظهر إمكان حدوث العزل والتنوع في الوقت نفسه [9][10]. ومن هنا يستخدم هذا الكتاب مفهوم «فقاعة القراءة» باعتباره فرضية تحليلية تحتاج إلى إثبات داخل الممارسة القرائية، ويقابلها بمفهوم المصادفة الثقافية والعصيان القرائي بوصفهما طريقتين لتوسيع الأفق خارج ما يتنبأ به النظام.

وأخيرًا كشف تحليل سلطة الوسيط أن القوة الخوارزمية لا تعمل بالمنع الصريح وحده، بل عبر الإظهار والإخفاء والترتيب والتكرار والتخفيض، وهو ما يجعل القابلية للاكتشاف نفسها مسألة ثقافية وسياسية تستحق النقد [2][7][11]. كما ظهر أن الشفافية، على أهميتها، ليست حلًا كاملًا، لأن كشف جوانب النظام لا يضمن فهم آثاره أو القدرة على مساءلته، ولذلك تحتاج القراءة النقدية إلى الانتقال من مطلب رؤية الخوارزمية إلى بناء قدرة عملية على فحص مخرجاتها ومقارنتها والخروج من مساراتها [12.][13][

وبذلك يضيف هذا الفصل إلى النموذج النظري للكتاب حلقة كانت نظريات التلقي التقليدية لا تحتاج إلى وضعها في المركز؛ إذ لم يعد المسار يبدأ بالنص ثم القارئ، بل يمكن أن يبدأ ببيانات القارئ والخوارزمية والمنصة ثم ظهور النص ثم القراءة، وبعد القراءة تعود البيانات الجديدة إلى النظام لتؤثر في الدورة المقبلة. ويمكن تمثيل البنية كاملة بالصورة التالية :سلوك سابق → بيانات → ملف خوارزمي → بحث أو توصية →

ترتيب وإظهار → اختيار بشري → قراءة → تفاعل → بيانات جديدة، وهي دورة تجعل الخوارزمية طرفًا في شروط التلقي قبل أن تدخل إلى التأويل نفسه.

ومن هنا يمهد هذا الفصل مباشرة للفصل التالي المتعلق باقتصاد الانتباه وصناعة الذائقة الأدبية، لأن الوسيط الذي يحدد ما يظهر لا ينظم الاختيار فقط، بل يدخل إلى المنافسة على وقت القارئ، وتصبح التقييمات والمقاييس والمؤثرون والمنصات جزءًا من نظام جديد لإنتاج القيمة الثقافية. فإذا كان السؤال هنا هو «ما الذي يصل إلى القارئ؟»، فإن السؤال التالي سيكون «ما الذي يجعل القارئ ينتبه إلى نص أكثر من آخر، وكيف تتحول هذه العملية مع الوقت إلى صناعة خوارزمية للذائقة؟.«

المراجع والمصادر والإشارات

[1] van Dijck, José; Poell, Thomas & de Waal, Martijn. *The Platform Society: Public Values in a Connective World*. New York: Oxford University Press, 2018.

يمثل الكتاب مرجعًا أساسيًا لفهم المنصات بوصفها بنى تحتية اجتماعية وثقافية واقتصادية، ويفيد في هذا الفصل في تحليل الانتقال من المكتبة إلى المنصة وفي إدراك أن التنظيم التقني للمحتوى جزء من البيئة الثقافية لا مجرد خدمة خارجية. وتثبت Oxford University Press **صدور الكتاب سنة** 2018 **وتقديمه تحليلًا للمجتمع الذي أصبحت فيه المنصات وسيطًا لمجالات متعددة من الحياة العامة**(OUP Academic) .

[2] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014.

مرجع مركزي في تحليل دور خوارزميات البحث والتوصية والمنصات في تحديد ما يعد ذا صلة وفي عمليات الإدراج والاستبعاد والترتيب، ويؤسس لمساءلة ادعاءات الموضوعية الخوارزمية وللنظر إلى الأنظمة الحسابية بوصفها جزءًا من الممارسات الاجتماعية والمؤسساتية للمعرفة (OUP Academic) .

[3] Ricci, Francesco; Rokach, Lior & Shapira, Bracha (eds.). *Recommender Systems Handbook*. 2nd ed. New York: Springer, 2015. **وانظر خصوصًا**: Ricci, Francesco; Rokach, Lior & Shapira, Bracha, "Recommender Systems: Introduction and Challenges," pp. 1–34.

يقدم المرجع الأساس التقني والمفاهيمي لفهم أنظمة التوصية بوصفها أدوات تقترح عناصر يحتمل أن تكون ذات اهتمام للمستخدم وتساعده على التعامل مع وفرة الخيارات، كما يعرض أشكالًا متعددة للتوصية والتخصيص .
(Springer Nature)

[4] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media*

& Society, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.

يمثل مرجعًا مهمًا لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل الطريقة التي يعاد من خلالها تحويل الذوق والتفضيل والمنتجات الثقافية إلى بيانات وعمليات تصنيف وتوصية(Sage Journals) .

[5] Brin, Sergey & Page, Lawrence. "The Anatomy of a Large-Scale Hypertextual Web Search Engine." *Computer Networks and ISDN Systems*, Vol. 30, Issues 1–7, 1998, pp. 107–117. DOI: 10.1016/S0169-7552(98)00110-X.

مرجع تاريخي أساسي في تطور محركات البحث الحديثة، ويعرض المبادئ التي قام عليها نموذج مبكر لمحرك واسع النطاق يستخدم بنية الروابط التشعبية إلى جانب الفهرسة من أجل ترتيب النتائج وتقديم ما يعتبر أكثر صلة بالاستعلام(Google Research) .

[6] Joachims, Thorsten; Granka, Laura; Pan, Bing; Hembrooke, Helene & Gay, Geri. "Accurately Interpreting Clickthrough Data as Implicit Feedback." In *Proceedings of the 28th Annual International ACM SIGIR Conference on Research and Development in Information Retrieval*, 2005, pp. 154–161. DOI: 10.1145/1076034.1076063.

دراسة مؤثرة في العلاقة بين ترتيب نتائج البحث وسلوك النقر، وقد بينت من خلال التجربة وتتبع العين أن النقرات تحمل معلومات عن التفضيل لكنها تتأثر كذلك بتحيزات العرض والموقع، وهو ما يدعم تحليل سلطة الصدارة الرقمية(Google Research) .

[7] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم الكتاب إطارًا نقديًا لفهم القوة الخوارزمية بوصفها علاقة اجتماعية-تقنية لا يمكن اختزالها في الشفرة، ويفيد في تحليل الطريقة التي تجعل بها الخوارزميات بعض الأشياء أكثر ظهورًا وقابلية للإدراك من غيرها، وفي تفسير التفاعل بين الأنظمة وممارسات المستخدمين(OUP Academic) .

[8] van Dijck, José. "Datafication, Dataism and Dataveillance: Big Data between Scientific Paradigm and Ideology." *Surveillance &*

Society, Vol. 12, No. 2, 2014. DOI: 10.24908/ss.v12i2.4776.
مرجع مهم لفهم «التبيين بالبيانات» وتحويل جوانب متزايدة من النشاط الاجتماعي إلى بيانات قابلة للجمع والمعالجة، ويُستفاد منه في هذا الفصل عند بناء مفهوم الملف الخوارزمي للقارئ وتحليل العلاقة بين النشاط الشخصي والمنصات(ojs.library.queensu.ca) .

[9] Pariser, Eli. *The Filter Bubble: What the Internet Is Hiding from You*. New York: Penguin Press, 2011.
صاغ الكتاب مفهوم «فقاعة الترشيح» بوصفه وصفًا لخطر البيئة الشخصية التي يمكن أن تحيط المستخدم بالمحتوى الملائم لتفضيلاته بصورة تقلل تعرضه لما يقع خارجها، ويستفاد منه في هذا الفصل بوصفه مدخلًا نقديًا يحتاج إلى موازنته بالدراسات التجريبية اللاحقة(Penguin Random House) .

[10] Flaxman, Seth; Goel, Sharad & Rao, Justin M. "Filter Bubbles, Echo Chambers, and Online News Consumption." *Public Opinion Quarterly*, Vol. 80, Special Issue 1, 2016, pp. 298–320. DOI: 10.1093/poq/nfw006.
دراسة واسعة لأنماط استهلاك الأخبار عبر الإنترنت قدمت نتائج مركبة بشأن الفصل الأيديولوجي والتعرض إلى وجهات نظر مختلفة، وهي مهمة في هذا الفصل للتحذير من التعامل مع «فقاعة الترشيح» باعتبارها نتيجة حتمية لكل خوارزمية أو كل تخصيص(OUP Academic) .

[11] Noble, Safiya Umoja. *Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism*. New York: New York University Press, 2018.
يمثل الكتاب أحد أهم الأعمال النقدية حول محركات البحث والتحيز وقابلية الاكتشاف، ويبين أن ترتيب المعلومات لا يمكن فصله عن السياقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تنتج فيها الخوارزميات والمنصات . (NYU Press)

[12] Ananny, Mike & Crawford, Kate. "Seeing without Knowing: Limitations of the Transparency Ideal and Its Application to Algorithmic Accountability." *New Media & Society*, Vol. 20, No. 3,

2018, pp. 973–989. DOI: 10.1177/1461444816676645.
مرجع أساسي في نقد الاعتقاد بأن كشف النظام أو زيادة شفافيته تكفي وحدها لتحقيق الفهم والمساءلة، ويُستفاد منه لتطوير تصور للمحاسبة الخوارزمية يتجاوز مجرد مطلب فتح الصندوق الأسود(Sage Journals) .

[13] Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German. "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035. DOI: 10.1093/jcmc/zmad035.
يفيد المرجع في تأسيس الوعي الخوارزمي بوصفه معرفة مرتبطة كذلك بالمواقف والسلوك، ويشكل أحد الأسس التي يعتمد عليها هذا الكتاب في الانتقال من مجرد معرفة وجود الوساطة إلى بناء مفهوم القارئ الميتا خوارزمي القادر على مساءلتها والتصرف نقديًا تجاهها.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مراجع هذا الفصل في خمس دوائر مترابطة؛ إذ تقدم دراسة مجتمع المنصات عند فان ديك وبول ودي وال، إلى جانب تحليل غيليسبي وبوخر [1][2][7]، الأساس لفهم المنصة والخوارزمية بوصفهما وسيطين ثقافيين قادرين على تنظيم الرؤية والوصول، بينما توفر أعمال ريتشي وروكاش وشابيرا وهالينان وستريبهاس [3][4] الإطار اللازم لفهم أنظمة التوصية والتخصيص وعلاقتها بالذوق والثقافة. وتفسر أعمال برين وبيج ويواكيمز وزملائه [5][6] الأسس التقنية وبعض الآثار السلوكية لترتيب نتائج البحث، في حين يسمح مفهوم التبيين بالبيانات عند فان ديك [8] بتأسيس مفهوم «الملف الخوارزمي للقارئ» الذي يقترحه هذا الكتاب. أما باريزر وفلاكسمان وغويل وراو [9][10] فيتيحون بناء معالجة متوازنة لمشكلة فقاعات الترشيح بين التنبيه النظري والدليل التجريبي، بينما تقدم أعمال نوبل وأناني وكروفورد [11][12] الأساس النقدي لمسائل التحيز والشفافية والمساءلة، بما يمهد للانتقال من القارئ الذي تستخدم الخوارزمية في تنظيم عالمه إلى القارئ الذي يبدأ في قراءة هذه الخوارزمية نفسها بوصفها موضوعًا للنقد.

ومن تقاطع هذه المرجعيات يتأكد المبدأ المركزي الذي يضيفه هذا الفصل إلى نظرية القارئ الهجين :القراءة في البيئة الخوارزمية لا تبدأ دائمًا عندما يفتح القارئ النص، بل قد تبدأ قبل ذلك، في اللحظة التي تقرر فيها أنظمة البحث والتوصية والترتيب أي نصوص ستدخل أصلًا إلى مجال رؤيته؛ ولذلك فإن نقد القراءة المعاصرة ينبغي أن يقرأ البوابة بقدر ما يقرأ ما يمر عبرها.

الفصل الثامن

اقتصاد الانتباه وصناعة الذائقة الأدبية

انتهى الفصل السابق إلى أن الخوارزمية قد أصبحت، في عدد متزايد من البيئات الرقمية، بوابة تسبق اللقاء المباشر بين القارئ والنص، فتشارك في ترتيب ما يظهر واقتراح ما يمكن قراءته وبناء صورة حسابية تقريبية عن التفضيلات السابقة، إن هذه الوساطة لا تعمل داخل فراغ اقتصادي أو ثقافي محايد، وإنما تتحرك في فضاء تتنافس فيه الكتب والمنشورات والمراجعات والفيديوهات والصور والإعلانات والرسائل والإشعارات على مورد محدود لا تستطيع المنصات إنتاجه مهما اتسعت قدراتها الحسابية، هو انتباه الإنسان وزمنه .ومن هنا لا يمكن دراسة القارئ الهجين داخل المنصة من زاوية التوصية وحدها، لأن السؤال لا يتعلق فقط بأي كتاب تقترحه الخوارزمية، بل كذلك بقدرتها على جعل هذا الكتاب أو الفيديو المتعلق به أكثر قدرة على اجتذاب النظر والبقاء في الذاكرة وتوليد تفاعل جديد، بحيث تصبح المنافسة على القراءة جزءًا من منافسة أوسع على الانتباه.

ويفرض هذا التحول إعادة النظر في مفهوم الذائقة الأدبية ذاتها، لأن الذوق لم يكن تاريخيًا خاصية فردية خالصة تنبع من داخل القارئ بمعزل عن محيطه، بل تشكل دائمًا عبر التربية والطبقة والمؤسسات والناقد والمدرسة والجامعة والجائزة والناشر والجماعة الثقافية، وهو ما قدم بيير بورديو تحليله السوسيولوجي الواسع في *التمييز* حين ربط الحكم على الأعمال الثقافية بشروط اجتماعية وتاريخية تنتج أنماط التفضيل والاستبعاد [7]. غير أن البيئة المنصاتية تضيف إلى هذه الوسطاء طبقة جديدة شديدة القوة، لأن الذوق أصبح قابلًا للترجمة جزئيًا إلى أرقام وسلوكيات وتفاعلات، كما أصبح من الممكن أن تعيد الخوارزمية هذه البيانات إلى المستخدم في صورة توصيات وترتيبات وقوائم، فتتشكل علاقة دائرية بين ما نحبه وما نفعله وما تقيسه المنصة وما تعيده إلينا باعتباره أقرب إلى رغباتنا. ومن هنا لا يدعي هذا الفصل أن الخوارزمية «تصنع الذوق» من العدم، بل يقترح أن

الذائقة المعاصرة تتشكل، بدرجات متفاوتة، داخل تفاعل بين التاريخ الثقافي للقارئ والجماعة الرقمية والمؤثر والمقاييس والخوارزمية.

وتنبع أهمية هذا الفصل بالنسبة إلى مشروع «القارئ الهجين» من أن الهجنة لا تتعلق فقط باستخدام أدوات ذكية أثناء تفسير النص، بل تبدأ قبل ذلك في الاقتصاد الذي يحدد أي المواد ستحصل أصلًا على فرصة كافية لدخول مجال الانتباه. فالكتاب الذي لا يظهر لا يستطيع أن يدخل في عملية القراءة، والكتاب الذي يظهر مصحوبًا بملايين المشاهدات والتقييمات لا يدخل إلى القارئ بالشروط نفسها التي يدخل بها عمل مجهول لا تحيط به إشارات اجتماعية ظاهرة، كما أن المراجعة التي تصاغ في مقطع قصير شديد الجاذبية لا تؤدي وظيفة النقد بالطريقة نفسها التي يؤديها مقال مطول في مجلة أدبية. ومن هنا يصبح الانتقال من اقتصاد الكتاب إلى اقتصاد الانتباه حول الكتاب واحدًا من التحولات الأساسية في الثقافة القرائية الجديدة، لأن قيمة العمل ورؤيته وانتشاره أصبحت تتقاطع مع قدرة الخطاب المحيط به على المنافسة داخل منطق المنصة.

المبحث الأول: الانتباه بوصفه موردًا اقتصاديًا

ـ المنافسة على زمن القارئ

تتأسس فكرة اقتصاد الانتباه على مفارقة أصبحت أكثر وضوحًا كلما اتسعت وفرة المعلومات؛ فحين يصبح الوصول إلى النصوص والصور والفيديوهات والكتب أسهل من أي مرحلة تاريخية سابقة، لا تختفي الندرة وإنما تنتقل من جانب العرض إلى جانب الاستقبال، لأن الإنسان يظل محكومًا بعدد محدود من الساعات وبطاقة محدودة على التركيز، ومن ثم يصبح الانتباه المورد النادر الذي تتنافس عليه المواد الوفيرة. وقد صاغ توماس دافنبورت وجون بيك هذه المسألة بصورة مؤثرة في كتابهما

The Attention Economy، حيث جعلا من الانتباه موردًا تنظيميًا واقتصاديًا حاسمًا داخل عالم تفيض فيه المعلومات إلى درجة تصبح فيها المشكلة الأساسية هي القدرة على الحصول على انتباه المتلقي والاحتفاظ به [1]. وتؤكد البيانات البيليوغرافية للكتاب صدوره سنة 2001 عن Harvard Business School Press، مع بناء أطروحته حول ندرة الانتباه في بيئة فائض المعلومات

وقد وسع تيم وو هذا المنظور تاريخيًا في *The Attention Merchants*، فربط صناعة الإعلام والإعلان بتاريخ طويل من تحويل الانتباه البشري إلى مورد يمكن جذبه ثم إعادة بيعه للمعلنين، وهو ما يسمح بفهم المنصات الرقمية لا بوصفها قطيعة كاملة مع وسائل الإعلام السابقة، بل بوصفها مرحلة متقدمة في تاريخ المؤسسات التي تبني نموذجها الاقتصادي على التقاط وقت المستخدم وعودته المستمرة [2]. وتوضح مادة الناشر أن كتاب وو يتتبع تاريخ المساعي التجارية إلى «التقاط» الانتباه وتحويله إلى سلعة داخل صناعات الإعلام والإعلان .

وحين ننتقل بهذه الفكرة إلى القراءة، يظهر أن الكتاب لا ينافس الكتب الأخرى فقط، بل ينافس كل ما يمكن أن يحتل الدقيقة نفسها من زمن

المستخدم؛ فالرواية الطويلة لا تدخل في منافسة مع رواية أخرى فحسب، وإنما مع الرسالة والإشعار والفيديو القصير والبودكاست والمباراة والمنشور والأخبار ومحتوى الترفيه، وهو ما يغير شروط العلاقة بين النص والزمن. وقد كان الكتاب المطبوع يستطيع أن يطلب من القارئ ساعة من التركيز داخل فضاء أقل قدرة على مقاطعته من الداخل، أما القارئ الذي يقرأ على جهاز متصل فإنه يحمل معه إلى الصفحة نفسها منظومة كاملة من المنافسين المحتملين، بحيث يصبح استمرار القراءة قرارًا يتكرر ضمنيًا كلما ظهر بديل أسرع أو أكثر إثارة.

ولا يعني ذلك أن المنصة «تمنع» القراءة الطويلة، كما لا يعني أن كل استعمال رقمي قائم بالضرورة على التشتيت، لأن القارئ يستطيع تصميم بيئته وحماية انتباهه، لكن التحول يكمن في أن تكلفة الانسحاب من النص انخفضت بشدة؛ ففي الكتاب الورقي يحتاج القارئ إلى ترك الصفحة والقيام بفعل آخر، بينما تكفي لمسة واحدة في الجهاز للانتقال إلى مادة مختلفة تمامًا، وهو ما يجعل الاقتصاد القرائي الجديد اقتصادًا للمنافسة المستمرة على قرار البقاء. ومن هنا يمكن أن نقترح مفهوم »اقتصاد الانتباه القرائي «للدلالة على المجال الذي تتنافس فيه الكتب والخطابات المحيطة بها على الوقت المحدود الذي يستطيع القارئ تخصيصه للقراءة، ضمن بيئة تكون فيها إمكانات الانتقال والبدائل المتاحة جزءًا من بنية الوسيط نفسه.

ولا تكون آثار هذا الاقتصاد متساوية بين النصوص، لأن بعض الأعمال يستطيع التكيف بسهولة مع منطق الجاذبية الفورية، بينما تعتمد أعمال أخرى على التراكم والبناء البطيء ولا تكشف قيمتها في أول ثوان أو صفحات، وهو ما قد يخلق لا مساواة بين قابلية العمل للعرض وقيمته عند القراءة العميقة .فالرواية التي يمكن اختزالها في حبكة مثيرة أو انفعال قوي أو عبارة قابلة للاقتباس قد تكون أسهل في التسويق داخل المحتوى القصير من عمل يقوم على تعقيد الأسلوب أو البطء أو الغموض، لكن هذا

الفرق لا يبرهن على تفوق أحد العملين أدبيًا؛ إنه يبرهن فقط على اختلاف قدرتهما على التوافق مع اقتصاد المنصة.

ومن هنا يظهر توتر سيلازم الفصل كله بين القيمة الأدبية وقيمة الانتباه، إذ تستطيع الثانية أن تكون مدخلًا إلى الأولى لكنها ليست مرادفة لها. فقد يجتذب عمل ملايين القراء ثم يكتشف بعضهم داخله قيمة حقيقية، كما يستطيع عمل مهم ألا ينجح في اقتصاد الانتباه أصلًا، ولذلك فإن النقد لا ينبغي أن يرفض الشعبية لمجرد أنها شعبية، ولا أن يحولها في المقابل إلى دليل كافٍ على القيمة؛ فالمشكلة ليست في الرواج ذاته، بل في اللحظة التي تصبح فيها القدرة على اجتذاب الانتباه معيارًا يطغى على جميع المعايير الأخرى.

- *تصميم المنصات للاحتفاظ بالمستخدم*

لا تعمل المنافسة على الانتباه من خلال المحتوى وحده، لأن تصميم الواجهة وآليات التفاعل يستطيعان المشاركة في تشكيل السلوك، وقد أسس ب. ج. فوغ مبكرًا مجال «التكنولوجيا الإقناعية» لدراسة الكيفية التي يمكن من خلالها للحواسيب والمواقع والتطبيقات أن تؤثر في اتجاهات المستخدمين وسلوكهم، معتبرًا أن النظام الحاسوبي قد يعمل في بعض الحالات طرفًا مباشرًا في الإقناع لا مجرد قناة محايدة بين البشر [3]. وقد صدر كتابه *Persuasive Technology: Using Computers to Change What We Think and Do* سنة 2003، متناولًا تصميم التقنيات التفاعلية القادرة على التأثير في السلوك ومناقشًا في الوقت نفسه إشكالاتها الأخلاقية .

وتكتسب هذه الرؤية أهميتها داخل ثقافة المنصات لأن التصميم يمكن أن يقلل مقدار الجهد المطلوب للاستمرار؛ فالتمرير المتصل، والتشغيل المتتابع، والإشعارات، والاقتراحات التالية، وأزرار التفاعل، كلها تجعل الانتقال من مادة إلى أخرى أكثر سلاسة، وهو ما يحول البقاء في المنصة إلى سلسلة من القرارات الصغيرة منخفضة التكلفة. ولا يعني وجود هذه الخصائص أن غرض كل منصة أو كل تصميم واحد، كما لا ينبغي اختزال سلوك المستخدم

في التصميم وحده، لكن من الخطأ كذلك التعامل مع الواجهة كما لو أنها مجرد نافذة لا تحمل تصورًا عن السلوك المرغوب.

وقد بيّن فان ديك وبول ودي وال أن المنصات تقوم على آليات مترابطة من التبيين بالبيانات والسلعنة والاختيار، وأنها تعيد تنظيم التفاعلات الاجتماعية والثقافية داخل بنية لا تنفصل فيها الوظيفة التقنية عن النموذج الاقتصادي [4]. ومن هذا المنظور يصبح الاحتفاظ بالمستخدم ذا قيمة لأنه ينتج تفاعلًا إضافيًا وبيانات إضافية وفرصًا إضافية للعرض، وهي دائرة تجعل الانتباه ليس مجرد شرط لاستهلاك المحتوى، بل مادة تدخل في تشغيل اقتصاد المنصة ذاته .

ويؤثر هذا المنطق في الثقافة الأدبية بصورة غير مباشرة، لأن الكتاب حين يدخل إلى المنصة لا يبقى كيانًا مستقلًا، بل يتحول إلى موضوع لسلسلة من المحتويات القابلة للتفاعل: صورة غلاف، ومقطع فيديو، واقتباس، ورد فعل، ومراجعة، وقائمة، وصوت شائع، وتعليق، وقد يصبح تفاعل الجمهور مع هذه العناصر أكثر قابلية للقياس من فعل القراءة الصامت نفسه. وهنا تظهر مفارقة مركزية :**المنصة تستطيع قياس الخطاب حول القراءة بدرجة أكبر بكثير من قدرتها على قياس القراءة الداخلية ذاتها**، ولذلك قد يتحول ما يمكن قياسه إلى ما يحصل على الحضور الأكبر في تصورنا عن الثقافة القرائية.

ويؤدي ذلك إلى نشوء ما يمكن تسميته »**التنافس بين زمن النص وزمن المنصة**«: فالنص الطويل يطلب الاستمرار داخله، بينما المنصة تكافئ الحركة بين مواد كثيرة، وليس المطلوب أن نعلن انتصار أحد الزمنين على الآخر، لأن القراء يستطيعون الانتقال بينهما، بل أن ندرك أن القارئ الهجين مطالب بتعلم إدارة هذا التوتر. فالحصول على توصية في عشر ثوان قد يقود إلى قراءة رواية تستغرق عشرة أيام، وبذلك تستطيع السرعة أن تكون بوابة إلى البطء، لكن المشكلة تبدأ عندما يصبح منطق البوابة هو المعيار الذي نحاكم به التجربة كلها.

ـ المبحث الثاني: المقاييس الرقمية

ـ الإعجاب والمشاهدة والمشاركة

دخلت المقاييس الرقمية إلى الثقافة اليومية بطريقة جعلت أرقامًا مثل المشاهدات والإعجابات والمشاركات والمتابعين تبدو عناصر طبيعية في تجربة المحتوى، مع أنها تمثل تحولًا مهمًا في تاريخ الحكم الاجتماعي، لأن استجابة الجمهور التي كانت موزعة ومبعثرة أصبحت قابلة للرؤية والتلخيص في رقم ظاهر. وقد حلل ديفيد بير هذا التحول من خلال مفهوم »قوة المقاييس«، موضحًا أن القياس لا يصف العالم الاجتماعي فقط، بل يمكن أن يشارك في ترتيبه وتشكيل إمكاناته، لأن الأرقام تتحول إلى أدوات للمقارنة والتقييم واتخاذ القرار [5]. ويقدم كتابه *Metric Power* الصادر سنة 2016 تحليلًا للدور المتزايد للمقاييس في تنظيم الحياة والعمل والاستهلاك والثقافة(.

ويظهر أثر هذا التحول بوضوح في الكتاب داخل المنصة، لأن القارئ قد لا يواجه توصية مجردة، بل توصية مصحوبة بمئات الآلاف من الإعجابات أو ملايين المشاهدات أو آلاف التقييمات، وهي إشارات تستطيع أن تؤدي وظيفة «الدليل الاجتماعي» قبل أن يختبر المستخدم العمل بنفسه. ولا يعني ذلك أن الأرقام تجبره على الإعجاب، لكنها تقدم له معلومة عن اهتمام الآخرين، وهذه المعلومة تدخل إلى الحكم الأولي كما يدخل اسم الجائزة أو موقع الكتاب في قائمة المبيعات.

وقد قدم ماثيو سالغانيك وبيتر دودز ودنكان واتس تجربة كلاسيكية على «سوق ثقافي اصطناعي» أظهرت أن اطلاع المشاركين على اختيارات الآخرين زاد عدم المساواة وعدم قابلية التنبؤ في نجاح الأغاني، وأن النجاح لم يكن مجرد انعكاس مباشر للجودة المستقلة عن التأثير الاجتماعي [6]. وينبغي استعمال هذه النتيجة بحذر عند نقلها إلى الكتب والمنصات، لأنها أجريت على موسيقى ضمن بيئة تجريبية محددة، لكنها تقدم دليلًا قويًا

على المبدأ العام القائل إن المعلومة عن شعبية المنتج الثقافي تستطيع أن تؤثر في شعبيته اللاحقة .

ومن هنا تظهر الدائرة التي تجعل المقاييس ليست مرآة فقط، لأن العدد المرتفع قد يجذب انتباهًا جديدًا، والانتباه الجديد ينتج تفاعلات إضافية، فتزداد الأرقام ويزداد معها احتمال مزيد من الظهور، وخصوصًا إذا كانت أنظمة المنصة تستخدم التفاعل ضمن إشارات ترتيب المحتوى. ولا ينبغي افتراض أن هذه الدورة تعمل بالصيغة نفسها في جميع المنصات أو أن عدد الإعجابات يدخل مباشرة في كل خوارزمية، لكن وجود تغذية راجعة بين الرؤية والتفاعل والرؤية الجديدة يمثل احتمالًا بنيويًا في الاقتصاد المنصاتي.

ويترتب على ذلك أن القارئ يواجه، قبل قراءة العمل، طبقة من «المعرفة الاجتماعية» حوله؛ فهو يعرف أن الآخرين شاهدوا المقطع أو أعجبوا بالمراجعة أو قيموا الكتاب، وقد يتحول هذا إلى فضول مشروع أو إلى انحياز مسبق بحسب طريقة الاستخدام. ومن هنا يصبح جزء من كفاية القارئ الهجين هو القدرة على التعامل مع الرقم بوصفه معلومة عن السلوك الجماعي لا حكمًا جماليًا نهائيًا.

- *الأرقام بوصفها مؤشرات للقيمة*

تبدأ المشكلة حين تنتقل المقاييس من وصف الانتشار إلى تمثيل القيمة، لأن الفرق بين «هذا المحتوى شوهد كثيرًا» و«هذا المحتوى جيد» قد يختفي بسهولة داخل واجهة توحد بين الحضور والنجاح. ويصبح عدد الإعجابات أو التقييم المرتفع أو حجم المتابعة شكلًا من رأس المال المرئي يستطيع أن يمنح صاحبه أو الكتاب قوة أكبر في فضاء التوصية، لكن هذا الرأس المال لا ينبغي أن يُخلط تلقائيًا بالقيمة النقدية أو الأدبية.

وتساعدنا سوسيولوجيا الذوق عند بورديو على وضع هذا التحول في سياق أوسع، لأن الحكم الجمالي لم يكن يومًا منفصلًا عن مؤسسات الاعتراف ورأس

المال الثقافي والمواقع الاجتماعية، غير أن المنصة تعيد ترجمة بعض هذه العلاقات إلى مؤشرات عددية مرئية فورًا [7]. فإذا كانت المؤسسة النقدية التقليدية تمنح الاعتراف عبر المقال والجائزة والمنهج والخبرة، فإن البيئة الرقمية تضيف إلى ذلك اعترافًا قابلًا للحساب: عدد متابعين، ومتوسط تقييم، ومقدار تداول، وسرعة انتشار. وتثبت بيانات *Distinction* الصادر بالإنجليزية سنة 1984 عن Harvard University Press أن مشروع بورديو الأساسي انصب على الشروط الاجتماعية التي تتشكل فيها الأذواق والأحكام الثقافية .

ولا يعني هذا أن المقاييس أقل «حقيقة» من النقد التقليدي، لأن الناقد نفسه ينتمي إلى مؤسسة وشبكة من المصالح والمعايير، لكن الفرق أن الرقم يميل إلى تقديم نفسه في هيئة موضوعية شديدة الاختزال، فيوحي بأن المقارنة أصبحت سهلة؛ فكتاب حصل على 4.6 يبدو أفضل من كتاب حصل على 3.8، مع أن الرقم يخفي اختلاف عدد المقيمين وأسباب تقييمهم وتوقعاتهم وأنواع قراءتهم وسياقاتهم. ومن هنا يمكن تسمية هذا التحول »المؤشرية الرقمية للقيمة«، أي ميل الثقافة المنصاتية إلى استخدام مؤشرات كمية بوصفها علامات سريعة تساعد المستخدم على اتخاذ القرار في بيئة فائضة بالخيارات.

وتؤدي المؤشرات وظيفة مفيدة بالفعل، لأن القارئ لا يستطيع قراءة آلاف المراجعات قبل أن يختار كل كتاب، لكن الخطر يظهر عندما تتحول أداة الاختصار إلى معيار يطغى على غيره، بحيث يصبح العمل المنخفض التفاعل أقل قابلية للاكتشاف بغض النظر عن قيمته المحتملة. وعند هذه النقطة لا يعود الرقم مجرد نتيجة للرواج، بل يمكن أن يصبح جزءًا من آلية إعادة إنتاج الرواج، لأن النجاح السابق يمنح فرصة أكبر للنجاح اللاحق.

ومن هنا يحتاج القارئ الهجين إلى نوع من «المسافة العددية»، لا بمعنى تجاهل الأرقام، بل القدرة على قراءتها في سياقها، والتفريق بين الشعبية والجودة، وبين التفاعل والعمق، وبين ما يستحق الاكتشاف بسبب انتشار واسع

وما يستحق الاكتشاف رغم غياب ذلك الانتشار. وهذه المسافة هي إحدى المقدمات الضرورية للانتقال من قارئ يخضع للمقاييس إلى قارئ قادر على استخدامها دون أن يجعلها بديلاً عن حكمه.

ـ المبحث الثالث: من الناقد إلى المؤثر

ـ تحول سلطة التوصية الثقافية

لم تكن سلطة توصية الكتب يومًا حكرًا مطلقًا على الناقد الأدبي؛ فقد شارك فيها المكتبي والمدرس والصديق والناشر والجائزة ونادي القراءة، غير أن الثقافة المطبوعة منحت الناقد المهني والمؤسسة الصحفية والثقافية موقعًا شديد الحضور في صناعة الشرعية، لأن المراجعة المنشورة في صحيفة أو مجلة معروفة كانت تمر عبر نظام مؤسسي يربط التوصية بالخبرة والاسم والسمعة والتحرير. أما البيئة الرقمية فقد وسعت دائرة الوسطاء وسمحت للقارئ نفسه بأن يتحول إلى منتج للخطاب حول الكتب، ومع انتشار شبكات التواصل ظهرت فئة من صانعي المحتوى تملك سلطة توصية لا تستند بالضرورة إلى الموقع الأكاديمي أو الصحفي، بل إلى الثقة والعلاقة المستمرة مع الجمهور والقدرة على صياغة خطاب ينسجم مع منطق المنصة.

ولا ينبغي فهم هذا التحول بوصفه استبدالًا نهائيًا للناقد بالمؤثر، لأن النقد المهني والجوائز والصحافة والمكتبات ما تزال تؤدي أدوارًا مهمة، لكن خريطة الوساطة الثقافية أصبحت أكثر تعددًا .وقد درست دانييل فولر ودينيل ريهبرغ سيدو ثقافة توصية الكتب المعاصرة من خلال بحوث شملت القراء ومؤثري وسائل التواصل وشبابًا من الجيل الجديد، وخلصتا إلى إبراز أفعال الاختيار والاتصال والاستجابة بوصفها عناصر أساسية في تجربة القارئ متعدد الوسائط، مع التأكيد على حضور «ثقافة التوصية» واعتماد القراء على أشخاص يثقون بهم [8]. وتثبت بيانات Cambridge University Press أن الدراسة استندت إلى ثلاثة أعوام من البحث بين 2019 و2021، تضمنت مسحًا ومقابلات مع مؤثرين ودراسة نوعية لقراء شباب .

ويغير المؤثر طبيعة السلطة لأنه يمزج الخبرة الثقافية بالشخصية الخاصة والحميمية المتصورة والروتين اليومي، فقد لا يقول للجمهور «هذا العمل مهم وفق معيار جمالي محدد» بقدر ما يقول «هذا الكتاب أثّر فيّ» أو «لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه»، وتتحول التجربة الذاتية نفسها إلى أداة

للتوصية. ولا ينبغي التقليل من قيمة هذا الخطاب لأنه عاطفي أو شخصي، فالتاريخ الأدبي نفسه قام على قراءات شخصية وجماعات تذوق، لكن المهم هو إدراك أن معيار السلطة تغيّر جزئيًا من المعرفة المؤسسية إلى المصداقية العلائقية والقدرة على جذب الانتباه.

ومن هنا لا يكون الانتقال «من الناقد إلى المؤثر» انتقالًا من المعرفة إلى الجهل كما قد توحي بعض التصورات النخبوية، بل انتقالًا من شكل واحد للوساطة إلى أشكال متعددة لها معايير مختلفة في بناء الثقة. فقد يكون بعض المؤثرين شديدي المعرفة بالأدب، وبعض النقاد بعيدين عن جمهور واسع، كما يستطيع القارئ الجمع بين توصية أكاديمية ومحتوى شبكي ورأي صديق، ولذلك فإن الإشكالية ليست في وجود المؤثر بل في فهم نوع السلطة التي يمارسها والاقتصاد الذي يجعل صوته أكثر ظهورًا من غيره.

- المؤثرون وصناعة قوائم القراءة

تتضح سلطة المؤثر بصورة أكبر عندما ينتقل من مراجعة كتاب منفرد إلى بناء قوائم متكررة من المقترحات، لأن القائمة لا تنقل حكمًا على عمل فقط، بل ترسم مجالًا لما يستحق أن يدخل في انتباه الجمهور. وقد تحول صانعو المحتوى المتخصصون في الكتب إلى وسطاء يستطيعون الجمع بين القراءة والتقديم المرئي والعاطفة والتسويق، وهو ما جعلهم جزءًا من دورة النشر نفسها، لا مجرد قراء يتحدثون بعد انتهاء العملية.

وقد بينت المراجعة السردية التي قدمها يروين ديرا لأبحاث BookTok أن الأدبيات الأكاديمية الناشئة حول الظاهرة تركز على ثلاثة محاور أساسية BookTok :بوصفه شكلًا من مراجعة الكتب، وبوصفه أداة لبناء مجتمع قرائي، وبوصفه عاملًا في تشجيع القراءة، وهو ما يوضح أن هذه الظاهرة تقع في التقاطع بين النقد الاجتماعي والترويج والمجتمع والتلقي [9]. وقد نشرت الدراسة في *Literature Compass*، المجلد 21، سنة 2024، بعد مراجعة الدراسات المحكمة التي عالجت الظاهرة منذ 2020 .

كما توضح دراسة غيتا بالينغ وماريان مارتنز عن BookTok وصناعة النشر أن الظاهرة لم تبق داخل المجال الرمزي للتفاعل بين القراء، بل أصبحت ذات آثار في ممارسات الناشرين وبائعي الكتب، وأن بعض العناوين القديمة عادت إلى قوائم الأكثر مبيعًا بفعل تداولها على المنصة، كما أصبحت أقسام «شوهد على BookTok» جزءًا من البيئة المادية لمتاجر الكتب [10]. وقد نشرت الدراسة أولًا إلكترونيًا في نوفمبر 2024 ثم ظهرت في *Convergence*، المجلد 32، العدد 4، في أغسطس 2026، الصفحات 1258–1278 .

وهنا تتقاطع سلطتان كانتا منفصلتين نسبيًا: سلطة القارئ الذي يوصي وسلطة المنصة التي تقرر مدى انتشار توصيته، فلا يكفي أن ينتج المؤثر مراجعة، بل يجب أن تدخل في دائرة من الرؤية والتفاعل تجعلها قابلة للوصول إلى جمهور أوسع. ومن هنا لا يمكن تحليل «قائمة المؤثر» بوصفها اختيارًا فرديًا فقط، لأنها تتشكل كذلك داخل معرفة عملية بما يصلح للعرض، وما يجذب المتابعين، وما يتوافق مع الزمن القصير والصورة والصوت واتجاهات المنصة.

ويتولد من ذلك شكل جديد من الوساطة الثقافية الهجينة يجمع الإنسان والخوارزمية، لأن المؤثر يختار ويتحدث ويعرض تجربته، بينما تحدد المنصة بدرجات متفاوتة اتساع التوزيع، ثم تنتج ردود فعل الجمهور إشارات جديدة تعيد ترتيب الظهور. ومن ثم فإن الناقد التقليدي كان وسيطًا بشريًا ضمن مؤسسة، أما المؤثر داخل المنصة فهو وسيط بشري يعمل داخل وسيط خوارزمي، وهذه الثنائية تجعل سلطة التوصية أكثر تعقيدًا لأنها تجمع الخبرة والعاطفة والتفاعل والمقاييس والترتيب.

ـ المبحث الرابع: ثقافة الكتاب في المنصات الاجتماعية

ـ الفيديو القصير والترويج للكتب

يمثل الفيديو القصير أحد أبرز الأشكال التي كشفت قدرة المنصة على إعادة صياغة الخطاب عن الكتاب، لأن مراجعة العمل التي كانت تحتاج في الصحافة إلى مئات أو آلاف الكلمات يمكن أن تتحول إلى عشرات الثواني من الصورة والصوت والنص المكتوب على الشاشة والانفعال الجسدي، ولا يعني هذا أن المحتوى القصير بديل مكافئ للمراجعة النقدية، بل إنه جنس وسائطي مختلف يعمل وفق اقتصاد آخر في التعبير. فبدل بناء حجة مطولة حول بنية العمل، قد يركز الفيديو على انفعال واحد أو حبكة أو اقتباس أو توقع أو «مزاج» القراءة، ويصبح الهدف الأول في كثير من الأحيان إقناع المستخدم بالتوقف عن التمرير قبل إقناعه بالكتاب.

وقد أظهرت دراسة ناتالي غينييز-كابريرا وكاثرين مانسيلا-أوباندو حول الـ BookTokersأن صانعي محتوى الكتب على TikTok يعملون بوصفهم مؤثرين متخصصين في إنتاج ومشاركة خطاب حول الكتب، وأن الدوافع المرتبطة بالمتعة والتأثير الاجتماعي وبناء المجتمع والشبكات كانت من العناصر البارزة في مقابلاتهم مع عينة من صانعي المحتوى في أمريكا اللاتينية [12]. وتؤكد بيانات مجلة *Comunicar* أن الدراسة المنشورة سنة 2022 اعتمدت مقابلات شبه منظمة مع ثلاثة عشرBookToker ، وربطت الظاهرة بتوليد مجتمعات وشبكات حول القراءة .

ويعني ذلك أن الفيديو القصير لا يقلل الكتاب بالضرورة إلى إعلان، لأن بعض المحتوى يمكن أن يقدم تحليلًا أو سياقًا أو يدفع إلى القراءة، لكنه يُخضع الخطاب الأدبي إلى منطق تكثيف شديد يفرض اختيار العنصر الأكثر قابلية للعرض. وقد يكون هذا العنصر الانفعال، أو مفاجأة الحبكة، أو جمالية الغلاف، أو شخصية محبوبة، أو مجموعة كتب تشترك في سمة سريعة الفهم، وهي استراتيجيات ليست سلبية في ذاتها، لكنها تؤثر في أنواع القيمة التي يمكن ترجمتها بسهولة إلى خطاب منصاتي.

ومن هنا يمكن التمييز بين القابلية الأدبية للقراءة والقابلية المنصاتية للتقديم؛ فبعض الكتب تكون معقدة ومثمرة عند القراءة لكنها عسيرة الاختزال في فيديو، بينما يمكن لأعمال أخرى أن تملك عناصر شديدة القابلية للتحويل إلى صور وانفعالات وعبارات قصيرة. وإذا أصبحت القدرة الثانية شديدة التأثير في الرواج، فإن سوق النشر نفسه قد يبدأ في الاستجابة، لا بمعنى أن الناشرين سيكتبون الكتب وفق خوارزمية واحدة، بل بأن الوعي بأنواع المحتوى القابلة للانتشار يدخل إلى حسابات الغلاف والتسويق والتقديم.

وقد بينت دراسة بالينغ ومارتنز أن الناشرين وبائعي الكتب أصبحوا يتفاعلون بصورة عملية مع BookTok وأن الظاهرة أسهمت في صعود تيارات مثل الـ romantasy وفي إعادة تشكيل بعض دوائر الإنتاج والتسويق والتوزيع [10]. ومن هنا يصبح الفيديو القصير ليس فقط وسيلة تتحدث عن الكتاب بعد نشره، بل عنصرًا يمكن أن يعيد التأثير في الدورة التي تنتج الكتب وتعرضها، أي إن الوساطة تتحول من نهاية المسار إلى جزء من شروط بدايته .

- القراءة بوصفها ممارسة استعراضية

كانت القراءة تاريخيًا قادرة على أن تكون ممارسة عامة أو خاصة، فقد قرئت الكتب في المجالس والصالونات والنوادي كما قرئت في العزلة، غير أن المنصات الاجتماعية قدمت شكلًا مختلفًا من الحضور يجعل صورة القراءة نفسها قابلة للإنتاج والتداول. فالقارئ لا ينشر فقط رأيه في الكتاب، بل قد ينشر رفوفه وطريقته في تنظيم مكتبته وفنجان القهوة المصاحب للقراءة والهوامش والملصقات والصور الذاتية مع الكتب، وبذلك يتحول الفعل من علاقة بالنص فقط إلى عنصر في تقديم الهوية أمام الآخرين.

وقد درست دراسة مايكل ديزواني وبرونوين ريدان وليوني روثرفورد وآيمي شونينز ممارسات الـ selfiesوالـ shelfies على Bookstagram و BookTok، مبينة كيف تتوسط المنشورات المرئية ثقافة القراءة لدى المراهقين

الأستراليين، وكيف ترتبط بعض أشكال المحتوى ببناء هوية القارئ والخبرة والحميمية حول الكتب [11]. وقد نشرت الدراسة في

Learning, Media and Technology سنة 2022، **المجلد** 47، **العدد** 3، **الصفحات** 355–372(

ولا ينبغي استعمال وصف «الاستعراضية» هنا بمعنى قدحي يفترض أن إظهار القراءة نقيض للقراءة الحقيقية، لأن عرض الكتب يمكن أن يكون وسيلة لبناء مجتمع، وتبادل التوصيات، والتعبير عن الانتماء، وتحويل القراءة من نشاط يشعر بعض الشباب بالعزلة إلى ممارسة اجتماعية ذات مكانة مرئية. غير أن التحليل النقدي يحتاج في الوقت نفسه إلى ملاحظة أن ما يمكن عرضه ليس مطابقًا لما يحدث داخل القراءة؛ فالصورة تستطيع إظهار الكتاب لكنها لا تستطيع إظهار صعوبة الفهم أو زمن التأمل أو التردد التأويلي، ولذلك يكون الوجه المرئي للقراءة أكثر قابلية للقياس من عمقها غير المرئي.

ومن هنا يمكن تعريف «القراءة الاستعراضية» إجرائيًا بأنها تلك الممارسة التي تصبح فيها آثار القراءة وتمثيلاتها جزءًا مقصودًا من الهوية العامة للقارئ، من دون أن يعني المفهوم الحكم على صدق التجربة أو زيفها. فقد يكون القارئ عميقًا ويعرض تجربته، وقد يعرض شخص كتابًا لم يقرأه كاملًا، ولا تستطيع الصورة وحدها الفصل بين الحالتين؛ والمهم نظريًا هو أن القراءة أصبحت قابلة للدخول في اقتصاد الظهور، وأن هذه القابلية قد تؤثر في طريقة اختيار الكتب وتصويرها والتحدث عنها.

ويظهر هنا تداخل القارئ الاجتماعي والقارئ الهجين الذي جرى تحليله في الفصول السابقة، لأن الشخص يقرأ النص ثم يعيد إنتاج قراءته في شكل محتوى، ويستقبل تفاعل الآخرين، ثم قد تؤثر هذه الاستجابة في اختياراته التالية. وهكذا تدخل الذات القارئة في حلقة من **القراءة ← التمثيل ← التفاعل ← الهوية ← القراءة التالية**، وتصبح الذائقة الشخصية جزءًا من أداء اجتماعي مرئي لا من تجربة داخلية منفردة.

ـ المبحث الخامس: الذائقة الخوارزمية

ـ صناعة التشابه

لا يستخدم هذا الكتاب مفهوم «الذائقة الخوارزمية» للإيحاء بأن الخوارزمية تمتلك ذوقًا بالمعنى الإنساني، كما لا يقصد أن أذواق القراء أصبحت نتائج حتمية للحساب، وإنما يقترحه بوصفه مفهومًا إجرائيًا يصف الذائقة التي تتشكل جزئيًا داخل حلقات متكررة من القياس والتشابه والتوصية والاستجابة .فالقارئ يدخل إلى المنصة بتاريخ ثقافي واجتماعي وذوقي سبق الخوارزمية، لكن النظام يحول جوانب من سلوكه إلى إشارات ويستخدمها لتقديم مواد متقاربة، ثم يستجيب المستخدم لهذه المواد فتنتج بيانات جديدة، وبذلك يصبح الذوق القديم أحد المدخلات التي تشارك في صناعة البيئة التي سيتطور داخلها الذوق الجديد.

ويظل بورديو ضروريًا هنا لتجنب تصور الذوق باعتباره خاصية فردية طبيعية، إذ يبين مشروعه أن الأذواق تتشكل داخل فضاءات اجتماعية وعلاقات من التعليم والطبقة ورأس المال الثقافي [7]؛ غير أن المنصة تضيف إلى هذه الشروط ما يمكن تسميته **الوساطة الحسابية للذوق**، بحيث تصبح بعض التفضيلات قابلة للتمثيل في أنماط وتوقعات. ولا تحل الخوارزمية محل المجتمع، بل تصبح مؤسسة إضافية تعمل داخل المجتمع وتعيد تنظيم بعض علاماته.

وقد درس هالينان وستريبهاس أنظمة التوصية من منظور «الثقافة الخوارزمية» ، موضحين أن عمليات التوصية لا تكتفي بالتعامل مع تفضيلات مستقلة وموجودة مسبقًا، بل تشارك في تحويل الثقافة والذوق إلى تصنيفات قابلة للمعالجة الحسابية [13]. وهذه النقطة تسمح بالانتقال من سؤال «هل يعرف النظام ما أحبه؟» إلى سؤال أكثر أهمية :**ما تعريف التشابه الذي يستخدمه لكي يقرر أن هذا الكتاب يشبه ما أحب؟** فالتشابه ليس خاصية واحدة في العمل؛ قد يكون تشابهًا في النوع أو الجمهور أو السلوك الجماعي

أو الكلمات الوصفية أو أنماط الشراء، ولكل تعريف أثر مختلف في المجال الذي سيظهر أمام القارئ .

وتكمن قوة صناعة التشابه في أنها تقدم راحة معرفية حقيقية، لأن الإنسان يبحث غالبًا عن كتاب قريب من تجربة أحبها، ويمكن للتوصية أن تحقق ذلك بكفاءة، لكن الخطر يبدأ عندما يتحول التشابه من أحد طرق الاكتشاف إلى منطق مهيمن للاكتشاف .فإذا كانت كل رواية تقود إلى روايات تشبهها، وكل كاتب يقود إلى كتاب من البيئة نفسها، فقد يصبح مستقبل القراءة امتدادًا متزايدًا لماضيها، ويقل حضور الاختلاف الذي لا يستطيع النظام بسهولة تبريره انطلاقًا من البيانات السابقة.

ولا ينبغي اعتبار ذلك نتيجة لازمة لكل نظام توصية، لأن تصميمات التوصية تستطيع إدخال التنوع والجدة والمفاجأة، لكن هذا الاحتمال يجعل «التشابه» متغيرًا نقديًا ينبغي للقارئ والمنصة معًا الانتباه إليه. ومن هنا يصبح القارئ الميتا خوارزمي هو الذي لا يسأل فقط «هل أعجبتني التوصية؟» بل «هل تجعلني توصياتي أكثر تشابهًا مع نفسي؟.«

- إعادة إنتاج الرائج

يتقاطع التشابه مع المقاييس حين تدخل الشعبية نفسها في دورة الظهور، إذ تستطيع الأعمال الرائجة أن تستفيد من حضورها السابق في إنتاج حضور جديد ، فينشأ أثر تراكمي يمنح ما هو مرئي فرصة أكبر للاستمرار في الرؤية. وقد بينت تجربة سالغانيك ودودز وواتس أن التأثير الاجتماعي قادر على زيادة عدم المساواة في النجاح الثقافي، وأن معرفة اختيارات الآخرين تغير توزيع النتائج حتى حين تظل الجودة مؤثرة جزئيًا [6]. ومن هنا يمكن استخدام هذه النتيجة بوصفها تحذيرًا نظريًا من معادلة الرواج بالقيمة المستقلة، مع الاحتفاظ بالفارق بين السوق التجريبية التي درسوها وبين سوق الكتاب الفعلي .

وتصبح إعادة إنتاج الرائج أكثر تعقيدًا في المنصة لأن النظام قد يجمع بين أكثر من إشارة؛ فهناك الشعبية، والتشابه الشخصي، والتفاعل الحالي، وخصائص المحتوى، وعوامل أخرى تختلف باختلاف المنصة، ولذلك لا ينبغي اختزال الخوارزمية في «ما هو مشهور يأتي أولًا». ومع ذلك فإن نجاح بعض الأعمال في تكوين كتلة كبيرة من التفاعل يمنحها حضورًا ثقافيًا يستطيع أن ينتقل خارج المنصة نفسها، وهو ما ظهر في حالات BookTok التي دفعت عناوين قديمة إلى قوائم المبيعات وأثرت في عرض الكتب داخل المتاجر .[10]

وتكشف مراجعة ديرا للأدبيات أن BookTok أصبح ظاهرة تؤثر في إنتاج الأدب وتوزيعه واستقباله، مع بروز أنماط من الكتب والأنواع والتوصيات بصورة خاصة داخل المجال المنصاتي [9]. ولا يعني ذلك أن المنصة تنتج ذوقًا عالميًا واحدًا، لأن BookTok نفسه يتكون من جماعات فرعية ولغات واتجاهات مختلفة، بل إن ما نسميه «الرائج» متعدد ومتحرك، لكن المهم أن الخوارزمية تمنح بعض موجات الرواج قدرة على الانتقال بسرعة بين قراء لا يرتبطون بالمؤسسات النقدية التقليدية .

ومن هنا يمكن الحديث عن »دورة الرواج الخوارزمية :«يبدأ كتاب بتفاعل أولي، فتزداد قابلية ظهوره، ويجلب الظهور قراء جددًا ينتجون محتوى إضافيًا، فتزداد الإشارات الاجتماعية، وينتقل العمل إلى واجهات البيع والنشر والإعلام، وقد يعود نجاحه الخارجي ليولد محتوى منصاتيًا جديدًا. وفي هذه الدورة يصبح من الصعب تحديد «سبب واحد» للرواج، لأن الإنسان والخوارزمية والمؤثر والسوق والناشر والجمهور يدخلون جميعًا في عملية التغذية الراجعة.

لكن الخطر النظري يظهر حين تتحول هذه الدورة إلى معيارية ذوقية، أي حين يبدأ القارئ في الاعتقاد أن ما يتكرر أمامه هو ببساطة ما تستحق الثقافة أن تقرأه، فيختفي الفرق بين «العمل الذي يراه كثيرًا» و«مجمل الأعمال الممكنة». وهنا يصبح مفهوم الذائقة الخوارزمية مرتبطًا مباشرة بمفهوم «سلطة الإظهار والإخفاء» في الفصل السابق، لأن الذوق لا يتشكل

من الاختيارات التي نقوم بها فقط، بل كذلك من الخيارات التي مُنحت أصلًا فرصة الحضور أمامنا.

وتساعد أعمال تاينا بوخر في فهم هذه العلاقة من خلال تحليل القوة الخوارزمية لا باعتبارها سيطرة مباشرة أحادية، بل بوصفها شبكة من العلاقات والممارسات التي تجعل بعض الظواهر أكثر حضورًا وإحساسًا من غيرها [14]. ومن هنا فإن الذائقة الخوارزمية ليست «ذوق الآلة» بل الذوق البشري عندما يعيش داخل بيئة مرتبة خوارزميًا ويتفاعل معها باستمرار . وتؤكد Oxford University Press أن مشروع بوخر في *If...Then* يدرس القوة والسياسة الخوارزمية بوصفهما علاقات اجتماعية ـ تقنية تتشكل بحسب السياقات والفاعلين المختلفين .

ـ المبحث السادس: إمكانات المقاومة

ـ *القراءة خارج التوصيات*

لا تعني مقاومة اقتصاد الانتباه العودة إلى عالم سابق على المنصات ولا رفض التوصيات والقياسات، لأن هذه الأدوات تملك فوائد حقيقية في تنظيم الوفرة واكتشاف الأعمال وربط القراء، وإنما تعني الحفاظ على قدرة القارئ على خلق مسارات لا يحددها التخصيص وحده .ومن هنا تصبح القراءة خارج التوصيات ممارسة إيجابية لا سلبية؛ فهي ليست رفضًا لما يقترحه النظام بقدر ما هي إضافة مصادر أخرى إلى بنية الاختيار.

ويمكن أن تتحقق هذه الممارسة عبر العودة إلى الفهرس المفتوح، أو المكتبة المادية، أو الصحافة الثقافية المتخصصة، أو ببليوغرافيا موضوعية، أو توصية من قارئ لا يشترك معنا في الذوق نفسه، أو قائمة تاريخية، أو قراءة منهجية لمؤلف لم يظهر في ملفنا الشخصي، كما يمكن أن تتحقق داخل المنصة نفسها بطلب المختلف أو النادر أو غير المتوقع. ومن هنا يصبح القارئ الهجين قادرًا على الانتقال بين التخصيص المقيد بالذات والاكتشاف الموجه إلى الخارج.

ولا يعني ذلك أن الاختيار غير الخوارزمي خال من التحيز، لأن الناقد والمكتبي والصديق والفهرس جميعهم يملكون معاييرهم وحدودهم، لكن التعدد بين الوسطاء يقلل احتمال أن يحتكر نظام واحد مجال الظهور. ومن هنا تكون المقاومة في جوهرها تنويعًا لمصادر الوساطة، بحيث لا يصبح ترتيب واحد أو مؤثر واحد أو منصة واحدة هو الخريطة الكاملة للعالم الأدبي.

ويصبح هذا المبدأ أكثر أهمية بالنسبة إلى الباحث والقارئ المتخصص، لأن الاقتصار على المواد الأكثر قابلية للظهور قد ينتج معرفة غير متوازنة عن المجال، خصوصًا في اللغات والثقافات التي لا تتمتع بالحضور الرقمي نفسه.

ومن هنا يكون البحث خارج التوصية دفاعًا عن السيادة الثقافية للقارئ، أي حقه في بناء مدونته القرائية وفق سؤال معرفي لا وفق ملف سلوكي فقط.

وقد أظهرت دراسة فولر وريهبرغ سيدو أن القراء المعاصرين لا يعتمدون على مصدر واحد في اختيار الكتب، بل يتحركون داخل ثقافة توصية متعددة القنوات تجمع الإنترنت والعلاقات الاجتماعية والمؤثرين والوسائط القديمة والجديدة [8]، وهي نتيجة تتيح النظر إلى التعدد نفسه بوصفه موردًا للمقاومة؛ فكلما كان القارئ قادرًا على عبور أكثر من دائرة، قلت احتمالات أن تتحول دائرة واحدة إلى أفقه الكامل .

ـ استعادة التنوع والمصادفة

إذا كان التخصيص يقوم على القدرة على التنبؤ، فإن المصادفة تمثل المجال الذي يفشل فيه الماضي في تحديد المستقبل بالكامل، ولذلك لا ينبغي النظر إليها بوصفها عيبًا في نظام التوصية، بل يمكن اعتبارها قيمة معرفية وثقافية. وقد أدت أبحاث أنظمة التوصية إلى الانتقال تدريجيًا من التركيز على الدقة وحدها إلى مقاييس إضافية مثل التنوع والجدة والمصادفة والتغطية، وهو ما عرضه ماريوس كامينسكاس وديريك بريدج في دراستهما الشاملة لأهداف التوصية «ما وراء الدقة»، حيث أكدا أن جودة التوصية لا تختزل في مطابقة التفضيلات السابقة، بل يمكن أن تشمل تقديم عناصر متنوعة وجديدة وغير متوقعة [15]. وقد نشرت الدراسة في *ACM Transactions on Interactive Intelligent Systems*، **المجلد** 7، **العدد** 1، سنة 2016 .

ويقدم هذا الاتجاه التقني نقطة التقاء مثيرة مع النظرية الأدبية؛ فإذا كانت أنظمة التوصية نفسها تستطيع الاعتراف بأن التشابه ليس القيمة الوحيدة، فإن الدفاع عن التنوع لا يحتاج إلى رفض الخوارزمية بل يمكن أن يدخل في معايير تصميمها .ويمكن لنظام ثقافي أكثر مسؤولية أن يوازن بين «كتاب قريب من ذوقك» و«كتاب يختلف عنه لكنه قد يفتح مجالًا

جديدًا»، وبين الأكثر رواجًا والطرف الطويل من الإنتاج الذي لا يحصل على القدر نفسه من الانتباه.

أما من جهة القارئ، فإن استعادة المصادفة تحتاج إلى ما يمكن تسميته ممارسات الانحراف المقصود، كأن يقرأ من رف لا يعرفه، أو يختار كتابًا وفق معيار زمني أو جغرافي أو لغوي لا وفق التشابه، أو يدخل مكتبة من دون قائمة شراء نهائية، أو يقرر قراءة كاتب لم يظهر في دوائره الرقمية. وليست هذه الممارسات رومانسية مضادة للتقنية، بل وسائل لحماية عنصر أساسي في الثقافة هو القدرة على لقاء ما لم نعرف مسبقًا أننا نحتاج إليه.

ويتصل التنوع كذلك بالزمن، لأن الرائج يعمل غالبًا داخل دورات سريعة، بينما تحتاج بعض الأعمال إلى سنوات أو عقود حتى تجد جمهورها، ولذلك فإن مقاومة اقتصاد الانتباه تعني أيضًا إبطاء زمن الحكم .فالعمل الذي لم ينتشر في أسبوع ليس بالضرورة فاشلًا، والكتاب القديم الذي لا يملك موجة تفاعل حالية لم يفقد قيمته، ومن هنا يصبح التاريخ الأدبي نفسه أداة مقاومة في وجه حاضر يبالغ في مركزية «ما يحدث الآن.«

ويحتاج القارئ الهجين النقدي، بناءً على ذلك، إلى الجمع بين أربع حركات: الاستفادة من التوصية من دون الانحصار فيها، وقراءة الأرقام من دون تحويلها إلى قيمة مطلقة، والاستماع إلى المؤثر من دون إلغاء الناقد أو المكتبي أو الذات، والدخول في ثقافة المنصة مع الاحتفاظ بمساحات لا تخضع لإيقاعها. وعند هذه النقطة لا تعود المقاومة موقفًا دفاعيًا، بل تصبح قدرة على توسيع البيئة القرائية بحيث تستخدم الخوارزمية موردًا من موارد الاختيار بدل أن تتحول إلى حدوده.

من اقتصاد الانتباه إلى اقتصاد الذائقة

تكشف المباحث السابقة أن اقتصاد الانتباه وصناعة الذائقة ليسا عمليتين منفصلتين، لأن ما يحصل على الانتباه بصورة متكررة يملك فرصة أكبر للدخول إلى الذاكرة والتداول والتقييم، وما يدخل إلى التفاعل ينتج بيانات

يمكن أن تتحول إلى توصيات جديدة، ولذلك تتشكل حلقة تنتقل فيها القيمة من الرؤية إلى القياس ثم من القياس إلى مزيد من الرؤية. ويمكن تمثيل هذه الحلقة في الصيغة التالية :**ظهور** ← **انتباه** ← **تفاعل** ← **مقياس** ← **ترتيب** ← **ظهور إضافي**، وإذا دخل اختيار الكتاب في هذه الدورة تحولت إلى **ظهور كتاب** ← **اهتمام** ← **قراءة أو شراء أو مشاركة** ← **بيانات** ← **توصيات جديدة** ← **قراء جدد**.

ولا تعمل هذه الدورة وحدها على صناعة الذوق، لأن القارئ يحمل تاريخًا وطبقة ولغة وتعليمًا وذكريات وجماعات قراءة وتفضيلات واعية وغير واعية، لكن الخوارزمية تستطيع أن تصبح واحدة من المؤسسات التي تعمل على تنظيم هذا التاريخ وإعادة عرضه عليه. ومن هنا تكون «الذائقة الخوارزمية» مفهومًا للعلاقة لا للسبب الوحيد؛ إنها ليست ذوقًا تخلقه الآلة، بل ذائقة بشرية تدخل في سلسلة من التغذية الراجعة مع نظام يتعلم من آثارها ثم يعيد إليها نسخة مرتبة من نفسها.

ويظهر كذلك أن انتقال السلطة من الناقد إلى المؤثر ليس كاملاً ولا خطيًا، بل إن الفضاء المعاصر يقوم على **تراكب الوسطاء**؛ فالكتاب قد يفوز بجائزة، ثم يراجعه ناقد، ثم يتبناه مؤثر، ثم تلتقط المنصة موجة التفاعل، ثم تبني المكتبة أو دار النشر حملة جديدة حول نجاحه المنصاتي. ومن هنا تتغير دائرة الشرعية الأدبية من خط تسلسلي إلى شبكة تتبادل داخلها المؤسسات التقليدية والفاعلون الرقميون والخوارزميات التأثير.

وتؤكد حالة BookTok هذه الطبيعة الشبكية؛ فالمراجعة القصيرة قد تبدأ من قارئ فرد ثم تصل إلى جمهور واسع، وتنتج مبيعات، فتستجيب دار النشر بإعادة طباعة أو تغليف أو ترويج، وتستجيب المكتبة بواجهة مخصصة، ثم تعود هذه الاستجابات إلى المنصة بوصفها أدلة جديدة على الرواج [9][10]. ومن ثم فإن المنصة لا تقع «خارج» صناعة الكتاب، بل أصبحت في بعض الحالات جزءًا من الدورة التي تنتج فيها القيمة وتوزع وتعاد إلى الجمهور .

ومن هنا يمكن لهذا الكتاب أن يقترح تمييزًا بين الذائقة الخوارزمية التابعة والذائقة الخوارزمية النقدية؛ ففي الأولى يترك القارئ تاريخ سلوكه والتوصيات والمقاييس تحدد معظم مجال اختياره من دون مساءلة، بينما يستخدم الثانية هذه الأدوات لكنه يقارن بينها ويكسر التشابه ويبحث عن الغائب ويعرف أن الرائج ليس مرادفًا للمهم. ولا يشير هذا التقابل إلى شخصين مختلفين بالضرورة، لأن القارئ نفسه يمكن أن يكون تابعًا في موقف ونقديًا في موقف آخر، وإنما يصف درجة وعيه بالبيئة التي تتشكل فيها اختياراته.

خاتمة الفصل

أظهر هذا الفصل أن القراءة داخل المنصات لا يمكن فهمها بعيدًا عن اقتصاد الانتباه، لأن وفرة المحتوى جعلت الزمن والتركيز البشريين موردين تتنافس عليهما النصوص والمنشورات والإعلانات والفيديوهات والرسائل، وأصبح تصميم البيئة الرقمية قادرًا على تقليل تكلفة الانتقال بين المواد وجعل الاستمرار في التفاعل جزءًا من منطق المنصة [1][2][3][4]. ومن هنا لم تعد المسألة مقتصرة على قدرة القارئ على الوصول إلى الكتب، بل أصبحت مرتبطة بقدرة الكتاب والخطاب المحيط به على انتزاع مساحة من الانتباه داخل فضاء شديد التنافس.

وقد كشف تحليل المقاييس الرقمية أن الإعجابات والمشاهدات والمشاركات لا تعمل بوصفها أوصافًا محايدة للرواج، لأنها تستطيع أن تدخل في آليات التأثير الاجتماعي والتقييم والظهور، ولذلك لا يمكن مساواة الرقم بالقيمة الجمالية حتى عندما يكون مفيدًا في وصف انتشار العمل [5][6]. وتزداد أهمية هذا التمييز في الثقافة الأدبية لأن القيمة لا تتشكل في لحظة واحدة ولا تستطيع جميع خصائص العمل أن تتحول إلى مؤشرات كمية، ومن ثم يصبح القارئ الهجين محتاجًا إلى الاحتفاظ بمسافة نقدية تفصل الشعبية عن الشرعية النقدية وتفصل التفاعل عن العمق.

كما بين الفصل أن سلطة التوصية الثقافية لم تنتقل ببساطة من الناقد إلى المؤثر، بل أصبحت موزعة بين شبكة من النقاد والقراء والمؤثرين والمنصات والناشرين والمكتبات، وأن ثقافة التوصية المعاصرة تجعل القارئ نفسه منتجًا للخطاب الذي يستطيع أن يؤثر في قراءات الآخرين [8]. وقد قدمت ظاهرة BookTok مثالًا واضحًا على هذه النقلة، لأنها تجمع مراجعة الكتاب وبناء المجتمع وتشجيع القراءة والتسويق في فضاء واحد ، كما أصبحت ذات أثر موثق في طرق عرض الكتب وبعض ممارسات صناعة النشر
][12].11][10][9]

وأدى ذلك إلى ظهور صورة جديدة للقراءة بوصفها ممارسة مرئية، حيث تصبح الهوية القرائية والرفوف والتعليقات والانفعالات والمقاطع جزءًا من الطريقة التي يتشكل بها حضور الكتاب، وهو تحول لا ينبغي اختزاله في اتهام القراءة الرقمية بالسطحية، لأنه يستطيع أن يخلق مجتمعات وشغفًا حقيقيًا بالكتب، لكنه يحتاج إلى وعي بالفارق بين تمثيل القراءة وممارستها الداخلية، لأن ما يظهر على المنصة ليس كل ما يحدث داخل القارئ.

أما مفهوم «الذائقة الخوارزمية» فقد سمح بجمع هذه التحولات داخل صيغة واحدة تقوم على التغذية الراجعة بين الذوق والبيانات والتوصية؛ فالقارئ يحمل إلى المنصة تفضيلات تشكلت اجتماعيًا وثقافيًا، وتحول المنصة بعض آثارها إلى بيانات، ثم تقترح مواد مشابهة أو رائجة، فيستجيب القارئ وتنتج إشارات جديدة، وبذلك تصبح الخوارزمية طرفًا في البيئة التي يتطور داخلها الذوق من دون أن تكون صاحبة الذوق أو مصدره الوحيد [7][13][14]. ومن هنا تكون صناعة التشابه وإعادة إنتاج الرائج احتمالات ينبغي نقدها، لا قوانين محتومة لكل نظام توصية.

وقد انتهى الفصل إلى أن إمكان المقاومة لا يكمن في الانفصال الكامل عن هذه البيئة، بل في بناء قارئ قادر على تنويع وسائطه ومصادر توصيته، والخروج الدوري من الملف الشخصي، والبحث في المناطق الأقل ظهورًا، واستعادة المصادفة والتنوع بوصفهما قيمتين معرفيتين، وهي قيم بدأت أدبيات أنظمة التوصية نفسها تعترف بأهميتهما إلى جانب الدقة [15]. وعند هذه النقطة يصبح القارئ الهجين النقدي قادرًا على تحويل الخوارزمية من قدر ثقافي إلى أداة يمكن استخدامها ومساءلتها ومغادرتها.

ويمكن، بناء على ما سبق، صياغة النتيجة النظرية المركزية لهذا الفصل على النحو الآتي :**الذائقة الأدبية في البيئة المنصاتية لا تنتجها الخوارزمية وحدها ولا يصنعها القارئ في عزلة عنها، بل تتشكل داخل شبكة من التاريخ الثقافي والوساطة البشرية والمقاييس والتوصيات وتصميمات الانتباه؛ ولذلك فإن استقلال القارئ لا يتحقق برفض هذه**

الشبكة، وإنما بامتلاك القدرة على رؤية آلياتها وتوسيع مجال الاختيار خارج ما تتنبأ به عنه.

ويمهد هذا الاستنتاج مباشرة للفصل التاسع حول القارئ المنتج: من التلقي إلى المشاركة، لأن اقتصاد الانتباه لا يحول ما يقرأه الفرد فقط، بل يحول ما يفعله بعد القراءة، إذ يصبح التعليق والمراجعة والحاشية وإعادة كتابة النص ومشاركته جزءًا من الدورة التي تدخل مرة أخرى إلى المنصة وتؤثر في قراء آخرين. فإذا كان الفصل الحالي قد درس انتقال الذائقة من المجال الفردي إلى البيئة الخوارزمية، فإن الفصل المقبل سيدرس الانتقال المقابل من التلقي إلى الإنتاج، حيث يصبح القارئ نفسه مصدرًا للبيانات والخطابات والمعاني التي تعود إلى الشبكة.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Davenport, Thomas H. & Beck, John C.** *The Attention Economy: Understanding the New Currency of Business*. Boston: Harvard Business School Press, 2001.

مرجع تأسيسي في مفهوم اقتصاد الانتباه، ويُستفاد منه في هذا الفصل لفهم الانتقال من ندرة المعلومات إلى ندرة القدرة البشرية على التركيز داخل فضاء شديد الوفرة. وتثبت البيانات الببليوغرافية صدور الكتاب عن Harvard Business School Press سنة 2001 (Google Books) .

[2] **Wu, Tim.** *The Attention Merchants: The Epic Scramble to Get Inside Our Heads*. New York: Alfred A. Knopf, 2016.

يقدم تاريخًا للصناعات والمؤسسات التي بنت نماذجها على جذب الانتباه وإعادة تسويقه، ويُستفاد منه في وضع اقتصاد المنصات ضمن تاريخ أوسع من تسليع الانتباه(Penguin Random House) .

[3] **Fogg, B. J.** *Persuasive Technology: Using Computers to Change What We Think and Do*. San Francisco: Morgan Kaufmann, 2003.

مرجع كلاسيكي في دراسة الحواسيب والتقنيات بوصفها قادرة على التأثير في السلوك والاتجاهات، ويُستفاد منه في تحليل العلاقة بين تصميم الواجهة والاحتفاظ بالمستخدم(ScienceDirect) .

[4] **van Dijck, José; Poell, Thomas & de Waal, Martijn.** *The Platform Society: Public Values in a Connective World*. New York: Oxford University Press, 2018.

مرجع أساسي في تحليل آليات المنصات والتبيين بالبيانات والاختيار والسلعنة، ويفيد في فهم اقتصاد الانتباه بوصفه جزءًا من بنية منصاتية أوسع (OUP Academic) .

[5] **Beer, David.** *Metric Power*. London: Palgrave Macmillan, 2016.

يقدم مفهوم «قوة المقاييس» لتحليل أثر القياس والتصنيف والأرقام في ترتيب الحياة الاجتماعية، ويُستفاد منه في دراسة الإعجابات والمشاهدات والتقييمات بوصفها مؤشرات تستطيع أن تتجاوز الوصف إلى التأثير .
(Springer Nature)

[6] Salganik, Matthew J.; Dodds, Peter Sheridan & Watts, Duncan J. "Experimental Study of Inequality and Unpredictability in an Artificial Cultural Market." *Science*, Vol. 311, No. 5762, 2006, pp. 854–856. DOI: 10.1126/science.1121066.

دراسة تجريبية مؤثرة في أثر المعلومات الاجتماعية على نجاح المنتجات الثقافية، وقد أظهرت أن زيادة التأثير الاجتماعي رفعت عدم المساواة وعدم قابلية التنبؤ داخل السوق التجريبية(PubMed) .

[7] Bourdieu, Pierre. *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*. Translated by Richard Nice. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984.

يمثل مرجعًا تأسيسيًا في سوسيولوجيا الذوق والحكم الثقافي، ويُستفاد منه في هذا الفصل لتجنب اختزال الذائقة في تفضيل فردي مستقل عن البنى الاجتماعية ورأس المال الثقافي(Google Books) .

[8] Fuller, Danielle & Rehberg Sedo, DeNel. *Reading Bestsellers: Recommendation Culture and the Multimodal Reader*. Cambridge: Cambridge University Press, 2023. DOI: 10.1017/9781108891042.

دراسة مهمة في ثقافة توصية الكتب والقراءة متعددة الوسائط، استندت إلى مسح للقراء ومقابلات مع مؤثري وسائل التواصل ودراسة نوعية لقراء شباب، وتفيد في تحليل تحول سلطة التوصية واختيار الكتب داخل البيئة المعاصرة(Cambridge) .

[9] Dera, Jeroen. "BookTok: A Narrative Review of Current Literature and Directions for Future Research." *Literature Compass*, Vol. 21, Issues 10–12, 2024, e70012. DOI: 10.1111/lic3.70012.

مراجعة أكاديمية لأبحاث BookTok **تميز بين الظاهرة بوصفها شكلًا لمراجعة الكتب، ومجالًا لبناء الجماعات القرائية، وأداة لتشجيع القراءة، وتوفر أساسًا حديثًا لدراسة موقع** BookTok **في الإنتاج والتوزيع والتلقي** .
(Compass Hub)

[10] Balling, Gitte & Martens, Marianne. "BookTok Helped Us Sell It: How TikTok Disrupts Publishing and Fuels the #Romantasy Boom." *Convergence: The International Journal of Research into*

New Media Technologies, Vol. 32, No. 4, 2026, pp. 1258–1278. DOI: 10.1177/13548565241301271.
تبحث الدراسة، بالاعتماد على مقابلات مع ناشرين وبائعي كتب وتحليل محتوى وملاحظات ميدانية، أثر BookTok **في دورة إنتاج الكتب وتسويقها وتوزيعها، وقد نشرت إلكترونيًا أولًا في نوفمبر** 2024 **ثم ضمن عدد أغسطس** 2026 (Sage Journals) .

[11] Dezuanni, Michael; Reddan, Bronwyn; Rutherford, Leonie & Schoonens, Amy. "Selfies and Shelfies on #Bookstagram and #BookTok – Social Media and the Mediation of Australian Teen Reading." *Learning, Media and Technology*, Vol. 47, No. 3, 2022, pp. 355–372. DOI: 10.1080/17439884.2022.2068575.
تساعد الدراسة على تحليل التمثيلات البصرية للقراءة وبناء هوية القارئ داخل المنصات، وخصوصًا علاقة الصور الذاتية وصور الرفوف بالوساطة الثقافية للقراءة(Taylor & Francis Online) .

[12] Guiñez-Cabrera, Nataly & Mansilla-Obando, Katherine. "Booktokers: Generating and Sharing Book Content on TikTok." *Comunicar*, Vol. 30, No. 71, 2022, pp. 119–130. DOI: 10.3916/C71-2022-09.
دراسة نوعية لصانعي محتوى الكتب على TikTok **، تستند إلى مقابلات شبه منظمة وتبرز أبعاد المتعة والتأثير الاجتماعي وبناء المجتمع والشبكات في إنتاج المحتوى القرائي ومشاركته**(DOI) .

[13] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.
مرجع أساسي لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل تحويل التفضيلات والذوق إلى مواد قابلة للحوسبة والتوصية، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم «الذائقة الخوارزمية(Sage Journals) .»

[14] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم الكتاب تحليلًا للقوة الخوارزمية بوصفها علاقة اجتماعية ـ تقنية، ويفيد في تفسير أثر الترتيب والظهور والتخصيص من دون الوقوع في تصور حتمي يجعل الخوارزمية صاحبة سلطة مطلقة(OUP Academic) .

[15] Kaminskas, Marius & Bridge, Derek. “Diversity, Serendipity, Novelty, and Coverage: A Survey and Empirical Analysis of Beyond-Accuracy Objectives in Recommender Systems.” *ACM Transactions on Interactive Intelligent Systems*, Vol. 7, No. 1, 2016, Article 2. DOI: 10.1145/2926720.

مرجع مهم في الانتقال من تقييم أنظمة التوصية وفق الدقة فقط إلى الاهتمام بالتنوع والجدة والمصادفة والتغطية، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم المقاومة القرائية واستعادة الاكتشاف خارج التشابه (UCC Discover Research) .

خلاصة مرجعية للفصل

تتوزع المرجعيات التي بني عليها الفصل على خمسة محاور متداخلة؛ إذ يقدم دافنبورت وبيك وو وفوغ وفان ديك وبول ودي وال [1–4] الأساس لفهم الانتباه بوصفه موردًا نادرًا يدخل في نماذج اقتصادية وتصميمات تقنية تسعى إلى التأثير في سلوك المستخدم، بينما يسمح بير وسالغانيك وودوز وواتس [5–6] بتحليل تحول الأرقام والتفاعل الاجتماعي من أوصاف للرواج إلى عناصر تستطيع أن تشارك في إنتاجه. ويقدم بورديو [7] الخلفية السوسيولوجية الضرورية لفهم الذائقة بوصفها بناءً اجتماعيًا لا خاصية فردية خالصة، بينما توضح دراسات فولر وريهبرغ سيدو وديرا وبالينغ ومارتنز وديزواني وزملائه وغينييز-كابريرا ومانسيلا-أوباندو [8–12] التحولات الجارية في ثقافات توصية الكتب ودور المؤثرين و BookTokوالتمثيل البصري للقراءة. أما هالينان وستريبهاس وبوخر [13–14] فيتيحان نقل سؤال الذوق إلى البيئة الخوارزمية وفهم التخصيص والرؤية باعتبارهما جزءًا من علاقات القوة، في حين يقدم كامينسكاس وبريدج [15] أساسًا تقنيًا ونظريًا لفكرة أن التوصية الجيدة لا ينبغي أن تقاس بالتشابه والدقة وحدهما، بل بالتنوع والجدة والمصادفة أيضًا.

ومن تقاطع هذه المحاور يتأسس المفهوم الذي يقترحه هذا الفصل، وهو أن الذائقة الخوارزمية ليست ذوقًا تنتجه الآلة بدل الإنسان، وإنما ذائقة بشرية تتشكل داخل حلقة يتقاطع فيها تاريخ القارئ الثقافي مع المقاييس والتوصيات والمؤثرين وترتيب المنصة، بحيث يصبح الوعي بهذه الحلقة شرطًا جديدًا من شروط الحرية القرائية.

الفصل التاسع

القارئ المنتج: من التلقي إلى المشاركة

ينقل هذا الفصل مسار البحث من دراسة القارئ الذي تتدخل المنصة والخوارزمية في شروط وصوله إلى النص وفي تشكيل مجال انتباهه وذائقته، إلى دراسة قارئ لم يعد أثره ينتهي بانتهاء عملية التلقي، لأن البيئة الرقمية أتاحت له أن يحول قراءته إلى تعليق وهامش وتقييم ومراجعة واقتباس وصورة وفيديو ونص مشتق، ثم أن يعيد هذه المنتجات إلى الشبكة بحيث تصبح جزءًا من البيئة التي سيقرأ داخلها الآخرون، وهو تحول يجعل التلقي مرحلة في دورة ثقافية أوسع بدل أن يكون نقطة النهاية في مسار يبدأ بالمؤلف وينتهي بالقارئ. وإذا كانت نظريات التلقي قد أعادت الاعتبار إلى القارئ من خلال الكشف عن دوره في تحقيق إمكانات النص وبناء المعنى وملء فراغاته وربطه بأفق انتظار وجماعة تأويلية، فإن الثقافة الرقمية توسع هذا الدور عندما تمنح الاستجابة الفردية قابلية فورية للتسجيل والنشر والتداول وإعادة الاستخدام، فيصبح ما كان يحدث في ذهن القارئ أو في هامش كتابه الخاص قادرًا على التحول إلى نص مواز يدخل بدوره في تلقي العمل ويؤثر في صورته العامة.

ولا يعني مفهوم «القارئ المنتج» الذي يستخدمه هذا الفصل أن القراءة التقليدية كانت استقبالًا سلبيًا خالصًا، فقد أوضحت الفصول السابقة، اعتمادًا على إيزر وإيكو وفيش ونظريات التلقي، أن القارئ شارك دائمًا في بناء المعنى، كما أن تاريخ القراءة عرف التعليق والتلخيص والاقتباس وإعادة السرد والشرح قبل ظهور الإنترنت بزمن طويل، وإنما يكمن الجديد في أن البيئة الشبكية جعلت هذه الأفعال أكثر ظهورًا واتصالًا وتداولًا وقابلية للقياس والتجميع، حتى أصبح بإمكان تعليق فردي أن يدخل في نقاش جماعي، ومراجعة هاوية أن تصل إلى آلاف القراء، واقتباس مقتطع من رواية أن يتحول إلى صورة أو فيديو أو ميم يتداول بصورة أوسع من المقطع الأصلي. وقد بينت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن بيئات مثل Goodreads

و Wattpadوغيرها تجمع أنشطة لم تكن تجتمع سابقًا بسهولة في فضاء واحد، من مراجعة الكتب والتعليق داخل النص والنقاش والكتابة الإبداعية ومشاركة الخبرة القرائية، وهو ما يجعل الكتابة حول القراءة جزءًا بنيويًا من الثقافة الأدبية الرقمية [1 .[2][

ومن هنا تصبح العلاقة بين القراءة والإنتاج أكثر تعقيدًا من الثنائية التقليدية التي تفصل الكاتب عن القارئ؛ فالمؤلف ينتج النص الأول، لكن القراء ينتجون حوله طبقات من الخطاب والتفسير وإعادة الصياغة والتمثيل البصري والسرد المشتق، ويمكن لهذه الطبقات أن تعود فتؤثر في استقبال النص الأصلي وفي شهرته وفي الطريقة التي يدخل بها قراء جدد إليه. ويقترب هذا التحول من مفهوم «ثقافة المشاركة» عند هنري جنكينز، الذي أبرز انتقال الجمهور من موقع المستهلك الذي يكتفي باستقبال المنتجات الإعلامية إلى موقع فاعل يشارك في التداول وإعادة الكتابة وبناء المجتمعات، كما يقترب من مفهوم «الإنتاج ـ الاستخدام» عند أكسل برونز الذي وصف البيئات الرقمية التي تضعف فيها الحدود الصارمة بين المنتج والمستخدم، فيصبح الاستهلاك نفسه مدخلًا إلى أشكال من الإنتاج المستمر [4 .[5][

غير أن الانتقال من التلقي إلى المشاركة لا يعني إلغاء الفروق بين إنتاج العمل الأدبي الأصلي وإنتاج الخطاب القرائي حوله، لأن المؤلف الذي يكتب الرواية لا يؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها القارئ الذي يراجعها أو يقتبس منها أو يصنع فيديو حولها، كما لا يجوز أن يتحول اتساع المشاركة إلى ذريعة لمحو حقوق النص وحدوده أو الخلط بين التأويل والملكية. ولهذا سيستخدم هذا الفصل عبارة »القارئ بوصفه مؤلفًا ثانيًا «بمعنى تأويلي وإجرائي محدود، أي بوصفه منتجًا للمعنى وللنصوص الموازية والمشتقة التي تنشأ من فعل القراءة، لا بوصفه مؤلفًا ثانيًا للعمل الأصلي من الناحية القانونية أو التاريخية. ويصبح السؤال الذي يقود الفصل هو: ماذا يحدث لنظرية القارئ عندما لا يبقى التأويل داخل الذهن أو الهامش الخاص، بل

يتحول إلى مادة منشورة تشارك في تشكيل النص كما يراه المجتمع القرائي؟

ـ المبحث الأول: القراءة الاجتماعية

ـ المجتمعات الرقمية للقراء

لم تنشأ القراءة الاجتماعية مع المنصات الرقمية، لأن تاريخ الكتاب عرف المجالس والصالونات والنوادي والجماعات الدينية والجامعية وحلقات الدرس والمراسلات بين القراء، كما أن تداول الكتب كان دائمًا مصحوبًا بدرجات متفاوتة من الحوار حولها، غير أن البيئة الرقمية غيرت شروط هذا الاجتماع من حيث المدى والسرعة والاستمرارية وإمكان حفظ آثار التفاعل، بحيث أصبح القارئ قادرًا على الدخول إلى مجتمع أدبي لا يشترك أفراده في المكان نفسه ولا التوقيت نفسه ولا حتى اللغة نفسها أحيانًا، بينما تبقى تعليقاتهم وتقييماتهم ونقاشاتهم متاحة للعودة إليها بعد انتهاء لحظة الحوار. وقد اقترح سيموني ريبورا وبيتر بوت وفيديريكو بيانزولا وزملاؤهم مفهوم «القراءة الاجتماعية الرقمية» لوصف الخبرات القرائية المشتركة التي تستخدم الوسائط والتقنيات الرقمية في القراءة أو في تبادل الخبرات الناتجة عنها، وأظهروا أن هذه البيئات تشمل المراجعات والتعليقات داخل النص والنقاشات والكتابة السردية ومقاطع الفيديو وغيرها من الممارسات التي تجعل التفاعل الاجتماعي حول الأدب قابلًا للملاحظة والدراسة) .[1]

ويطور بيانزولا هذه الفكرة في *Digital Social Reading* من خلال التعامل مع القراءة الاجتماعية الرقمية لا بوصفها ملحقًا ترفيهيًا بالقراءة «الحقيقية»، بل بوصفها منظومة واسعة من الممارسات التي تستطيع أن تنمي الرغبة في القراءة وأن تغير السياق الذي تحدث داخله التجربة الأدبية، مستندًا إلى حالات من Wattpad و AO3و Goodreadsعلى نطاق دولي [2]. ويهم مشروع القارئ الهجين في هذه المقاربة أن القارئ الاجتماعي لا يتلقى النص وحده ثم يغادره إلى المجتمع بعد اكتمال فهمه، بل يستطيع أن يدخل إلى العمل محاطًا بآثار القراء الآخرين، وأن يتوقف أثناء القراءة لكي يشارك رأيًا، ثم يتلقى ردًا يعيده إلى المقطع نفسه بتأويل مختلف، وبذلك تصبح الجماعة جزءًا من الزمن الداخلي للقراءة لا مجرد فضاء خارجي لاحق عليها .

وتغير هذه المجتمعات مفهوم «الجماعة التأويلية» الذي ناقشه ستانلي فيش، لأن الجماعة التي كانت في النظرية تشير إلى الأطر الثقافية والمؤسساتية والاستراتيجيات المشتركة التي تجعل بعض التأويلات ممكنة ومفهومة، تصبح في البيئة الرقمية قابلة للرؤية المباشرة من خلال التعليقات والمراجعات والردود والسجالات [13]. ولا يعني ذلك أن المجتمع الرقمي يكشف «الجماعة التأويلية» كاملة، لأن المستخدمين غير المعلقين يظلون غير مرئيين، كما أن الخوارزمية قد ترفع بعض الآراء وتخفض غيرها، لكن البيئة الجديدة تجعل أثر الجماعة أكثر تجسدًا حول النص، فيستطيع الباحث أن يلاحظ كيف تتكرر بعض المفاهيم، وكيف تتحول قراءة فردية إلى اتجاه جماعي، وكيف تتشكل معايير ضمنية لما يعد تأويلًا مقبولًا أو مبالغًا فيه.

ومن هنا يمكن الحديث عن »**الجماعة التأويلية المتصلة** «بوصفها تطويرًا إجرائيًا لمفهوم الجماعة فيش، إذ لا يشير المصطلح إلى نظرية مستقلة قائمة في الأدبيات السابقة، وإنما إلى الحالة التي تصبح فيها استراتيجيات القراءة وآثارها متداولة داخل شبكة تستطيع حفظها وربط أصحابها وإعادة ترتيبها. وتختلف هذه الجماعة عن نادي الكتاب التقليدي في أن النصوص الناتجة عنها تبقى متاحة وتتحول إلى بيانات ومؤشرات، وقد يدخل القارئ الجديد إلى المجتمع بعد سنوات فيقرأ نقاشًا قديمًا كما لو كان جزءًا من الحاضر، وهو ما يجعل الذاكرة الجماعية للقراءة أكثر امتدادًا.

كما تغير المجتمعات الرقمية علاقة القارئ بالسلطة الثقافية، لأن الفرد لم يعد في حاجة إلى انتظار المؤسسة النقدية لكي يكتب رأيًا عامًا في كتاب، وهو ما يوسع المشاركة ويتيح أصواتًا لم تكن تجد بسهولة منفذًا إلى الصحافة أو الجامعة، لكنه ينتج في الوقت نفسه تفاوتات جديدة مرتبطة بالمتابعة والانتشار والخوارزمية. فإمكان الكلام متاح نظريًا لعدد كبير من المستخدمين، لكن القدرة على الوصول إلى جمهور واسع ليست موزعة بالتساوي، ولذلك لا ينبغي مساواة ديمقراطية النشر بديمقراطية الظهور. وقد يكون تعليق قارئ متخصص أكثر عمقًا من محتوى شديد

الرواج، بينما تمنح البنية المنصاتية الأخير حضورًا أكبر، وهو ما يعيد إنتاج السؤال الذي طرحه الفصل السابق حول اقتصاد الانتباه داخل المجال النقدي نفسه.

- القراءة المشتركة

تشير القراءة المشتركة إلى أن فعل التلقي يمكن أن يصبح مسارًا يتقاسمه عدد من الأفراد لا في النتيجة فقط، بل في زمن القراءة ذاته، كما يحدث في مجموعات القراءة المتزامنة، وال buddy reads، والتعليقات المرافقة للفصول، والقراءة التسلسلية داخل منصات النشر، حيث يتقدم القارئ في العمل وهو يرى ردود أفعال من وصلوا إلى النقطة نفسها أو من سبقوه إليها. ولا تلغي هذه الممارسة التجربة الفردية، لكنها تجعلها محاطة باستجابات تستطيع أن تغير ما يلتفت إليه القارئ وما يتوقعه من الفصول التالية.

وتتيح البيئة الرقمية شكلًا خاصًا من التزامن غير المتزامن، إذ يمكن لعشرات القراء أن يعيشوا تجربة مشتركة رغم دخولهم إلى النص في أوقات مختلفة، لأن التعليقات تبقى مرتبطة بمواضع محددة أو فصول معينة، بحيث يواجه القارئ آثار الاستجابة كما لو أن الجماعة ما تزال حاضرة معه. وهذا التحول مهم نظريًا، لأن النص لم يعد يربط القراء بعضهم ببعض فقط من خلال امتلاكهم نسخة منه، بل أصبحت البنية الرقمية قادرة على ربط الاستجابة بموقعها داخل العمل، فيتحول المقطع إلى مركز محادثة.

وقد لفتت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية إلى أن التفاعل الاجتماعي حول الكتب يمكن أن يدعم الانخراط والاهتمام بالقراءة، مع ضرورة تجنب التعميم بأن المشاركة الاجتماعية تحسن الفهم دائمًا وفي جميع الظروف، لأن النتيجة تتأثر بطبيعة المجتمع والنص ونوع التفاعل [2]. وتكمن القيمة النظرية الأهم في أن القراءة المشتركة تجعل بناء المعنى قابلًا لأن يحدث عبر تداول الفرضيات؛ فقد يقترح قارئ تفسيرًا، ويعترض آخر عليه، ويضيف ثالث سياقًا تاريخيًا، ثم يعود الأول إلى النص ويغير موقفه، وبذلك

يصبح المعنى نتيجة حركة بين النص وعقول متعددة وليس بين نص وقارئ منفرد فقط(

غير أن المشاركة تستطيع كذلك أن تقلل استقلال القراءة إذا دخل القارئ إلى النص بعد أن تشكل إجماع قوي حول شخصية أو نهاية أو قيمة جمالية، لأن الرأي الجماعي قد يعمل بوصفه إطارًا سابقًا يصعب الانفصال عنه. ومن هنا تظهر مفارقة القراءة المشتركة: فهي توسع إمكانات التأويل من خلال تعدد القراء، لكنها تستطيع أن تنتج ضغطًا تأويليًا جماعيًا يجعل بعض القراءات أقل قابلية للظهور، وهو ما يفرض على القارئ الهجين أن يستفيد من الجماعة من دون أن يحولها إلى بديل عن قراءته الأولى.

ويصبح هذا التوتر أكثر وضوحًا عندما تكون الجماعة مؤطرة بخوارزمية تحدد التعليقات الأبرز أو المراجعات الأكثر فائدة أو المواد الأكثر تداولًا ، لأن القراءة المشتركة لا تكون عندها مشاركة بين جميع القراء بالتساوي، بل مشاركة عبر واجهة تنتقي آثارهم وتعيد ترتيبها. وهكذا تجتمع في اللحظة نفسها ثلاثة مستويات من الفاعلية: النص الذي يفتح إمكانات، والقارئ الذي يبني موقفه، والجماعة التي تقدم قراءات بديلة، والمنصة التي تنظم أي هذه القراءات سيصل إليه أولًا ، وهو النموذج الذي يجعل القارئ الهجين فاعلًا داخل نظام اجتماعي ـ تقني أكثر تركيبًا من النموذج الثنائي القديم.

ـ المبحث الثاني: التعليق والهامش الرقمي

ـ تحولات الهامش

احتل الهامش موقعًا فريدًا في تاريخ القراءة لأنه يمثل المنطقة التي تتحول فيها القراءة إلى كتابة دون أن تغادر النص تمامًا، ففي اللحظة التي يضع فيها القارئ خطًا تحت عبارة أو يكتب اعتراضًا أو سؤالًا أو إحالة بجوارها، يصبح أثر التلقي ماديًا وقابلًا للعودة، وينتقل جزء من العملية التي كانت تحدث في الذاكرة إلى سطح الكتاب. وقد حلل ريمي كالير وأنتيرو غارسيا التعليق بوصفه جنسًا يجمع القراءة والتفكير والكتابة والاتصال، مبينين أن الحاشية يمكن أن تقدم معلومة أو تعليقًا أو تفتح محادثة أو تعبر عن علاقات قوة أو تساعد في التعلم [3]. ويكتسب هذا المنظور أهمية خاصة لأنه يرفض اعتبار الهامش نشاطًا ثانويًا خارج النص، ويجعله موقعًا يحدث فيه التفاعل بين القراءة والكتابة بصورة مباشرة .

وكان الهامش الورقي، في معظم الحالات، مرتبطًا بنسخة مادية محددة، فلا يراه إلا من يصل إلى الكتاب نفسه، وقد يستطيع باحث بعد قرون دراسة حواشي قارئ قديم لاستعادة شيء من تاريخ تلقي النص، بينما تغير الهامش الرقمي من حيث النطاق والزمن؛ فالتعليق يمكن أن يُكتب بجوار الجملة ويظهر في اللحظة نفسها لقراء في أماكن مختلفة، ويمكن الرد عليه وإعادة كتابته وربطه بمصدر خارجي، وهو ما يحول الهامش من ذاكرة شخصية إلى فضاء اجتماعي مصغر.

ولا يعني ذلك أن الهامش الرقمي أكثر أهمية في ذاته من الهامش الورقي، لأن الخصوصية والبطء والارتباط بالجسد المادي للكتاب تمنح الحاشية التقليدية خصائص لا تملكها المنصة، لكن الفرق يتعلق بالقابلية للتداول. ففي الكتاب الورقي تظل الحاشية غالبًا تابعة لتاريخ نسخة واحدة، بينما يمكن في النص الرقمي أن تتحول إلى عنصر من عناصر الواجهة وأن تصبح جزءًا من تجربة آلاف المستخدمين. ومن هنا لا يعود القارئ يكتب إلى

«ذاته المستقبلية» فقط، بل قد يكتب إلى جمهور مجهول لا يعرف متى سيصل إلى النص.

وتتيح هذه النقلة النظر إلى الهامش باعتباره حلقة مبكرة في تحول القارئ إلى منتج، لأن التعليق يبدأ باستجابة صغيرة لكنه يستطيع أن يحمل تأويلًا كاملًا أو اعتراضًا أو معلومة تغير قراءة الآخرين. وقد ذهب كالير وغارسيا إلى أن التعليق يمكن أن يثير المحادثة وأن يصبح كتابة عامة تناقش وتعدل بصورة تكرارية بين عدد من المشاركين [3]، وهو ما يجعل الهامش الرقمي أقل شبهًا بالملاحظة الشخصية وأكثر شبهًا ببنية حوارية تنمو حول النص.

ومن هنا يمكن الحديث عن تحول من الهامش بوصفه أثرًا إلى الهامش بوصفه حدثًا؛ ففي الحالة الأولى يسجل القارئ ما حدث له أثناء القراءة، بينما يصبح في الثانية عنصرًا يطلق سلسلة جديدة من القراءات والردود، وقد يعود الكاتب الأصلي نفسه للمشاركة فيها في بعض المنصات. وهذا التحول يجعل الحدود بين المتن والهامش أكثر مرونة، لأن بعض الحواشي قد تكتسب شهرة وتأثيرًا يفوق المقاطع التي علقت عليها، فيتحول النص المرافق إلى مركز مؤقت للانتباه.

- التعليقات بوصفها نصوصًا موازية

يستخدم هذا الكتاب مفهوم »النص الموازي القرائي« للإشارة إلى مجموع الخطابات التي ينتجها القراء حول العمل وتظل مرتبطة به من غير أن تصبح جزءًا أصليًا منه، مثل التعليقات والمراجعات والحواشي والفيديوهات التفسيرية، وهو استعمال إجرائي يستفيد من التقاليد التي درست العتبات والنصوص المحيطة دون أن يساوي بينها وبين تعليقات المنصات الحديثة. وتنبع أهمية هذا المفهوم من أن القارئ المعاصر قد لا يلتقي النص منفردًا، بل يلتقيه ومعه كتلة من الخطابات التي يمكن أن تسبق القراءة أو ترافقها أو تعيد تشكيل ذكراها بعد انتهائها.

وتستطيع التعليقات أن تؤدي وظائف متعارضة؛ فقد تقدم معلومة تساعد القارئ على فهم مرجع، وقد تنبهه إلى تفصيل لم ينتبه إليه، كما تستطيع أن تكشف أحداثًا لاحقة فتفسد أثر البناء السردي، أو تقدم تأويلًا جاهزًا يغلق مساحة السؤال. ومن هنا فإن وجود النص الموازي لا يمثل توسعًا إيجابيًا تلقائيًا ، بل يغير توقيت وصول المعرفة؛ فالمعلومة التي كان المؤلف يؤجلها إلى الفصل العاشر قد يكشفها تعليق في الفصل الأول، والتفسير الذي كان القارئ سيبنيه بعد مئة صفحة قد يواجهه قبل أن يملك الأدلة التي قادت إليه.

ويصبح التعليق، في هذه الحالات، طرفًا في إدارة التوقع، ولذلك يستطيع أن يدخل في «أفق الانتظار الخوارزمي والاجتماعي» الذي طوره الكتاب سابقًا؛ فالقارئ لا يأتي إلى المقطع فقط بمخزونه الثقافي، بل بما شاهده من ردود الآخرين، وقد تصبح بعض هذه الردود شديدة الحضور بسبب ترتيب المنصة. وهكذا يتقاطع الهامش مع الخوارزمية، ويصبح النص الموازي نفسه خاضعًا لسلطة الظهور والإخفاء.

كما تثير التعليقات مسألة السلطة؛ فقد بين كالير وغارسيا أن الحاشية ليست بريئة من علاقات القوة، لأنها تستطيع أن ترفع صوتًا مضادًا كما تستطيع إسكات أصوات أو فرض إطار معين للقراءة [3]. ويظهر ذلك بوضوح في المجتمعات الرقمية حيث يمكن لجماعة كبيرة أن تحاصر تفسيرًا مخالفًا بالسخرية أو التقييم السلبي، بينما قد تسمح البيئة نفسها لقراءة مهمشة تاريخيًا بأن تجد فضاء لم يكن متاحًا داخل النقد المؤسسي. ولذلك ينبغي التعامل مع النصوص الموازية بوصفها فضاء ديمقراطيًا ومتنازعًا في الوقت نفسه، فهي توسع حق الكلام ولا تضمن عدالة توزيعه) .

وتنبع من ذلك كفاية جديدة للقارئ الهجين هي إدارة المحيط النصي، أي قدرته على اختيار اللحظة التي يقرأ فيها التعليقات، والتمييز بين ما يحتاج إليه لفهم النص وما قد يختطف قراءته الأولى، والقدرة على العودة إلى المتن بعد المرور بالهامش. ولا يقل هذا القرار أهمية عن إدارة الروابط والتوصيات،

لأن النص الموازي يستطيع أن يصبح أداة معرفية أو مصدر تشتيت أو سلطة تأويلية بحسب موقعه من الدورة القرائية.

ـ المبحث الثالث: مراجعات القراء

ـ ديمقراطية النقد

تمثل مراجعات القراء واحدة من أكثر مظاهر تحول السلطة النقدية وضوحًا، لأن إمكان نشر حكم على كتاب لم يعد مرتبطًا بالوصول إلى صحيفة أو مجلة أو مؤسسة أكاديمية، بل يستطيع أي مستخدم تقريبًا أن يسجل تقييمًا أو مراجعة وأن يجعلها جزءًا من الملف العام للعمل، وهو ما نقل جانبًا من النقد من فضاءات نخبوية محدودة إلى مجال مفتوح نسبيًا يشترك فيه قراء ذوو مستويات مختلفة من الخبرة والتخصص. وقد جعلت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية المراجعات إحدى الممارسات المركزية التي تتيح دراسة الاستقبال المعاصر على نطاق لم يكن متاحًا من قبل [1 .[2][

ولا ينبغي فهم «ديمقراطية النقد» هنا بوصفها حكمًا بأن كل مراجعة مساوية لكل مراجعة في القيمة، بل بوصفها ديمقراطية في حق المشاركة والنشر؛ فالتحول الأساسي هو أن البوابة المؤسسية التي كانت تقرر من يملك حق الكلام ضعفت، وأصبح المجال مفتوحًا لخبرات قارئ عادي أو مراهق أو قارئ متخصص لا يعمل ناقدًا محترفًا، وهو ما يمكن أن يوسع معرفتنا بتلقي الكتب لأنه يكشف استجابات كانت تختفي خارج الأرشيف النقدي الرسمي. وقد أصبح هذا الكم من المراجعات مادة للعلوم الإنسانية الرقمية ولدراسات التلقي الحسابية التي تحلل أنماط الاستجابة الجماعية على نطاق واسع.[1]

وتكمن قيمة مراجعات القراء كذلك في أنها تكشف وظائف للكتاب قد لا يهتم بها النقد الأكاديمي بالدرجة نفسها، إذ يكتب القارئ عن أثر العمل في حياته وعن سرعة قراءته وعن علاقته بالشخصيات وعن غضبه أو تعاطفه أو شعوره بأن الكتاب مثله أو لم يمثله، وهي معطيات لا يمكن اختزالها في «جودة النقد»، لأنها تكشف جانبًا من التاريخ الاجتماعي والعاطفي للتلقي. ومن هنا ينبغي ألا تقاس مراجعة المستخدم فقط بمقدار اقترابها من المقال الأكاديمي، لأنها تنتمي إلى جنس مختلف له أغراضه وأعرافه.

كما أن مجموع المراجعات يستطيع أن يصنع ما يشبه الأرشيف الجماعي للاستقبال؛ فعوض أن يحتاج مؤرخ القراءة إلى البحث عن رسائل خاصة ونسخ هامشية متفرقة، يمكنه أن يجد آلاف الاستجابات محفوظة زمنيًا وقابلة للتحليل، مع ضرورة تذكر أن هذا الأرشيف منحاز إلى من يملكون حسابات ويختارون الكتابة وإلى ما تسمح المنصة بحفظه. ومن ثم فإن وفرة البيانات لا تعني تمثيل جميع القراء، لكنها تغير جذريًا إمكان دراسة العلاقة بين النص والجمهور.

ويعيد هذا التحول كذلك تشكيل العلاقة بين الناقد والقارئ، لأن الناقد المهني لم يعد يتكلم إلى جمهور صامت، بل يمكن أن تدخل مراجعته في حوار مباشر مع تعليقات القراء، وقد يناقش المستخدمون تقييمه ويقدمون أدلة مضادة، وهو ما لا يلغي الخبرة لكنه يجعلها قابلة للمساءلة من أسفل بصورة أكثر سرعة. ومن هنا يصبح المشهد النقدي شبكة من السلطات المتجاورة بدل هرم واحد يبدأ بالمؤسسة وينتهي بالمتلقي.

- أزمة المعايير الجمالية

يفتح اتساع المشاركة سؤالًا صعبًا حول المعايير، لأن تحويل كل قارئ إلى ناقد محتمل يجعل أحكامًا شديدة الاختلاف تتجاور في المساحة نفسها، وقد تمنح المنصة للمراجعة العاطفية المختصرة مكانًا يفوق دراسة تحليلية طويلة إذا حظيت الأولى بتفاعل أكبر. ولا تعني هذه الظاهرة أن النقد الجماهيري يفتقر بالضرورة إلى القيمة، بل تكشف أن معايير الظهور ومعايير الجودة النقدية ليست متطابقة، وأن المنصة تستطيع ترتيب الخطاب النقدي بحسب التفاعل أو «الفائدة» التي يمنحها المستخدمون، لا بحسب معايير الأدب والنظرية.

ويفيدنا بورديو هنا لأن الحكم على الفن لم يكن قبل المنصات معيارًا كونيًا نقيًا خارج المجتمع، بل ارتبط بمؤسسات التعليم والطبقة ورأس المال الثقافي وتاريخ الحقول الفنية [6]، ولذلك لا ينبغي بناء مقارنة ساذجة بين «ناقد موضوعي قديم» و«قارئ ذاتي جديد»، غير أن البيئة الرقمية تضيف

درجة أعلى من التعدد تجعل أزمة المعايير أكثر ظهورًا. فالقارئ قد يمنح رواية نجمة واحدة لأن النهاية أحزنته، بينما يقيمها آخر بخمس نجوم للأمر نفسه، وناقد ثالث قد يرى أن معيار الحب والكراهية لا يكفي أصلًا للحكم على البناء الأدبي.

ومن هنا ينبغي التمييز بين التقييم الاستهلاكي والحكم النقدي، مع الاعتراف بإمكان تداخلهما؛ فالأول يجيب غالبًا عن سؤال «هل أعجبتني التجربة؟»، بينما يحاول الثاني أن يجيب عن أسئلة تتعلق بالبنية واللغة والسياق والابتكار والتقاليد التي يدخل فيها العمل، ولا يمنع ذلك أن تكون مراجعة قارئ عادي عميقة أو أن يكون مقال ناقد ضعيفًا، وإنما يوفر لنا تمييزًا وظيفيًا بين نوعين من الخطاب لا ينبغي الخلط بينهما لمجرد ظهورهما في الصفحة نفسها.

ويصبح نظام النجوم مثالًا مكثفًا لهذه الأزمة، لأنه يحول تجربة مركبة إلى رقم يمكن جمعه في متوسط، فيبدو أن الكتاب الذي حصل على 4.5 يملك «قيمة» أكبر من الذي حصل على 3.9، مع أن الرقم يجمع أحكامًا ذات أسباب مختلفة ولا يميز بين كفاءة المقيمين ولا بين ما كانوا يبحثون عنه في العمل. ومن هنا تعود الإشكالية التي ناقشها الفصل الثامن حول المقاييس الرقمية، لكن في مستوى أدق :**التقييم العددي لا يصف النص فقط، بل يصف علاقة مجموعة محددة من القراء به، ولذلك لا ينبغي تحويله إلى خاصية جوهرية للعمل.**

وتتضاعف أزمة المعايير عندما تدخل مراجعات القراء في التوصية، لأن التقييم لا يبقى رأيًا معزولًا بل يمكن أن يصبح إشارة تستخدمها المنصة في ترتيب الكتب أو عرضها، وعندها يساهم الحكم الفردي في بناء شروط وصول الآخرين إلى النص. ومن هنا تتحول المراجعة من فعل تفسيري إلى فعل بنيوي في النظام الثقافي، لأن مجموع أحكام القراء يمكن أن يؤثر في القابلية للاكتشاف، وهو ما يجعل مسؤولية المراجعة أكبر مما كانت عليه حين كانت مجرد رأي خاص.

ولا ينبغي أن يكون الرد على هذه الأزمة بإعادة احتكار النقد من طرف الخبراء، بل ببناء ثقافة تمييز بين أنواع الحكم، بحيث يعرف القارئ أن الانفعال مشروع لكنه ليس المعيار الوحيد، وأن التقييم العددي مفيد لكنه لا يغني عن الحجة، وأن الشعبية لا تساوي القيمة، وأن الخبرة النقدية تظل مهمة حتى داخل الفضاء الديمقراطي. وبهذا المعنى يصبح القارئ المنتج الجيد ليس من يملك حق الكلام فقط، بل من يدرك طبيعة الكلام الذي ينتجه وآثاره في الآخرين.

ـ المبحث الرابع: إعادة إنتاج النص

ـ الاقتباس والاختصار

تبدأ إعادة إنتاج النص من أكثر الممارسات القرائية قدمًا، أي الاقتباس، لأن اختيار جملة من عمل ونقلها إلى سياق آخر يمثل فعلًا يخرج الوحدة من بنيتها الأصلية ويمنحها حياة جديدة، وقد كانت المختارات والدفاتر الشخصية والمراسلات والمقالات النقدية أدوات تاريخية لهذا النقل، غير أن البيئة الرقمية جعلت الاقتباس أسرع وأكثر قابلية للانتشار، كما جعلت السياق الجديد مرئيًا أمام جمهور واسع. وعندما يشارك القارئ جملة على منصة اجتماعية، فإنه لا ينقلها فقط، بل يختارها من بين آلاف الجمل ويقدمها بوصفها ما يستحق أن يمثل الكتاب في تلك اللحظة، وهو ما يجعل الاقتباس شكلًا من أشكال التأليف الانتقائي حتى مع بقاء الكلمات للمؤلف الأصلي.

وتزداد هذه الوظيفة وضوحًا في الاختصار والتلخيص، لأن القارئ الذي يكتب ملخصًا لا ينقل جميع عناصر النص، بل يحدد ما يعده مركزيًا ويعيد ترتيب العلاقات بينها بلغة جديدة. ومن هنا يكون الملخص أثرًا على القراءة بقدر ما هو وصف للكتاب؛ فهو يكشف ما رآه القارئ مهمًا وما حذفه، وقد يختلف ملخصان للعمل نفسه اختلافًا يكشف اختلاف التأويل. ويصبح التلخيص الرقمي المنشور نوعًا من النص البديل المؤقت الذي قد يستخدمه آخرون لاتخاذ قرار القراءة أو لتذكر الكتاب أو، في الحالات الأكثر إشكالًا، بدل قراءته.

ومع دخول الذكاء الاصطناعي التوليدي، تصبح إعادة الإنتاج نفسها هجينة؛ فقد يختار القارئ المقاطع ويطلب من النظام إعادة تنظيمها أو اختصارها أو تحويلها إلى نقاط أو لغة أبسط، ثم ينشر الناتج بعد تعديله، وعندها يصعب فهم المنتج النهائي من خلال ثنائية مؤلف/قارئ فقط، لأن سلسلة إنتاجه قد تضم النص الأصلي والقارئ والنظام التوليدي والمنصة. وهنا يعود المبدأ الذي تأسس في الفصول السابقة: ينبغي تتبع توزيع الوظائف لا محو الفروق بين الفاعلين.

ويظهر الخطر عندما تنفصل النسخة المختصرة عن أصلها إلى درجة تبدأ معها في تمثيله بصورة اختزالية، وخصوصًا في الأدب الذي لا يمكن اختصار قيمته إلى الأحداث أو الأفكار. فالقصيدة ليست مجموعة معلومات يمكن ضغطها دون خسارة، والرواية لا تساوي حبكتها، والنص الفلسفي لا يساوي قائمة نتائجه، ولذلك ينبغي أن يُفهم الاختصار باعتباره أداة لإعادة الدخول إلى النص أو تقديمه، لا نسخة مكافئة له. ومن هنا يمكن صياغة قاعدة للقارئ المنتج مفادها أن كل إعادة إنتاج للنص ينبغي أن تعلن ضمنيًا أو صراحة أنها منظور إلى العمل لا العمل نفسه.

- الصورة والفيديو والميم

تتجاوز إعادة الإنتاج اللغة عندما يتحول النص إلى صورة أو فيديو أو ميم أو تصميم بصري، إذ يصبح القارئ منتجًا لترجمة بين أنظمة سيميائية مختلفة، فيختار عنصرًا من العمل ويمنحه شكلًا بصريًا أو صوتيًا يمكن أن يغير دلالته وطريقة تلقيه. وقد أصبح هذا النمط مركزيًا في الثقافة الرقمية، حيث تستطيع رواية طويلة أن تظهر في فيديو مدته ثوان، أو تتحول شخصية إلى ميم، أو يصبح اقتباس جزءًا من تصميم يربطه بصورة لا وجود لها في النص الأصلي.

ويتيح مفهوم «الثقافة التشاركية» عند جنكينز فهم هذه الممارسات بوصفها جزءًا من نشاط جمهور لا يكتفي بالاستهلاك بل يعيد استعمال المواد الثقافية ويمنحها أشكالًا جديدة [4][10]. ففي *Textual Poachers* درس جنكينز جماعات المعجبين بوصفها جماعات نشطة تعيد كتابة النصوص وتوسيع عوالمها وتكوين أعمال مشتقة، بينما أظهر لاحقًا في *Convergence Culture* كيف أصبحت المشاركة والتداول عبر الوسائط جزءًا أساسيًا من الثقافة الإعلامية [4 .[10][

ويقدم أكسل برونز مفهوم «الإنتاج - الاستخدام» إطارًا آخر لفهم القارئ الذي يتحول أثناء استهلاك المحتوى إلى منتج وموزع له، بحيث لا يبقى الخط الفاصل بين الإنتاج والاستهلاك ثابتًا في البيئات التشاركية [5].

ويصلح هذا المفهوم للقراءة الرقمية لأن المستخدم قد يقرأ اقتباسًا ويعيد تصميمه، أو يشاهد مراجعة فينتج ردًا عليها، أو يأخذ ميمًا ويغيره، فتدخل المواد في سلسلة من إعادة الاستخدام لا تنتهي عند نسخة واحدة مستقرة .

غير أن الميم والفيديو القصير يكشفان بوضوح مشكلة نزع السياق؛ فلكي تصبح المادة قابلة للتداول السريع، غالبًا ما تختزل إلى عنصر واحد ينجح خارج بنيته الأصلية، وقد يكون هذا الاختزال ساخرًا أو نقديًا أو إبداعيًا، لكنه يستطيع كذلك أن يصنع صورة عن العمل لا يجد القارئ فيها ما توقعه بعد فتح الكتاب. ومن هنا تصبح إعادة الإنتاج جزءًا من أفق الانتظار، فقد يدخل القارئ إلى رواية لأنه رأى شخصية في عشرات المقاطع المصورة، ثم يقرأها من خلال الصورة التي صنعها المجتمع حولها.

وتستطيع إعادة الإنتاج في المقابل أن توسع حياة الأعمال الأدبية، لأن الميم أو الفيديو أو الرسم قد يعيد نصًا قديمًا إلى التداول، ويخلق مسارًا جديدًا لجمهور لم يكن سيصل إليه من خلال النقد التقليدي. وهنا لا ينبغي أن يقتصر السؤال النقدي على «هل شوهت المنصة النص؟»، بل ينبغي أن نسأل كذلك: ما الذي كشفه التحويل؟ وما الذي أخفاه؟ وما الجمهور الجديد الذي صنعه؟ وكيف تغير معنى العمل عندما انتقل من لغة إلى وسيط آخر؟ وبهذه الأسئلة تصبح إعادة الإنتاج موضوعًا مشروعًا للدراسات الأدبية بدل التعامل معها بوصفها ضوضاء حول الأدب.

ـ المبحث الخامس: القراءة عبر الوسائط

ـ *الرواية والفيلم والكتاب الصوتي*

تتغير القراءة جذريًا عندما لا يبقى العمل مرتبطًا بوسيط واحد، لأن الرواية التي تنتقل إلى فيلم لا تعيد إنتاج كلماتها في صورة مرئية فقط، بل تخضع لعملية تحويل تغير طرق السرد والزمن والمنظور والجسد والصوت، وهو ما جعل ليندا هاتشون في *A Theory of Adaptation* تؤكد أن الاقتباس الفني ينبغي ألا يقاس بمنطق «الوفاء» البسيط للأصل، بل بوصفه إعادة ترميز وإبداع يحدثان داخل وسيط جديد له إمكاناته وحدوده [7]. وتسمح هذه المقاربة بفهم القارئ الذي ينتقل بين الرواية والفيلم لا بوصفه شخصًا يقارن الأصل بالنسخة فقط، بل بوصفه متلقيًا يبني معنى العمل عبر اختلافات الوسائط ذاتها .

فعندما يشاهد القارئ فيلمًا مقتبسًا من رواية سبق أن قرأها، تدخل الصورة والصوت وأداء الممثلين والموسيقى إلى ذاكرته القرائية، وقد يصبح من الصعب بعد ذلك استعادة الشخصية بعيدًا عن الوجه الذي منحها إياه الفيلم، والعكس صحيح عندما يشاهد العمل أولًا ثم يقرأ النص، لأن الصورة السابقة قد تعمل بوصفها إطارًا يتدخل في التخيل. ومن هنا تكشف القراءة عبر الوسائط أن المعنى لا ينتقل من وسيط إلى آخر من دون أثر، بل يعاد تشكيله داخل كل تجربة.

ويقدم الكتاب الصوتي مثالًا مختلفًا لأن النص اللفظي يمكن أن يبقى قريبًا من الأصل المكتوب، لكن الوسيط يضيف الصوت والأداء والسرعة والنبر، كما يغير الظروف المكانية والجسدية التي يمكن أن يحدث فيها التلقي. وقد عالجت إيبن هاف وبيرغيت ستوغارد بيدرسن الكتاب الصوتي الرقمي بوصفه شكلًا من إعادة وساطة الأدب وتجربة قراءة قائمة على الاستماع، رافضتين النظر إليه باعتباره قراءة من الدرجة الثانية أو مجرد تعويض لمن لا يستطيع القراءة البصرية [8]. وتوضح دراستهما أن الأداء الصوتي وإمكانات

الوسيط الرقمي يخلقان تجربة يمكن دراستها من منظور الأدب والوسائط والصوت والحياة اليومية معًا .

ولا يعني ذلك أن الاستماع والقراءة البصرية متطابقان، فالكتاب الصوتي ينظم زمن التلقي بواسطة صوت يؤدي النص، ويجعل العودة إلى جملة سابقة مختلفة عن حركة العين إلى أعلى الصفحة، كما أن النبرة تستطيع أن تقترح تفسيرًا للجملة قبل أن يبنيه المستمع بنفسه. ومن هنا يمثل الصوت وسيطًا تأويليًا لأن أداء السخرية أو الغضب أو التردد يضيق أو يوسع بعض إمكانات الفهم، وهو ما يجعل المقارنة بين النص المكتوب والمسموع جزءًا مثمرًا من نظرية القارئ الهجين.

وقد دفعت التحولات الوسائطية المعاصرة دراسات القراءة إلى مراجعة تعريف القراءة نفسه، كما يظهر في *The Digital Reading Condition* الذي يجمع بحوثًا حول القراءة الرقمية والمسموعة والمتعددة الحواس والعابرة للوسائط، ويدعو إلى تجاوز التصورات المنحازة إلى المطبوع باعتباره المعيار الوحيد للفعل القرائي [16]. ولا يعني توسيع المفهوم أن مشاهدة كل فيلم «قراءة» بالمعنى نفسه، بل أن النشاط التأويلي الذي يقوم به الفرد عبر الوسائط المختلفة يحتاج إلى لغة أكثر مرونة من الفصل الصارم بين القارئ والمشاهد والمستمع .

ومن هنا يمكن للقارئ الهجين أن يبني فهمًا لعمل واحد عبر أكثر من وسيط، فيقرأ الرواية ويستمع إلى نسخة صوتية ويشاهد اقتباسها السينمائي ويقرأ التعليقات حولها، ثم يعيد تقييم ما ظنه معنى ثابتًا حين يرى ما غيره كل وسيط. ويصبح هذا الانتقال نفسه فعلًا نقديًا إذا استطاع القارئ أن يميز ما يعود إلى العمل وما يعود إلى الأداء أو الإخراج أو الوسيط، بدل أن يدمج جميع الطبقات في ذاكرة واحدة بلا تمييز.

ـ السرد العابر للوسائط

يختلف السرد العابر للوسائط عن الاقتباس في أن القصة لا تنتقل فقط من وسيط إلى آخر في صورة جديدة، بل يتوزع عالمها السردي بين وسائط مختلفة بحيث تضيف كل واحدة جزءًا يمكن أن يوسع التجربة، وهو المفهوم الذي ارتبط بقوة بأعمال هنري جنكينز حول ثقافة التقارب [4]، ثم طوّره كارلوس ألبرتو سكولاري من منظور السيميائيات والسرديات حين درس العوالم التي تتوزع بين التلفزيون والقصص المصورة والألعاب والويب وغيرها من القنوات [9]. وتبين دراسة سكولاري أن السرد العابر للوسائط يبني عالمًا روائيًا عبر نصوص ووسائط مختلفة، وأن هذا التوزيع يفترض أنماطًا جديدة من المستهلكين الضمنيين القادرين على الحركة بين اللغات والمنصات) .[9]

ويتغير دور القارئ هنا لأن فهم العالم السردي قد يحتاج إلى نشاط تجميعي؛ فهو لا يتتبع نصًا واحدًا من البداية إلى النهاية، بل يجمع شظايا ومعلومات موزعة على أعمال مختلفة، وقد تصبح الجماعة ضرورية لمقارنة ما اكتشفه كل فرد. وفي هذه الحالة يقترب القارئ من الباحث الذي يعيد بناء العالم من أجزاء، وهو ما يجعل القراءة فعلًا شبكيًا وتشاركيًا بامتياز.

لكن السرد العابر للوسائط لا يعني أن جميع أفراد الجمهور يتابعون جميع الوسائط، وقد أظهرت دراسات التلقي أن المنتجين قد يتخيلون أحيانًا جمهورًا شديد الرغبة في استكشاف الامتدادات بينما يكتفي عدد من المتلقين بالنص أو المسلسل الرئيسي [9]. ولذلك ينبغي ألا نجعل «القارئ العابر للوسائط» نموذجًا إلزاميًا للقارئ المعاصر، بل نمطًا متقدمًا من المشاركة يتطلب وقتًا وكفايات ورغبة في التنقل بين أنظمة مختلفة.

ويصبح هذا القارئ أكثر إنتاجية عندما لا يكتفي بجمع عناصر العالم الرسمي، بل يشارك في توسيعه عبر الكتابة والرسم والنقاش وأدب المعجبين، وهو ما يربط السرد العابر للوسائط بثقافة المشاركة. وقد أشار سكولاري إلى أن جمهور المعجبين يستطيع أن يشارك في توسيع العالم

السردي عبر خلق مواقف وشخصيات جديدة، وهو ما يكشف أن الحد بين «تلقي العالم» و«إنتاج امتداد له» يصبح أكثر مرونة) .[9]

ومن هنا تظهر إحدى أكثر صور القارئ المنتج وضوحًا، لأن الفرد لا يشرح النص فقط بل يضيف إليه من خارج المؤسسة الرسمية، غير أن هذا الإنتاج يبقى مرتبطًا بعلاقة مع النص الأصلي لا ينبغي محوها؛ فكتابة قصة معجبين داخل عالم روائي ليست تأليفًا للعمل الأصلي، بل بناء نص جديد يعتمد على ذاكرة ذلك العالم ويعيد استخدام بعض عناصره. ومن ثم يجب الحفاظ على الفرق بين توسيع العالم وامتلاك العالم، وهو الفرق الذي سيصبح ضروريًا في صياغة مفهوم «المؤلف الثاني.«

ـ المبحث السادس: القارئ بوصفه مؤلفًا ثانيًا

ـ *إعادة بناء المعنى*

إذا كان مفهوم القارئ المنتج يصف انتقال الاستجابة إلى فضاء النشر والمشاركة، فإن عبارة «المؤلف الثاني» تحتاج إلى أكبر قدر من الدقة، لأنها قد توحي بأن القارئ يعيد كتابة العمل الأصلي أو يتساوى مع مؤلفه التاريخي، وهو ما لا يقصده هذا البحث. إن المؤلف الثاني هنا مؤلف للقراءة لا مؤلف للنص الأصلي؛ فهو يبني نصًا تأويليًا ثانيًا من خلال اختيار العلاقات والرموز والسياقات التي تجعل العمل ذا معنى بالنسبة إليه، ثم قد يمنح هذا البناء شكلًا لغويًا أو بصريًا منشورًا يجعل قراءته قابلة لأن تقرأ بدورها.

وقد أسس وولفغانغ إيزر لهذا الدور حين جعل فعل القراءة تحقيقًا ديناميًا لإمكانات العمل، حيث يربط القارئ بين الأجزاء ويملأ مناطق عدم التحديد ويعيد تنظيم توقعاته أثناء التقدم في النص [12]، بينما منح أمبرتو إيكو القارئ دورًا تعاونيًا في تفعيل استراتيجية النص مع الاحتفاظ بحدود تمنع التأويل من التحول إلى حرية اعتباطية [11]. ومن هنا فإن القول بأن القارئ «يعيد بناء المعنى» لا يعني أن المعنى ملك مطلق له، بل أن العمل يحتاج إلى فعل تأويلي لكي يتحول من بنية لغوية إلى تجربة ذات دلالة .

وتضيف البيئة الرقمية إلى هذه الفاعلية القديمة خاصية جديدة هي قابلية التشييء والنشر؛ فالتأويل الذي كان يحدث ثم يختفي أو يبقى في ذاكرة القارئ يمكن أن يصبح مراجعة محفوظة أو خريطة شخصيات أو فيديو أو تعليقًا أو نصًا مشتقًا، وبذلك يتحول إنتاج المعنى إلى إنتاج مادة ثقافية جديدة. وهنا يصبح وصف «التأليف الثاني» أكثر قابلية للفهم، لأن القراءة لا تكتفي بتحقيق النص داخل الوعي، بل تنتج أثرًا نصيًا يدخل إلى المجال العام.

لكن هذا التأليف الثاني يظل مقيدًا بأصل يقاومه؛ فإذا ادعى القارئ أن شخصية تظهر في فصل لا وجود لها فيه، أو نسب إلى النص فكرة لا تجد

سندًا، فإن مجرد قدرته على نشر التأويل لا يجعله مشروعًا نقديًا، ولذلك يستمر مبدأ إيكو حول حقوق النص وحدود التأويل في العمل داخل البيئة الرقمية. ويمكن صياغة ذلك في قاعدة المشروع :**القارئ يملك حرية إنتاج قراءته، لكنه لا يملك حرية إعادة اختراع الدليل الذي تستند إليه.**

وتصبح المسألة أكثر أهمية مع الذكاء الاصطناعي، لأن القارئ يستطيع أن ينتج عشرات التفسيرات في وقت قصير بمساعدة نظام توليدي، وهو ما يزيد كمية الخطاب حول النص دون أن يضمن جودته. ومن هنا لا تقاس «مؤلفية القارئ الثانية» بعدد النصوص التي يستطيع إنتاجها، بل بقدرته على بناء قراءة يمكن الدفاع عنها نصيًا وسياقيًا، وعلى التمييز بين مساهمته ومساهمة النظام إذا كانت عملية الإنتاج هجينة.

ومن هذه الزاوية يصبح القارئ المنتج امتدادًا للقارئ الهجين لا نقيضًا له؛ ففي الفصول السابقة كانت الأدوات تدخل في عملية فهمه، أما هنا فإن نتائج هذا الفهم تعود إلى البيئة وتصبح مدخلات جديدة لقراء آخرين وللخوارزميات، فتتشكل دورة يمكن تمثيلها على النحو التالي :**نص → قراءة → تأويل → إنتاج قرائي → نشر → تفاعل اجتماعي → بيانات وترتيب → قارئ جديد → قراءة جديدة** .وهكذا لم يعد القارئ نهاية السلسلة، بل نقطة عبور تعيد إطلاقها.

- الحدود بين القراءة والكتابة

أضعفت الثقافة الرقمية الحدود العملية بين القراءة والكتابة لأن الأدوات نفسها التي تعرض النص تمنح المستخدم في الغالب إمكان التعليق والنسخ والرد والنشر، ولذلك يستطيع القارئ أن ينتقل من الاستقبال إلى الإنتاج من دون مغادرة الواجهة. وقد وصف أكسل برونز هذا التحول في الثقافة التشاركية من خلال مفهوم *produsage* الذي يجمع الإنتاج والاستخدام، ويؤكد أن المستخدمين في بيئات عديدة يشاركون في التوسيع المستمر للمعرفة والمحتوى بدل الفصل الصارم بين المنتج والمستهلك [5]. ويصلح

هذا التصور للقراءة ما دمنا نستخدمه بحذر، لأن القارئ يشارك في إنتاج الخطاب الثقافي حول العمل بدرجة أكبر مما يشارك في إنتاج العمل ذاته .

وقد رأى جنكينز منذ دراساته المبكرة لجماعات المعجبين أن الجمهور يستطيع أن يكون نشطًا وخلاقًا ونقديًا واجتماعيًا، وأن إعادة استعمال النصوص وإنتاج أعمال مشتقة ليست هامشًا على الثقافة الجماهيرية بل طريقة أساسية من طرق تملكها وإعادة التفاوض معها [10]. ومع الثقافة الرقمية أصبحت هذه الممارسات أسهل في النشر وأسرع في الوصول، لكن المبدأ الأساسي بقي قائمًا: القراءة تستطيع أن تصبح مادة للكتابة، والكتابة الجديدة تصبح بدورها موضوعًا لقراءات جديدة .

ولا يعني تراجع الحدود اختفاءها، لأن التمييز بين القراءة والكتابة يظل ضروريًا لأسباب نظرية وأخلاقية وقانونية؛ فالقارئ يستطيع إعادة سرد نهاية رواية بلغته، لكنه لا يصبح بذلك صاحب الرواية، ويستطيع إنتاج عمل معجبين مستلهم منها، لكنه يبقى عملًا مشتقًا له علاقة بأصل سابق، كما يستطيع نقد نص أو تفكيكه أو تحويله إلى ميم، لكن إنتاجه الجديد لا يمحو تاريخ النص الأول. ومن هنا لا ينبغي لمفهوم «القارئ المؤلف» أن يتحول إلى شعار عن موت جميع الفروق، بل أن يستخدم لوصف المنطقة الانتقالية التي يصبح فيها فعل القراءة مولدًا للكتابة.

ويظهر هذا الحد بوضوح في مفهوم التكيف عند هاتشون، التي ترى أن الانتقال بين الوسائط عملية إبداعية لا مجرد نسخ، لكنها تظل مرتبطة بنص سابق يتيح للجمهور رؤية العلاقة بين الأصل والتحويل [7]. ويمكن توسيع هذا المبدأ ليشمل القارئ المنتج؛ فكلما ابتعد المنتج الجديد عن مجرد التعليق وأصبح عملًا إبداعيًا قائمًا بذاته، اقتربنا من مجال التأليف الحقيقي، لكن العلاقة بالنص الأول لا تختفي بمجرد قوة التحويل .

وتزداد الحدود تعقيدًا في عصر الذكاء الاصطناعي لأن القارئ قد يطلب من النظام إعادة كتابة مشهد من منظور شخصية أخرى أو إنتاج نهاية بديلة أو تحويل رواية إلى سيناريو مختصر، وعندها تدخل ثلاثة مستويات من الإنتاج:

مؤلف الأصل، والقارئ الذي يحدد المهمة ويختار المخرج، والنظام الذي يولد اللغة. ولا تسمح هذه البنية البسيطة بإعلان أن الجميع «مؤلفون» بالمعنى نفسه، بل تؤكد أهمية المفهوم الذي أسسه الكتاب سابقًا وهو **التكامل المعرفي غير المتماثل**، حيث تختلف الأدوار رغم اشتراكها في إنتاج الناتج النهائي.

ومن هنا يمكن وضع حد نظري بين ثلاث حالات :**القراءة المنتجة** التي تنتج تفسيرًا أو مراجعة أو تعليقًا حول العمل، و**الكتابة المشتقة** التي تستخدم عناصر العمل في نص جديد، و**التأليف المستقل** الذي ينتج عملًا له بنية ومشروع خاصان حتى عندما يحمل آثار قراءات سابقة. ولا تفصل بين هذه المستويات جدران مطلقة، لكن التمييز بينها يمنع مفهوم القارئ المنتج من ابتلاع مفهوم المؤلف نفسه.

من القارئ المتلقي إلى القارئ المنتج

تسمح المباحث السابقة بإعادة بناء تاريخ القارئ من زاوية إضافية؛ فالقارئ الذي ظهر في النظريات التقليدية متلقيًا للرسالة تحول مع نظريات التلقي إلى شريك في بناء المعنى، ثم أصبح مع الشبكة قارئًا اجتماعيًا يشارك خبرته، ومع المنصات قارئًا قابلًا لأن يترك آثارًا رقمية حول النص، ومع الذكاء الاصطناعي قارئًا قادرًا على إنتاج نصوص موازية ومقارنات وتأويلات بمساعدة نظام توليدي. ومن هنا لا يكون الانتقال من التلقي إلى الإنتاج قفزة واحدة، بل تراكبًا بين مستويات تتزايد فيها قابلية الاستجابة لأن تصبح مادة ثقافية.

ويمكن تمثيل هذا المسار في الصيغة التالية :**متلقٍ → مفسر → معلق → مراجع → مشارك → معيد إنتاج → قارئ ـ مؤلف للنص الموازي**، مع ضرورة فهم السهم بوصفه علاقة إمكان لا سلمًا حتميًا، لأن قارئًا يستطيع أن يقرأ بصمت ولا ينتج أي أثر رقمي، كما يستطيع شخص أن يكتب مراجعات كثيفة دون الدخول في إنتاج إبداعي مشتق.

وتظهر القيمة النظرية لهذا التدرج عندما نربطه بمفهوم القارئ الهجين، لأن الإنتاج نفسه يمكن أن يكون بدرجات مختلفة من الهجنة؛ فقد يكتب الإنسان المراجعة كاملة، أو يستخدم محررًا لغويًا، أو يطلب ترجمة، أو يستعين بنظام لتلخيص ملاحظاته، أو يدخل في حوار توليدي قبل كتابة موقفه النهائي. ومن هنا يصبح السؤال المتعلق بمصدر النص الموازي مهمًا: ما الذي كتبه القارئ؟ ما الذي اقترحته الأداة؟ وما الذي اختاره الإنسان وراجعه؟ وكلما ازدادت مشاركة النظام أصبح الإفصاح والوعي بتوزيع الوظائف جزءًا من المسؤولية.

كما أن المنتج القرائي يعود إلى النظام الخوارزمي بوصفه بيانات؛ فالمراجعة والتقييم والتعليق والاقتباس والمشاركة لا تؤثر في البشر فقط، بل تستطيع أن تصبح إشارات تدخل في الترتيب والتوصية، وهكذا يتضح أن القارئ المنتج هو في الوقت نفسه منتج للمعنى ومنتج للبيانات .وهذه الثنائية شديدة الأهمية لأن المستخدم قد يقصد كتابة رأي إلى القراء، بينما تستخدم المنصة رأيه كذلك لتعديل صورة الكتاب وصورة المستخدم وتوصيات المستقبل.

ومن هنا تتشكل دورة أكثر شمولًا من النموذج التقليدي للمؤلف والنص والقارئ :**المؤلف ← النص ← المنصة ← القارئ ← الاستجابة ← النص الموازي ← الجماعة ← البيانات ← الخوارزمية ← قارئ آخر**، وهي دورة لا تلغي المؤلف ولا النص، لكنها تبيّن أن الحياة الثقافية للعمل بعد النشر أصبحت شبكة من عمليات إعادة الإنتاج البشري والخوارزمي.

القارئ المنتج والمسؤولية التأويلية

يزيد الانتقال إلى الإنتاج من مسؤولية القارئ لأن تأويله لم يعد شأنًا خاصًا عندما ينشره، فقد يوجه قراءة الآخرين أو ينقل معلومة خاطئة أو يختزل النص أو يكشف أحداثه أو ينسب إليه معنى غير مسند، كما يستطيع في المقابل أن يفتح بابًا لقراءة جديدة أو يصحح خطأ شائعًا أو يقدم سياقًا ثقافيًا غائبًا. ومن هنا تتوسع «المسؤولية التأويلية» التي تأسست في الفصول السابقة

من مسؤولية الإنسان عن ما يعتقده إلى مسؤوليته عن الأثر الذي يعيد إدخاله إلى المجال القرائي.

ولا تعني المسؤولية فرض رقابة على القراء أو جعل كل تعليق مقالة علمية، لأن قيمة الثقافة التشاركية تكمن في تعدد المستويات والأصوات، وإنما تعني وعي المستخدم بالفرق بين الانطباع والمعلومة، وبين الرأي والدليل، وبين الاقتباس والنص الكامل، وبين التفسير والحقيقة. فالقارئ يستطيع أن يقول «قرأت النهاية بهذه الطريقة» بحرية أكبر من قوله «المؤلف يصرح بأن...» إذا لم يكن هناك تصريح، وهنا تصبح اللغة نفسها أداة لضبط درجة اليقين.

ويتطلب الإنتاج المسؤول كذلك احترام السياق، لأن النص الذي يُقتطع من العمل قد يغير معناه عند إعادة نشره، والميم الذي يستخدم جملة ساخرة بوصفها تصريحًا جادًا قد يصنع تمثيلًا مضللًا، وهو ما يجعل القارئ المنتج مطالبًا بوعي بأخلاق الاقتطاع، أي إدراك أن الاختيار من النص فعل تأويلي يملك آثارًا في صورته العامة.

ومع الذكاء الاصطناعي ينبغي إضافة مسؤولية التحقق، لأن النظام يستطيع توليد ملخص أو اقتباس أو تحليل يبدو صالحًا للنشر رغم احتوائه خطأ أو نسبة غير دقيقة، ولذلك لا ينبغي للقارئ المنتج أن يتحول إلى ناقل آلي للمخرجات. ويعود هنا مبدأ «بقاء الإنسان في دائرة التأويل» بصورة أشد: كلما كان الخطاب المنشور يحمل اسم القارئ أو مسؤوليته، وجب أن يمر عبر تحقق بشري يتناسب مع طبيعة الادعاء.

خاتمة الفصل

أظهر هذا الفصل أن القارئ في البيئة الرقمية لم يعد يمثل النقطة النهائية في دورة التواصل الأدبي، لأن القراءة أصبحت قادرة على إنتاج آثار قابلة للنشر والاستمرار والتفاعل، بدءًا من الملاحظة القصيرة في هامش رقمي وانتهاءً بالنصوص المشتقة والعوالم السردية التي يشارك الجمهور في توسيعها. وقد بينت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن المنصات تجمع القراءة بالمراجعة والتعليق والنقاش والكتابة، وهو ما يجعل التفاعل حول النص جزءًا من الظاهرة الأدبية المعاصرة لا مجرد ضجيج خارجي عنها [1][2][

وكشفت القراءة الاجتماعية أن الجماعة لم تعد خلفية ثقافية مجردة، بل أصبحت حاضرة في واجهة النص من خلال الردود والمراجعات والمناقشات، وأن هذا الحضور يستطيع أن يوسع التأويل كما يستطيع أن ينتج ضغطًا نحو المعاني الأكثر انتشارًا، وخصوصًا عندما تدخل الخوارزمية في ترتيب أصوات الجماعة. ومن هنا اقترح الفصل مفهوم «الجماعة التأويلية المتصلة» لوصف هذا التداخل بين الاستقبال الاجتماعي والبنية التقنية، مع المحافظة على التمييز بين الاقتراح المفاهيمي الجديد وبين مفهوم الجماعة التأويلية الأصلي عند فيش.

كما بين تحليل الهامش الرقمي أن التعليق يمثل أحد أكثر المواضع وضوحًا في اتصال القراءة بالكتابة، إذ يتحول أثر التلقي من ملاحظة خاصة إلى نص قابل للنشر والحوار وإعادة الكتابة، وهو ما يبرر النظر إليه بوصفه جزءًا من «النص الموازي القرائي» الذي يحيط بالعمل ويشارك في تشكيل تلقيه [3]. ولم يعد الهامش مجرد مساحة على طرف الصفحة، بل أصبح أحيانًا فضاء اجتماعيًا يستطيع أن ينافس المتن على الانتباه، وهو تحول يفرض على القارئ تعلم إدارة توقيت الدخول إلى التعليقات حتى لا تتحول المساعدة الاجتماعية إلى استباق لتأويله.

وقد أظهر مبحث مراجعات القراء أن اتساع الحق في نشر الأحكام يمثل شكلًا من ديمقراطية المشاركة النقدية، لأنه يجعل الاستجابة الأدبية

أقل احتكارًا من المؤسسات، لكنه لا يلغي الحاجة إلى المعايير، بل يجعل التمييز بين الانطباع والحكم الجمالي والحجة النقدية أكثر ضرورة. فالعدد الكبير من المراجعات يوسع أرشيف التلقي ويكشف خبرات كانت غير مرئية، لكنه لا يحول متوسط التقييم إلى حقيقة أدبية، ومن هنا يكون التحدي في الجمع بين تعدد الأصوات وعدم تسوية جميع أنواع الحجة في مستوى واحد.

وأبانت إعادة إنتاج النص أن الاقتباس والاختصار والصورة والفيديو والميم ليست عمليات خارج القراءة، بل أشكال من تحويلها إلى مادة جديدة، وأن الثقافة التشاركية التي وصفها جنكينز ومفهوم الإنتاج ـ الاستخدام عند برونز يتيحان فهم هذا القارئ الذي يستهلك ويعيد الإنتاج في الوقت نفسه [4][5][10]. غير أن هذه القدرة تفرض الحفاظ على السياق والتمييز بين العمل الأصلي والخطاب المشتق، لأن انتشار النسخة المعاد إنتاجها لا يمنحها حق أن تحل محل النص الذي انطلقت منه.

كما أظهر الانتقال بين الرواية والفيلم والكتاب الصوتي والسرد العابر للوسائط أن القارئ المعاصر يمكن أن يبني معرفته بالعمل عبر نظم سيميائية متعددة، وأن كل وسيط لا ينقل النص فقط بل يعيد تشكيل بعض شروط تلقيه [7][8][9][16]. ويصبح القارئ في السرد العابر للوسائط جامعًا للأجزاء ومقارنًا بينها، وقد يتحول إلى مشارك في توسيع العالم السردي نفسه، وهو ما يضعه في المنطقة الأكثر قربًا من الإنتاج الإبداعي.

أما عبارة «القارئ بوصفه مؤلفًا ثانيًا» فقد جرى ضبطها بحيث لا تعني إلغاء المؤلف التاريخي أو نسبة العمل إلى القارئ، بل تشير إلى أن كل قراءة نشطة تعيد بناء شبكة من المعاني، وأن البيئة الرقمية تمنح هذا البناء القدرة على التحول إلى نص مواز يمكن أن يقرأه الآخرون. ومن هنا يكون القارئ مؤلفًا لقراءته، لا مؤلفًا ثانيًا للعمل الأصلي، وتظل حرية التأويل مقيدة بإمكان الدفاع عن المعنى من خلال النص والسياق [11.[12][

وتقود هذه النتيجة إلى تحول أوسع في نموذج التواصل الأدبي؛ فالصيغة القديمة مؤلف → نص → قارئ لم تعد كافية لوصف البيئة المشاركة، والصيغة الأكثر ملاءمة تصبح :مؤلف → نص → قارئ → تأويل → إنتاج قرائي → جماعة رقمية → خوارزمية → قارئ جديد ، بحيث تعود آثار القراءة إلى النظام وتتحول إلى شروط لقراءات لاحقة. وهكذا لا يكون القارئ متلقياً في نهاية الطريق، بل حلقة منتجة داخل دورة المعنى.

ومن هنا يمكن صياغة النتيجة النظرية المركزية لهذا الفصل على النحو الآتي :القارئ المنتج هو قارئ تتحول استجابته للنص من فعل داخلي أو خاص إلى خطاب قابل للتسجيل والمشاركة وإعادة التداول، بحيث يصبح مشاركًا في إنتاج المعنى وفي بناء البيئة الاجتماعية والخوارزمية التي يستقبل داخلها الآخرون العمل، من دون أن يلغي ذلك الحدود بين التأويل والتأليف أو بين المشاركة وملكية النص.

وبهذا ينتهي الباب المخصص للقراءة في البيئة الخوارزمية وقد انتقل القارئ فيه من شخص تصل إليه النصوص عبر الخوارزمية، إلى شخص تتشكل ذائقته داخل اقتصاد الانتباه، ثم إلى فاعل يعيد هو نفسه إنتاج الخطاب والبيانات التي تغذي البيئة الرقمية، وهو ما يمهد للباب التالي الذي ينتقل إلى مستوى أكثر عمقًا من الهجنة، حيث يدخل الذكاء الاصطناعي مباشرة إلى فعل الفهم والحوار والتأويل، بدءًا من الفصل العاشر حول الذكاء الاصطناعي مساعداً للقارئ.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Rebora, Simone; Boot, Peter; Pianzola, Federico; Gasser, Brigitte; Herrmann, J. Berenike; Kraxenberger, Maria; Kuijpers, Moniek M.; Lauer, Gerhard; Lendvai, Piroska; Messerli, Thomas C. & Sorrentino, Pasqualina. "Digital Humanities and Digital Social Reading." *Digital Scholarship in the Humanities*, Vol. 36, Supplement 2, 2021, pp. ii230–ii250. DOI: 10.1093/llc/fqab020.

مرجع أساسي في تأصيل مفهوم القراءة الاجتماعية الرقمية، ويعرض أنماطًا تشمل المراجعات والتعليقات داخل النص والمناقشات والكتابة المرتبطة بالقراءة، كما يبين إمكان الإفادة من هذه الممارسات في دراسة التلقي الأدبي(OUP Academic) .

[2] Pianzola, Federico. *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.

يقدم أول معالجة تركيبية واسعة لممارسات القراءة الاجتماعية الرقمية عبر منصات متعددة، ويحلل تغير سياق القراءة ومواقف القراء وبناء المجتمعات الرقمية، مستفيدًا من حالات مثل Wattpad و AO3وGoodreads. (MIT Press)

[3] Kalir, Remi H. & Garcia, Antero. *Annotation*. Cambridge, MA: MIT Press, 2021.

يعالج التعليق بوصفه جنسًا يجمع القراءة والتفكير والكتابة والاتصال، ويبين وظائفه في تقديم المعلومات والتعليق وإطلاق المحادثة والتعبير عن القوة ودعم التعلم، وهو ما يشكل أساسًا لتحليل الهامش الرقمي في هذا الفصل(MIT Press) .

[4] Jenkins, Henry. *Convergence Culture: Where Old and New Media Collide*. New York: New York University Press, 2006.

مرجع أساسي في ثقافة التقارب والمشاركة، ويفيد في فهم تحول الجمهور من مجرد استهلاك المحتوى إلى المشاركة في تداوله وإعادة تشكيله، كما يقدم أساسًا لدراسة السرد العابر للوسائط(NYU Press) .

[5] **Bruns, Axel.** *Blogs, Wikipedia, Second Life, and Beyond: From Production to Produsage*. New York: Peter Lang, 2008.

يؤسس مفهوم *produsage* لوصف البيئات التي تتراجع فيها الحدود الصارمة بين المنتج والمستخدم وتتحول المشاركة إلى عملية مستمرة في إنتاج المعرفة والمحتوى، ويستفاد منه في بناء مفهوم القارئ المنتج(Peter Lang) .

[6] **Bourdieu, Pierre.** *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*. Translated by Richard Nice. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984.

يُستفاد منه في تحليل الحكم الجمالي والمعايير الثقافية بوصفها متشكلة داخل سياقات اجتماعية ومؤسساتية، وفي تجنب المقابلة المبسطة بين نقد مهني «موضوعي» ومراجعات جماهيرية «ذاتية».«

[7] **Hutcheon, Linda, with Siobhan O'Flynn.** *A Theory of Adaptation*. 2nd ed. London/New York: Routledge, 2013.

مرجع أساسي في دراسة الاقتباس وإعادة الترميز بين الوسائط، ويؤكد أن التكيف عملية إبداعية لها شروطها وطرائق انخراط مختلفة، ولا ينبغي اختزالها في معيار الوفاء الحرفي للنص السابق(Routledge) .

[8] **Have, Iben & Stougaard Pedersen, Birgitte.** *Digital Audiobooks: New Media, Users, and Experiences*. London/New York: Routledge, 2016.

يدرس الكتاب الصوتي الرقمي بوصفه إعادة وساطة للأدب وتجربة قراءة قائمة على الاستماع، ويحلل أثر الصوت والأداء والوسيط المحمول في طبيعة التجربة القرائية(Routledge) .

[9] **Scolari, Carlos Alberto.** "Transmedia Storytelling: Implicit Consumers, Narrative Worlds, and Branding in Contemporary Media Production." *International Journal of Communication*, Vol. 3, 2009, pp. 586–606.

يقدم معالجة سيميائية وسردية للسرد العابر للوسائط والعوالم التي تتوزع بين منصات وأشكال تعبيرية مختلفة، كما يناقش أدوار الجمهور في التعامل مع هذه العوالم وتوسيعها(International Journal of Communication) .

[10] **Jenkins, Henry.** *Textual Poachers: Television Fans and Participatory Culture*. New York/London: Routledge, 1992.
يمثل أحد الأعمال المؤسسة لدراسة الجمهور النشط وثقافات المعجبين وإعادة تملك النصوص وإنتاج أعمال مشتقة، ويشكل خلفية مهمة لفهم القارئ الذي ينتقل من التلقي إلى الإنتاج.

[11] **Eco, Umberto.** *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts*. Bloomington: Indiana University Press, 1979.
مرجع أساسي في مفهوم التعاون التأويلي والقارئ النموذجي والعلاقة بين انفتاح النص واستراتيجية القراءة، ويُستفاد منه في ضبط مفهوم القارئ بوصفه منتجًا للمعنى دون تحويل التأويل إلى حرية غير محدودة (Indiana University Press) .

[12] **Iser, Wolfgang.** *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.
يشكل الأساس النظري لفهم القراءة بوصفها فعلًا يحقق إمكانات النص عبر الربط بين أجزائه وملء مناطق عدم التحديد ، ويُستفاد منه في تأصيل فكرة أن إنتاج القارئ للمعنى يسبق تاريخيًا ظهوره كمنتج رقمي.

[13] **Fish, Stanley.** *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980.
مرجع تأسيسي لمفهوم الجماعات التأويلية وللدور الذي تؤديه الاستراتيجيات المشتركة في تحديد ما يصبح قابلًا للفهم والتأويل داخل جماعة معينة.

[14] **Jenkins, Henry.** *Fans, Bloggers, and Gamers: Exploring Participatory Culture*. New York: New York University Press, 2006.
يجمع عددًا من الدراسات حول الجمهور النشط والثقافة التشاركية ويؤكد أن المعجبين والمستخدمين يستطيعون أن يكونوا فاعلين خلاقين ونقديين واجتماعيين لا مجرد مستهلكين للمنتجات الثقافية(NYU Press) .

[15] **Bruns, Axel.** “Produsage” as developed in *Blogs, Wikipedia, Second Life, and Beyond: From Production to Produsage*. New York: Peter Lang, 2008.

تستعاد الإحالة هنا من المرجع [5] **للتأكيد الاصطلاحي على مفهوم الإنتاج ـ الاستخدام، وقد أبقيت داخل الرقم** [5] **في المتن تجنبًا لازدواج الإحالة، ولذلك لا تمثل مصدرًا مستقلاً بل إشارة مفهومية إلى المرجع نفسه.**

[16] Engberg, Maria; Have, Iben & Stougaard Pedersen, Birgitte (eds.). *The Digital Reading Condition*. London/New York: Routledge, 2023.

يقدم الكتاب مقاربة بينية للقراءة في البيئة الرقمية والمتعددة الحواس والعابرة للوسائط، ويضم دراسات في الكتب الصوتية والواجهات الرقمية والقراءة عبر وسائط مختلفة، وهو ما يدعم توسيع مفهوم القراءة خارج النموذج المطبوعي وحده(Routledge) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم المراجع السابقة في أربع دوائر نظرية مترابطة؛ إذ توفر أعمال ريبورا وزملائه وبيانزولا وكالير وغارسيا [1–3] الأساس المباشر لدراسة القراءة الاجتماعية الرقمية والتعليقات والحواشي بوصفها ممارسات تجمع التلقي والكتابة والتواصل، بينما تسمح أعمال جنكينز وبرونز [4][5][10][14] بفهم انتقال الجمهور من الاستهلاك إلى المشاركة وإعادة إنتاج المحتوى وتراجع الحدود الصارمة بين المستخدم والمنتج. وتقدم أعمال هاتشون وهاف وستوغارد بيدرسن وسكولاري ومجلد *The Digital Reading Condition* [7–9][16] الإطار اللازم لتحليل القراءة والاقتباس والسرد عبر الوسائط المختلفة، في حين تعيد أعمال إيكو وإيزر وفيش وبورديو [6][11–13] ربط هذه التحولات المعاصرة بأسئلة نظرية أقدم حول إنتاج المعنى والجماعة التأويلية والذوق وحدود التأويل.

ومن تقاطع هذه المسارات يتأسس المفهوم المركزي لهذا الفصل :القارئ المنتج ليس قارئًا ألغى المسافة بين القراءة والتأليف، بل قارئًا أصبحت استجابته قادرة على اتخاذ شكل نصي أو بصري أو سمعي قابل للنشر والتداول، بحيث يتحول من نقطة نهائية في مسار العمل إلى حلقة فاعلة تعيد إنتاج المعنى والخطاب والبيانات وتؤثر بدورها في شروط قراءة الآخرين.